

الماضي لا يموت

رواية

د. شيماء جاد.



دار دريم بن للطباعة والنشر

العنوان: مدينة العبور - الحي السادس، فيلا ٨، مدخل ١

الهاتف: ١٠٠٣٢٨٨٥٩٦ (٠٠٢٠)

البريد الإلكتروني:

Dream.pen92@gmail.com

الماضي لا يموت

الطبعة الأولى، القاهرة ٢٠٢٠م

غلاف: محمد جاد edmonjad.com

تدقيق لغوي: آلاء العزاوي

تنسيق وإخراج داخلي: د. شيماء جاد

رقم الإيداع: ١٧٠٤٤/٢٠٢٠

I.S.B.N ١ ٩٧٨-٩٧٧-٦٧٩٤-٣٦-٨

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للدار، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار

هذا الكتاب أو جزء منه أو نقله بأي شكل من الأشكال، أو وسيلة من وسائل نقل المعلومات، ولا

يجوز تداوله إلكترونياً نسخاً أو تسجيلاً أو تخزيناً دون إذن خطي من الدار.

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن رأي دار النشر.

الماضي لا يموت

د. شيماء السيد جاد



إهداء

إلى من كتبت حرفاً فقرأه وشجعني، إلى من قرأت لي حين كنت أخط بالقلم دون أبجديات الكتابة.. أختي الصغيرة، إلى من كانوا يستمعون لي في سمر الليالي الصيفية الدافئة ويسمعون سردي وثرثرتي من وحي الخيال.. أسرتي الجميلة. إلى هذه الصديقة البعيدة عبر القارات القريبة من دفء القلب وبها القلب يهيم. إلى هؤلاء القابعين في مساكن القلب يرونني بعين الكمال ويشيدون بحرفي، أحبكم في الله.

زوجي شكراً لك على كل الدعم الذي لاقيته منك واهتمامك بكل تفاصيل ما أكتب، أبنائي من كانوا سبباً في تأخري كل هذه السنوات عن ممارسة الكتابة وتحقيق ما أصبو إليه، أهدي إليكم هذه الرواية علکم تتركون لي مجالاً للإبداع فيما بعد.

كل التقدير والشكر لمن آمنت بقلمي وأعطتني تقديرًا ومحبة..
الأستاذة القديرة منحة.
شكراً لكم جميعاً ودمتم بالقلب.

وشكر خاص للصديق والأخ المحامي أحمد الحفناوي والذي راجع معي حيثيات سير الأمور بالمحاكم الجنائية ووضح لي كثيرًا مما خفي علي.

مقدمة..

في ماضي كلِّ منا أسرار، علاقات عابرة أو ربما عميقة...

وهناك الجانب المخزي الذي لا نتورع عن دفنه داخل مجاهل
الأزمنة...

نحتاج لردمه تحت طبقات من التصنع والتظاهر وربما بعضٍ من
السعادة الزائفة...

نخاف أن ينكشف المستور ذات مرة فتُعرف حقيقتنا التي
واريناها كثيرًا في التراب...

ومن منا يحب فعل ذلك؟

لا أحد!...

لا أحد بتاتًا يسعى لذلك الخراب.

البداية

انتابته نوبة من السعال الشديد، أمسك منديلًا ورقيًا سريعًا ليضعه على فمه. يعلم كيف ستنتهي تلك النوبة، بضع قطرات صغيرة من الدماء ستخرج إلى المنديل الورقي وربما تزايدت لتصبح قطرات كبيرة.

كانت تلك حاله في الآونة الأخيرة، يشعر بدنو أجله كما أخبره الأطباء؛ فحالته ليست جيدة وتنتج فحوصاته تخبرهم بأنه لن يصمد بسبب نهش المرض صدره، فالتشخيص المتأخر لسرطان الرئة الذي أصابه منذ ما يقرب من الشهرين كانت نهايته معلومة بعد رفضه العلاج الإشعاعي التلطيفي حيث فضل أن يقضي ما تبقى من عمره في تصحيح أخطائه والتمتع بدفء أسرته الصغيرة.

انتهت نوبة السعال بقطرات كبيرة من الدماء. نظر إلى المناديل الممتلئة بدمائه بنظرات واجمة. يبدو أنها تدنو سريعًا، نهايته المحتومة تلك!

اتخذ قراره في النهاية فرفع هاتفه المحمول ليتصل برقم ما يحفظه عليه خصيصًا لهذه اللحظة، أجرى مكالمة مع الطرف الآخر فحواها أنه يريد مقابلته الليلة لأمر هام وسيتأخر في الشركة بعد موعد انصراف الموظفين، فقد كانت تلك المقابلة السرية تترتب عليها الخطوات التالية فيما تبقى من حياته.

يعلم أنها قد تدمر حياة شخص في مقابل إنقاذ من يستحق
الإنقاذ بنظره، لذا كان يحتاج المساعدة في اتخاذ ذلك القرار بناءً
على ردة فعل الطرف الآخر.

لكن دائماً ما ننسى أن الحياة لا تسير وفق أهوائنا، وقد كانت
حياته على مشارف الفقدان!

الفصل الأول... غرفة العمر

جلست على المقعد في أقصى ركن منعزل من البهو الكبير بفيلا المتوفي حديثاً مراد خطاب، عمها. كانت تنظر لحدائثها الموحد الذي جف الطين عليه بتأمل، ترى التشققات التي رسمت خطوطاً متعرجة وكأنه طريق وهمي يسير إلى اللا معلوم مثل حياتها.

إلى الآن تعيش حالة من الإنكار، فمنذ وصول خبر مقتل عمها رجل الأعمال المعروف بدهائه وقوته وبنفس الوقت حنانه وعطائه الذي كان يحيطها به منذ رحيل والدها عن الحياة، وهي تعيش في عالم غير حقيقي كأنها تطفو على الأوهام.

رفعت رأسها ترمق بحذر زوجة عمها التي كانت تجلس على مقعدها الكبير في صمت ذاهل، وجدت أنها لم تتحرك منذ أن احتواها ذلك المقعد، تجلس محدقة في الفراغ وكأنها في دنيا غير الدنيا التي يعيش فيها باقي البشر.

«جمانة الشيخ» هو اسم زوجة عمها المكلمة. تأملتها ببشرتها البيضاء وخديها المكتنزين وحجابها الأبيض. رغم السواد الذي تتشح به إلا أنها بدت مثالية للغاية بشكلها البريء وشخصيتها الهشة الضعيفة، ارستقراطية تمرغت في الثراء كثيراً حتى أصبح جزءاً لا يتجزأ من كينونتها رغم تواضعها الجرم

ومعاملتها اللطيفة للجميع. تحبها ماسة إلى أبعد الحدود؛ فقد وجدت فيها كل الحب الذي تحتاجه وحنان الأمومة المفقود.

أدارت ماسة رأسها تتابع الوجوه الحزينة بصمت وكأنها حينما تفعل ذلك ستتأكد من حقيقة وفاة عمها المحبوب! رأت على يمين زوجة عمها «إيثار الشاهد» تجلس صامتة واجمة وملامح وجهها الجميلة الجامدة لا تشي بما يدور داخل عقلها. هكذا كانت طوال السنوات التي عرفت بها ماسة، جامدة المحيا لا تظهر ما تبطن، تتخفى خلف زرقة عينيها وشقرة شعرها المصبوغ بعد أن بدأت شعيراته البيضاء بغزو فروة رأسها.

التقت عيونهما فسرى الجليد داخل ماسة، إذ أن إيثار رمقتها بنظرة مخيفة لوهلة ثم عادت نظراتها لطبيعتها. أشاحت ماسة بعينيها سريعًا لتجد أختها «فيروز» تجلس على المقعد المجاور لوالدتها منهارة الملامح ولمعة عينيها تشي بذرفها كثيرًا من الدموع حتى انتفخ جفناها وتورمت عيناها.

تقابلت نظراتهما فخفضت فيروز عينيها بحزن وكأنها تخشى اللقاء! اكتفت ماسة بأن هزت رأسها بخفة مظهرة تعاطفها وسندها لفيروز. تشعر بالحيرة لانهايار فيروز الشديد مع أنها لم تكن بذات القرب الذي كانت به ماسة مع عمها الفقيد، ورغم ذلك كانت تريد مؤازرتها في انهايارها فهكذا كانت علاقتهم دائمًا؛ فيروز تعتمد على ماسة في كل أمور حياتها دون اللجوء لوالدتها.

عادت ماسة للنظر إلى حذائها الموحل، وكل ما يدور بخلدتها الطريقة الغربية التي مات بها عمها فقد استيقظت في الصباح الباكر على اتصال صادم من «عمر» ابن عمها مراد، يخبرها بذهول أن والده قد مات. شهقت ماسة بذعر متسائلة عن كيفية حدوث ذلك فأجابها بانهيار أنه وُجِدَ مقتولاً في مكتبه وأن الشرطة ترجح كونها جريمة بدافع السرقة.

نشيجه الخافت أتاها من الجهة الأخرى وهو يكمل بصوت متقطع أن ساعي المكتب وجده صباح اليوم في المكتب، مصاباً بطلق ناري اخترق القلب وترجح الشرطة أنه مات سريعاً.

سألت ماسة بصدمة ذاهلة: وكيف لم يشعر بغيبابه أحد؟

أجاب بهمس خافت: لا أدري! لقد عاد للمنزل عصرًا وتناول غدائه معنا ثم أخبر والدي بأنه ربما يتأخر عن العودة قليلًا، وأنت تعرفين أن والدي تتناول دواءً خاصًا لآلام الفقرات يسبب لها النعاس بعمق فلم تدري إن كان قد عاد أم لا؟

ثم عاد صوته ينشج لائماً نفسه لأنه لم يطمئن على عودته قبل أن يخلد للنوم. بدا أنه يعاني انهيارًا حادًا ولا يستطيع تخليص نفسه من الإحساس بالذنب والتقصير. تقمصت ماسة دور القوية فأجلت انهيارها لتواسيه، ولا تدري أتواسي نفسها أم تؤازره فأخذت تردد شعارات جوفاء عن كونه يتعب باستذكار دروسه فلا داعٍ لتحميل نفسه ذنبًا لا يناسبها، وحين هدأ بعض

الشيء وجدت نفسها مدفوعة للسؤال عن أحوال جمانة، فرغم فداحة مصابها إلا أن نزعة حماية الغير في شخصيتها كانت تجعلها تؤجل مشاعرها لتهتم بالجميع.

أجابها بصوت يقطر بؤساً: ليست بخيرا! لم تذرف دمعة واحدة منذ أن علمت بخبر وفاته. سقطت أرضاً مغشياً عليها ثم حين استفاقت لم تنطق بكلمة.

قالت ماسة بقلق: هل علمت إيثار بخبر مقتل عمي مراد؟

أخبرها بصوت متهدج أن إيثار زارتهم منذ الصباح حين أخبرتها الخادمة بما حدث لوالده وأنها لم تفارق والدته للحظة.

عقدت ماسة حاجبيها بضيق، تفكر بأن إيثار لم تكلف نفسها عناء إخبارها بموت عمها لكنها قالت بهدوءٍ حازم يتنافى مع انهيار دواخلها أنها سوف تسافر إليهم في الحال، ملحة عليه ألا يترك الفيلا حتى وصولها لكنه رفض بصوته المختنق بالدموع، معللاً وجوب وجوده مع والده في المستشفى حتى يحصل على تصريح الدفن اللازم لإخراجه من المشرحة.

انتهى الاتصال بينهما فأطلقت العنان لدموعها دون رادع ودون سيطرة، بل ظلت تنتحب بصوت مرتفع كطفلة أخبروها بأنها تاهت إلى الأبد عن أهلها.

والآن، بينما تجلس على مقعدها بعد رحلة شاقة خلال الأمطار المتساقطة برفقة أختها فيروز، ما تزال تفكر بأحوال عمر فلم تكن قد رأته منذ قدومها وحينما هاتفته لتطمئن عليه.

أجابها باقتضاب بأنه سيحدثها مرة أخرى ولم يعاود الاتصال بعد.

نهضت من مقعدها فرمقتها إيثار بنظرة ثابتة لكنها تجاهلتها وانسحبت من البهو سريعًا في طريقها إلى المرحاض في الطابق العلوي. أرادت أن تغسل وجهها وتبدل ملابسها المتسخة الأطراف بلطخات من الطين. فكرت بالذهاب لغرفتها وتبديل ملابسها لكنها أرجأت الفكرة إلى أن تخرج من المرحاض. لا تريد الآن دخول الغرفة التي خصصها لها عمها بفيلته منذ صغرها والتي أصبحت ملاذها حين تحضر إلى الجامعة وتتأخر فيها فلا تستطيع العودة لمنزل والدها في أطراف المدينة في الأقاليم. تخرجت العام الماضي من الجامعة لكن عمها أصر عليها لتستكمل دراستها العليا لتحضير الماجستير كي تضمن تعيينها في مكتب محاماة مرموق رشحها له.

جففت وجهها بالمنشفة ثم تطلعت له في المرأة، ترى ملامحها وكأنها تراها لأول مرة؛ وجهها الشاحب قد ازداد شحوبًا على غير المعتاد وعيناها البنديقتان الواسعتان تبدوان في وجهها المرهق أكثر اتساعًا بينما تهدلت خصلات من شعرها البني من تحت حجابها ثائرة متمردة كحال روحها في تلك

اللحظات. يميز وجهها الشاحب النحيل طابع الحسن (الخال) أسفل ذقنها.

تطلعت مليًا لوجهها التي تصفه إيثار دائمًا بأنه وجه جثة ثم زفرت بضيق وعدلت وضع حجابها، وحين همت بالخروج من المرحاض سمعت صوت باب غرفة في آخر الرواق يُفتح ثم يُغلق. خرجت من الحمام تتطلع إلى نهاية الرواق فلم تجد أحدًا. تقع غرفة عمها الراحل في آخر الرواق تليها غرفة زوجته. لقد صادفت لغزًا بإصرار عمها على الاختلاء بنفسه مؤخرًا في غرفة خاصة يقضي فيها ليلاليه وحيدًا، متحجبًا بأنه يعمل لوقت متأخر ولا يريد إقلاق جمانة بسهره.

مشت بخطوات بطيئة تجاه الغرفة تغالب نفسها على وجيعة فقد، ترغب بمعرفة من يوجد في الأعلى بينما يجلس جميع المعزين في الأسفل. رجحت أن يكون عمر قد عاد وقرر الاختلاء بنفسه.

عمر صديقها منذ الصغر. يستطيعان التفاهم دون الحاجة للكلام، يحسبهما الرائي توأمان لتشابه ملامحهما بعينيه البنيتين والخال أسفل ذقنه. كان يقضي ليلاليه الصيفية منذ الصغر في منزلها في تلك المنطقة الريفية، يتنشق الهواء النقي ويستمتع بالسهر في الحديقة مع أسرته.

تعرف أنه يحتاج المساعدة فقد كان هسًا رقيقًا لا يتحمل المِحن، فماذا عن فقدان أب كان كل أساس حياته؟ طرقت

الباب المغلق بخفوت فلم يصلها أي رد. أعادت طرق الباب مرة أخرى وأيضًا لم تتلق إجابة ففكرت قليلًا ماذا تفعل، لكنها بدافع الشهامة قررت أن تقتحم الغرفة وتجبر عمر على تلقي الدعم منها والمواساة.

قرنت تفكيرها بالفعل فمدت يدها تفتح مقبض الباب بحذر. طالعتها الظلام الدامس الذي يلف الغرفة فلا يظهر منها سوى أشباح الأثاث. همست بصوت خافت: عمر، هل أنت هنا؟

لا إجابة لسؤالها الذي ظل عاليًا بهواء الغرفة فأعادت الهمس مرة أخرى بسداجة: عمر، أنا ماساة.

وحين لم تحصل على إجابة دخلت الغرفة بحذر، تحاول أن تتغلب على الظلام بتضييق عينيها ثم مدت يدها نحو قابس الإضاءة تضغطه لكنه لم يستجب! أحست بأن جو الغرفة مُقبضًا وكأن فيها شيئًا غير طبيعي.

أخرجت هاتفها لتستخدم ضوءه كي ترى ملامح الغرفة المظلمة، وفي تلك الإضاءة الشاحبة لا شيء غير طبيعي استوقفها، فها هو فراش عمّها مرتب كما كان يحب والطاولة الجانبية تحمل علبة دوائية متراسة بانتظام وبجوارها كوبًا من الماء مغطى. اتجهت ببصرها نحو الأريكة الجانبية فتصلب جسدها وتراجعت ببطء فقد لمحت جسدًا مُكومًا تحت الأريكة، ملفوفًا بالدفء الخاص بالفراش.

تراجعت بخطوات مذعورة حتى وصلت إلى باب الغرفة فخرجت منه بسرعة وأغلقت خلفها بهدوء، تغالب رعبها الذي زحف على عمودها الفقري للحظات. "ماسة ذات التفكير المتزن تخشى كومة مجهولة الهوية في غرفة مظلمة؟!" هكذا قالت لنفسها ساخرة وما زال قلبها ينبض بعنف لحظات الخوف السابقة. انتظرت حتى هدأت أنفاسها وبدأ تفكيرها المتزن يعود ليطغي على رعبها. تذكرت بأن غرفتها في الجهة الأخرى فيها مصباحًا للطوارئ، تحسبًا لانقطاع الكهرباء. سارت بخطوات حذرة نحو غرفتها، تتطلع خلفها كل حين كي تتأكد بأن لا أحد سواها في الرواق.

دخلت غرفتها فوجدت المصباح في مكانه المعتاد. حملته بخفه وغادرت الغرفة مرة أخرى تجاه غرفة عمها. وصلت أمام الباب فوقفت تلتقط أنفاسها ثم فتحت المقبض بحذر بعد أن أنارت المصباح ودلفت إلى الغرفة متجهة نحو الأريكة.

رأت نفس الدثار تحت الأريكة فمدت يدها بحذر تتحسسه لكنه كان كومة فارغة. عقدت حاجبيها بعدم فهم؛ فقد كانت متأكدة بأن شكل الدثار لم يكن هكذا بل كان يحمل هيئة جسد ملفوفًا به. سحبت الدثار تنظر نحوه بتأمل وكأنها تحاول أن تفكر بسبب منطقي لوجوده تحت الأريكة. كانت متأكدة بأن وجوده غير طبيعي لذا نهضت على قدميها وتلفتت حولها مرة أخرى تطالع الغرفة.

لفتت نظرها غرفة الملابس الصغيرة الملحقة بآخر الغرفة، وبدون تردد توجهت نحوها تحمل المصباح وترفعه كي يعطيها أكبر مساحة مُضاءة. دخلت إليها تتلفت حولها باهتمام ثم توجهت نحو أحد الأركان. لمحت بجانب عينيها خيالاً مظلمًا يتحرك نحوها بخفة فاستدارت سريعًا تنظر نحوه لكنها لم تنتبه لمشجب الملابس الخشبي فارتطمت به بذعر لتسقط معه أرضًا. حاولت النهوض سريعًا تتغلب على دوارها والظلام الجزئي الذي حل على الغرفة بعد سقوط المصباح من يدها لتحط الجهة المضاءة منه على الأرض لكنها للأسف وجدت تلك الهيئة السوداء تكتم أنفاسها، وبدون سابق إنذار شعرت بوخزة في ذراعها جعلتها تصرخ برعب صرخة قصيرة لتسقط بعدها في عالم من الظلام الحالك بين يدي شبح مجهول...

استقامت ماسة فجأة لتجد نفسها على فراشها في غرفتها، متدثرة بغطائها. تطلعت حولها بحيرة يلف ذهنها ضباب قاتم فلا تتذكر ما حدث معها منذ قليل. هبطت من فراشها فشعرت بدوار يسيطر على عقلها ويضرب الرؤية أمام عينيها. وضعت يدها على رأسها ثم عادت تجلس مرة أخرى، تستشعر الصداق الذي يعصف برأسها وكأنه مطارق ضخمة تطرق بلا توقف. لا تتذكر سوى رؤى هلامية تطفو على سطح الذاكرة لكنها لا تتذكر أنها قد حضرت لغرفتها. فجأة سطعت بذاكرتها ذكرى الوخزة المؤلمة التي أصابتها في ذراعها. مدت يدها تتحسس مكانها ثم

كشفت ذراعها لتتأكد منها فوجدت نقطة حمراء خفيفة تؤكد حدسها بأنها قد وخزت بالفعل.

عادت تفرك وجهها بألم، تحاول أن تتذكر ما حدث بالترتيب. تأكدت بأن هناك من كان في غرفة عمها لسبب مجهول، هناك متطفل قام بتخديرها لأنها كادت أن تكشف أمره. ما العمل الآن؟

أمسكت هاتفها تفكر بالخطوة القادمة، طلبت رقم عمر مرة أخرى فلم يأتها رده فعادت تفرك وجهها تفكر كيف تتصرف.

سمعت طرقات خافتة على باب غرفتها فانتفضت في مكانها، تفكر أين تختبئ لكن الباب فُتح ليطل عمر برأسه قائلاً بهمس متسائل: ماسة، هل استيقظت؟

تنهدت براحة قائلة: عمرا! أين كنت؟

دلف إلى الغرفة قائلاً بقلق: لقد عدت قبل قليل لكن الخادمة أخبرتني حين بحثت عنك بأنك تعانيين صداعًا وقد ذهبت للاستراحة في غرفتك قليلاً فخشيت أن يكون قد أصابك مكروه.

وضعت يدها على رأسها وقد تذكرت الصداع الذي يفتك بها. عقدت حاجبها قائلة بصوت متحير:

نعم أعاني الصداع لكنني لا أتذكر بأني ذهبت للنوم فقد كنت في غرفة والدك.

نظر نحوها بدهشة متسائلًا: غرفة والدي، لماذا؟

نهضت من الفراش قائلة بهمس خرج متوترًا: لأنني ظننت بأن هناك شخص فيها.

هتف بدهشة وقلق: ماسة، أتمزحين؟ من سيدخل غرفة والدي؟

وضعت يدها على فمها قائلة بتأنيب: شششش، اتبعني وسنرى.

سار خلفها بحذر يتتبع خطواتها دون أن يفهم شيئًا مما تقول. اقتربا من باب غرفة والده فأصابته رعشة سرت في كامل جسده، وكأنه سيقابل والده المتوفي حقيقة لكن ماسة المتوترة لم تنتبه لما يعتريه. كانت تعيش في عالم الخوف الخاص بها، وكل ذلك الأدرينالين الذي يضح في جسدها ويسبب الطنين في أذنها ويتدفق في عروقه يجعلها لا تشعر بمن حولها.

مدت يدها تمسك مقبض الباب لتفتحه فجأة ثم التفتت تقول لعمر بخوف: ربما نجد أحدهم في الداخل.

لكن عمر قال بصوت متهدج: لا أستطيع دخول غرفة والدي الآن، لن أستطيع!

قالت بخوف: عمر، هذا ليس وقت الدراما! هناك من كان
يختبئ في غرفة والدك ولا أدري ما السبب. دعنا ندخل لنرى
الغرفة!

قال بتوتر: من سيدخل الغرفة يا ماسة؟ لا يوجد أحد غريب
في الفيلا، كما أن الحارس لم يخبرني بوجود أحدهم.

مدّت رأسها داخل الغرفة تحاول أن ترى ما بها بينما تقول
بثقة محملة بالخوف: بل أنا متأكدة من وجود أحد فقد كان
هناك ذلك الدثار تحت الأريكة، كما أنني تعرضت للوخز.

تطلع نحوها بعدم تصديق، فقالت بغضب: هل تشكك
بكلامي؟ تعال وانظر بنفسك!

دخلت الغرفة بغضب وقد نسيت أن الإضاءة معطلة.
ضغطت قابس الإضاءة ثم عادت تقول بتوتر:

لقد هشم أحدهم المصباح الكهربائي في الغرفة، أخرج
هاتفك.

قالتها بينما تنير هاتفها موجهة إياه نحو المصباح المهشم
كدليل على صدق كلامها.

تطلع عمر نحو المصباح فُصّب الخوف في قلبه لذا امثل
لكلامها فأخرج هاتفه ليضيء المصباح به فاستنارت الغرفة
بوضوح. تقدمت نحو الأريكة بثقة قائلة: انظروا هنا كان يختبئ

أحدهم، وعندما ذهبت لإحضار مصباحي الكهربائي من غرفتي
وعدت لم يكن هنا سوى هذا الدثار.

اتبعت كلامها بالهبوط على ركبتيها لكنها لم تجد ما يؤكد
صحة كلامها فقد اختفى الدثار وكأنه لم يكن! استقامت تقول
بحيرة متوترة: لكنه كان هنا!

تجولت بعينها تبحث عنه بينما تقول ذلك ثم شهقت حين
وجدته مطويًا بعناية ومرتبًا على فراش عمها، أشارت نحوه
بصدمة مغتازة: ها هو الدثار لكنني متأكدة بأنه كان تحت
الاربيكة!

قال عمر بتوتر مماثل: ماسة، أنت مرهقة وربما ما زلت تحت
تأثير صدمة فقدانك والدي.

قالت بغضب: أنا لا أتخيل يا عمر! لقد رأيت ما حدث حقيقة.

ثم هرعت نحو غرفة الملابس الملحقة بغرفة النوم مكملة
بحدة: لقد دلفتُ هنا لكنني اصطدمت بمشجب الملابس
فسقطتُ أرضًا وحينها لمحت شخصًا متشحًا بالسواد يجثم
فوق أنفاسي ثم شعرت بوخزة وبعدها غبت عن الوعي.

قالتها وهي تقترب من المشجب الموجود في مكانه ولا يوجد
أثر لسقوطه أرضًا كما تدعي.

اقترب عمر ليقول برهبة: حسنًا يا ماسة، سأفترض أن كلامك حقيقي. من الذي سيدخل غرفة والدي متسللاً وعمّ سيبحث؟

أجابته بتوتر: لا أدري، حقًا لا أدري! ربما من قتله يبحث عن شيء ما.

تحدث عمر بعصبية: ماسة، لقد أخبرتك بأن حادث وفاته كان بغرض السرقة، فقد اختفت محفظته وساعته وبطاقاته الائتمانية كلها كما فُقدت عدة أشياء ثمينة من مكتبه.

أصرت بعناد: لكن من سيدخل مكتبه ليقتله؟ لا أستسيغ تلك الفكرة.

تنهد بأسى: وأنا لا أستسيغ فكرة مقتله بأكملها كما أنني لا أستطيع أن أتخيل بأن من قتله كان يضمّر له شرًا، فوالدي لم يكن ليؤذي أحدًا.

استدارت لتغادر الغرفة الصغيرة قائلة بأسى: عمي مراد رحمه الله كان نعم الأب والزوج.

عندما تجاوزت باب الغرفة وجدت أن عمر لم يتبعها. رآته يلتقط شيئًا ما من الأرض ثم يدسه داخل جيبه سريعًا فسألت بفضول: ماذا وجدت؟

توتر وهرب بنظراته قائلاً: لم أجد شيئاً، لقد سقطت مفاتيحي.

كان توتره يشي بأنه قد خبا عنها أمراً ما لكن ماسة التي تعاني من الصداع لم تنتبه لتوتره ولا إلى حركة جسده التي تخبرها بالكثير، تخبرها بأنه يخفي أمراً ما لا يريد أن تعلمه.

عادت ماسة إلى غرفتها مرة أخرى تبحث بين أغراضها عن علاج للصداع الذي يفتك برأسها. قامت بإبدال ملابسها أولاً ثم عادت لتلقط علبة الحبوب لتخرج منها حبة واحدة. بحثت عن زجاجة مياه فلم تجد لذا اتجهت سريعاً إلى المطبخ الصغير الملحق بالطابق العلوي لتحضر واحدة منه، وهناك رأت فيروز تقف مع إثارة التي كانت تعنفها بصوت خافت.

اقتربت منهما متسائلة عن سبب ذلك التعنيف لكن فيروز اكتفت بأن طأطأت برأسها أرضاً بينما رمقتها إثارة ببرود قائلة: هذا أمر لا يخصك!

ثم استدارت وغادرت المطبخ بعد أن رمقت فيروز بنظرة محذرة إياها بالأ تتحدث.

ما إن غادرت المطبخ حتى اقتربت ماسة بقلق من أختها قائلة: فيروزي، ماذا هناك؟

رأت بقايا دموع تلمع في عيني أختها التي اكتفت بإجابة
مقتضبة: لا شيء يا ماسة.

ربتت عليها ماسة قائلة بحب: لا شيء يستحق تعنيفك
عليه يا روزي، أنت فتاة جيدة للغاية.

علقت الدموع بأهدابها ففركت وجهها ثم قالت بصوت
حزين: أنا سيئة للغاية يا ماسة لكنك أروع أخت في الوجود. لا
تغضبي من معاملة والدتي لك! لا أدري لم لا ترى الجانب
الجميل في داخلك كما يفعل الجميع؟

ضحكت ماسة بخفة قائلة: صدقيني، لا أبالي كيف تعاملني
إيثار. اعتدت هذا منها.

ثم مالت واحتضنت فيروز قائلة بمحبة أخوية تتبع من قلبها
الكبير: لا تقولي عن نفسك سيئة يا روزي! أنت أروع شخص في
حياتي! أنا موجودة دائمًا لأجلك، لذا ما إن تحتاجيني فتعالني
وشاركيني همومك بغض النظر عما تقوله والدتك لك.

توترت فيروز وأشاحت بوجهها قائلة بصوت مختنق: لا يوجد
ما أشاركك به! أنا بخير، لا شيء يستحق التفكير به.

هزت ماسة رأسها بينما تحاول أن تفكر ما الذي تقصده
أختها بأنه لا شيء يستحق التفكير به، هل الوضع يشمل
عواطفًا ومشاعرًا مخبأة تجاه شخص ما؟ فقد كانت فيروز التي

تدرس بعامها الجامعي الثاني في كلية الصيدلة التي يدرس فيها عمر، تبدو هادئة ومؤدبة أكثر مما ينبغي حدّ الانطواء.

تشعر ماسة بحدسها الكبير بأنها تخفي مشاعرها تجاه عمر بقوة ولم تصارح أحدًا ما من قبل بذلك حتى هي، فكيف يعقل أن تخبر إيثار بمشاعرها؟ هل جُنت بأن تخبر تلك القاسية الأنانية التي لا تعبأ بأحد سوى بنفسها؟

إيثار زوجة محمود خطاب والد ماسة الذي تزوجها بعد وفاة والدة ماسة بعامين. لا تعرف ملابسات زواجهما لأنها كانت حينها صغيرة السن جدًّا لتدرك بأن هذه السيدة ليست والدتها الحقيقية.

ماتت والدة ماسة بعد ولادتها بأيام إذ كانت تعاني من مضاعفات ما بعد الولادة، احتجزت على أثرها في مستشفى خاص ثم شاء الله أن تقضي نحبها. أخبرها والدها فيما بعد بأن إيثار كانت ممرضة في المستشفى التي توفيت فيها والدتها وأنها أظهرت اهتمامًا بها مما شجع والدها على الزواج بها كي تهتم بابنته أثناء فترة عمله. فقط هذا ما علمته، لم يخبرها بأكثر من هذا! لم يخبرها لِمَ انتظر عامين كي يتزوجها ولم يخبرها بأي شيء يخص ماضي إيثار التي كانت تعاملها معاملة جيدة في وجود والدها بينما تصفعاها في غيابه. وهكذا تعلمت بالطريقة الصعبة أن البشر يتلونون بوجهين، يظهرون الوجه الجيد حينما يريدون الحياة أن يفعلوا بينما يضمرون الوجه القبيح ليظهر

على حين غفلة من البشر. شيء واحد كان يحييها للغاية، عمها
مراد الذي كان يعامل إيثار بجفاء غير مبرر وكأن لديه أسبابًا
خفية تدفعه لذلك.

الفصل الثاني... حالة انكار

اختلى عمر بغرفته وهو يشعر بالغرابة، فكلام ماسة له لم يكن منطقيًا البتة! كان متأكدًا بأن ما تقوله مجرد هلوسات جراء صدمتها بوفاة عمها الذي كان خير سند لها بعد وفاة والدها منذ عامين، وخاصة أن إيثار لم تكن تعاملها جيدًا.

تذكر نظرة إيثار منذ قليل عندما سعدت للأعلى لتجده يتحدث مع فيروز عن ماسة. كانت فيروز قد سعدت للأعلى بحثا عن أختها فقابلت عمر في المطبخ. طلب منها بقلق أن تهتم لأمر أختها التي يبدو أنها تعاني من صدمة شديدة، حينها دخلت إيثار المطبخ لترمقهما بنظرة جامدة قبل أن تقول لعمر: جمانة تحتاجك في الأسفل.

تطلع نحوها بحيرة يستشعر غضبها المكبوت قبل أن يومئ برأسه قائلاً بهدوء: حسنًا!

استدار ليخرج من المطبخ لكنه استطاع سماع تقريرها ليفروز على الرغم من خفوت صوتها. لا يدري سبب غضبها ذاك، هل تخشى اقترابه من فيروز لأسباب يجهلها؟ دارت في رأسه تساؤلات عدة دون أن يصل إلى إجابات منطقية لها.

دخل غرفته ولم يهبط للأسفل، شعر بالإرهاق فاستلقى على سريره لبعض الوقت ثم تذكر ما رآه في أرضية غرفة والده فأخرج

الحلية الذهبية الرقيقة التي وجدها تلمع بجوار باب غرفة الملابس. كانت الحلية غريبة عن حلي والدته، لم يرها ترتديها من قبل! تبدو أنها حلية سقطت من قلادة ما وتحمل حرفي أو (o) وإف (F) باللغة الإنجليزية، مرتبطين بعروة على شكل قلب.

ظل يتطلع نحو الحلية يفكر متسائلًا عن الحافز الذي دفعه لإخفائها عن ماسة. ربما ظن أنها كانت لوالده ولم يكتشف سرها بعد أم ربما تكون لأحدى الخادمت اللاتي يعملن بالفيلا؟ لكن هل ترتدي الخادمت مثل هذه الحلي الذهبية؟! ما زال ينظر لها مليًا وقد لفت نظره حرف (F) وأعاد إلى ذهنه مناسبة بعيدة بعض الشيء لكنه غير متأكد من العلاقة بينها وبين ما يراه. قرر أن يحتفظ بها لنفسه حتى يكتشف سرها وحده. لا يريد أن يريها لماسة فيقلقها دون داعٍ وقد بدت قلقة دون تدخل خارجي، لذا نهض وأخفاها بعناية بين طيات ملابسه في خزانة الملابس.

شردت أفكاره نحو غرفة والده، تذكر بأنه رأى بها علب أدوية متراصة على الطاولة الجانبية بجانب الفراش. لم يكن يعلم أن والده يأخذ أدوية خاصة من قبل لذا دخل غرفة والده كي يتفحصها فبحكم دراسته في السنة الأخيرة في كلية الصيدلة كان يعرف الكثير عن الأدوية واستخداماتها.

أمسك أول علبة طالتها يده ليطلع اسمها ففتح فاه من الصدمة، هذا دواء يستخدم في الحالات المتأخرة من علاج

السرطان. هل كان والده يعاني من السرطان؟ أذلك قرر أن ينعلز في غرفة خاصة به كي لا تعلم والدته حقيقة مرضه؟ أمسك باقي العلب يقرأ أسماءها وللأسف فقد كانت كلها تحمل نفس الوظيفة، علاج تلطيفي لمرضى السرطان.

سقط من الصدمة على الفراش، شعور البؤس والإحساس بالذنب يغمره كلياً الآن. أكان والده مريضاً بمرحلة متأخرة من السرطان دون أن يُعلمهما؟ متى كان ينوي أن يخبرهما بحقيقة مرضه؟ هل كان موته بالرصاص نوع من رحمة القدر لثلا يعاني في لحظاته الأخيرة؟

ظل يقرب علب الأدوية الخاصة بوالده بينما تتساقط دموعه بصمت على وجهه، دموع عاجزٍ عن الاستيقاظ من صدمة موت والده ليسقط في صدمة أشد وجيعة، أنه كان يحيا بينهما ويحمل آلامه في الخفاء دون أن يحملهما القلق بشأن صحته المتدهورة.

سطعت في رأسه فكرة أن يتصل بطبيب والده الخاص كي يستفسر عن حقيقة مرضه. كفكف دموعه الصامتة بظاهر كف يده ثم أمسك هاتفه يبحث عن رقم الطبيب. وجده أخيراً فأجرى اتصاله بالطبيب الذي ما إن سمع صوته حتى بادر بتعزيته لكن عمر سأل بلهجة متعجلة عن حقيقة مرض والده. أنكر الطبيب معرفته بالأمر بل وتعجب للغاية فلم يخبره مراد بأي شيء، لذا اعتذر منه عمر متعللاً بأن الأمر ربما التبس عليه ثم أنهى الاتصال بقلق. هناك شيء غير منطقي في تسلسل الأحداث.

كيف يعقل أن يكون والده مريضاً ولا يعلم أحد بذلك! ربما يُهَيِّأ له ذلك أو أن تلك الأدوية ليست خاصة بوالده.

نهض عن حافة الفراش بتثاقل ليغادر الغرفة، غير عالم بأنه وقع على بداية الأحداث، أحداثٌ غير منطقية أو مقبولة.

انتهى عزاء اليوم الأول في فيلا مراد خطاب. انصرف المعزّون إلى بيوتهم، يمارسون حياتهم الطبيعية غير آبهين لحالة أصحاب الفيلا الذين توقفت حياتهم لفترة يعلم الله مداها فهكذا هي الحياة، تسير عجلاتها بلا توقف ودون حداد على من يسقطون منها ويلتقطهم الموت!

ظلت جمانة جالسة على مقعدها متصلبة فاقتربت منها ماسة قائلة بهمس خافت:

خالتي جمانة، لقد رحل آخر المعزين. هل ستظلين هنا قليلاً؟

رفعت جمانة عينيها نحو ماسة بنظرة تائهة متألّمة ثم تطلعت حولها بعينين شاردتين لتقول:

هل أتى مراد؟

ربتت ماسة على كتفها ثم مالت تحتضنها بتعاطف قائلة:
 هيا حبيبتي، تحتاجين إلى الراحة قليلاً، كما أنك لم تتناولي
 طعامك منذ الصباح.

قالت جمانة بصوت شارد: سأنتظر مراد لأتناول الطعام معه.

كان عمر قد اقترب من والدته في تلك الأثناء. تطلعت نحوه
 ماسة بنظرة كلها رجاء أن يساعدها على إقناع جمانة إذ يبدو أنها
 تعاني صدمة متأخرة.

قال عمر مغالبًا حزنه: هيا يا أمي، سأتناول معك الطعام كي
 ترتاحي في فراشك قليلاً.

لكنها عقدت حاجبها بضيق قائلة: عمر! قلت سأنتظر مراد.
 اذهب أنت وتناول الطعام إن كنت لا تريد انتظار حضور والدك.

أسقط في يد عمر فأسقط يده بجواره ببؤس وقلّة حيلة
 فتدخلت ماسة بحنكتها لتقول بمداهنة: حسناً يا حبيبتي،
 سننتظر العم مراد. دعينا نصعد للأعلى كي ترتاحي قليلاً.

نظرت نحو عمر المتوقف كتمثال شمعي وضايقها تبليده
 فلكرته بقدمها بخفة ليستفيق من جموده. همست من خلف
 جمانة مؤنبة: ساعدني في الصعود معها للأعلى، لا تقف هكذا!

أمسك عمر بمرفق والدته يسندها عليه بينما أمسكتها ماسة من الجهة الأخرى واتجهوا نحو الدرجات القليلة للطابق العلوي.

استقرت جمانة على فراشها براحة. عدلت ماسة من وضع الوسائد خلف ظهرها قائلة بصوت منهك: ها قد اغتسلنا وسنحصل على قسط من النوم حتى تستعيدين نشاطك، هل أحضر لك بعض الشطائر قبل أن تنامي؟

لكن جمانة لوحت بيدها قائلة بهذيان: لا سأنتظر مراد، هل سيتأخر؟

تطلعت نحوها ماسة بقلق، يبدو أن جمانة قد قررت الهروب من صدمة الواقع بالعيش في عالم الأوهام وخشيت ماسة أن تخبرها بحقيقة موت عمها الآن فتنهار وتدخل في صدمة عصبية. قررت أن تسايرها في أوهامها فقالت بلهجة حيادية رغم ما بها من حزن: قال إنه سيتأخر قليلاً ويمكنك تناول بعض الشطائر والنوم حتى يأتي.

هزت جمانة رأسها بالنفي بينما تسند رأسها على الوسادة قائلة بصوت باك: لا، لست جائعة! سأغفو حتى يحضر. أبلغيه أنني انتظرتة كي ينام بجواري الليلة فلا أريد البقاء وحيدة.

ما إن قالت جملتها حتى سقط رأسها المثقل بالأحزان على الوسادة لتغرق سريعًا بالنوم. لم يكن نومها عاديًا بل كان هروبًا

من صدمة قلب فجع في موت نصف منه، النصف الأعز والأعلى لديها.

غادرت ماسة الغرفة بهدوء وما إن أغلقت الباب خلفها حتى وجدت أن عمر ما زال ينتظرها في الخارج إذ أنه خرج كي تستطيع ماسة تبديل الملابس لوالدته. سأل بقلق ودموعه تلتمع في عينيه: هل نامت؟

هزت رأسها بصمت ثم سارت عدة خطوات بعيداً عن باب الغرفة لتهمس بهدوء بأن الخالة جمانة تحتاج متابعة طبيب. قلق عمر لأجل والدته كثيراً لكن قلق ماسة كان يضاهاى قلقه لأنها علمت أن جمانة تعيش حالة من الإنكار، عقلها يتعامل مع موت مراد بالنكران حتى أنها تظن بأنه سوف يلتحق بها لينام معها في فراشها الذي هجره منذ بعض الوقت.

سكنت ملامح عمر قليلاً فسألت ماسة بقلق: عمر أنت بخير؟

أجاب عمر بانتهاء: لا، لست بخير يا ماسة ولن أكون! أشعر بأنني لا أستطيع التعامل مع تلك الكارثة التي وقعنا فيها، أنا مشتت.

وبشهامتها المعتادة أخبرته بأنها لن تتركه حتى يستعيد زمام الأمور ويتمالك نفسه. نسيت في خضم تلك الأحداث المتلاحقة أن لنفسها عليها حق بأن تحزن وتفرح وتبدي

مشاعرها بما يحلو لها لكنها اختارت ألا تفعل بل صارت حياتها
 حقبة من المواساة وتقمص مشاعر الغير، تفرح حين يفرحون
 وتحزن لأجلهم، تتشج بالصلابة والإباء وعزة النفس دون أن
 تبدي ضعفًا ولو للحظة. نسيت أنها من نسل آدم ومهما
 تظاهرت سيأتي يوم وتنهار ولن تجد من يفعل لها المثل.

ظهرت فيروز عند أعلى السلم، وما إن رأت عمر وماسة
 يتهامسان حتى توقفت مكانها بارتباك تريد أن تهبط مرة أخرى.
 رأتها ماسة فأشارت لها بتلقائية قائلة: تعالي يا فيروز، ستنامين
 معي في الغرفة الليلة.

تقدمت فيروز بخطوات متعثرة ووجه محتقن لتقول بصوت
 متهدج: كنت أبحث عنك بالأسفل لكن أُمي أخبرتني أنك هنا.
 تعجبت ماسة من احتقان وجه فيروز بذلك الشكل فسألتها
 بقلق: فيروز، هل أنت بخير؟

رفعت رأسها تنظر نحو ماسة قائلة بصوت مكتوم: نعم أنا
 بخير.

حينها التقت عينها بعيني عمر فعادت لارتباكها واحتقانها
 مرة أخرى وقالت بتوتر: سأذهب إلى الغرفة أريد النوم.

نظرت ماسة بجانب عينها نحو عمر الواقف بجانبها، غافلًا
 تمامًا عما يدور حوله وكأنه يعيش في عالم منعزل. سخطت في
 سرها قائلة «يبدو بأن حظي أوقعني في أسرة معتوهة، وقد

ظننت بأنني سأعاني من موت عمي! يبدو أن معاناتي ستبدأ مع أسرته الشاردة تلك».

ربتت على كتف فيروز قائلة بهدوء: اذهبي إلى الغرفة يا فيروزي، سألتحق بك بعد قليل.

هزت فيروز رأسها واستدارت مغادرة إلى غرفة ماسة. اقتربت ماسة من أذن عمر الشارد لتسأله بصوت شبه مرتفع عن سبب شروده فانتفض بقوة لائمًا إياها على إفزاعه بذلك الشكل. اعتذرت منه قائلة أن عليه الذهاب إلى غرفته لينال قسطًا من الراحة حتى يستطيع الذهاب للمستشفى باكراً، منبهة إياه أن ينتبه لنفسه جيدًا ثم استدارت راحلة في إثر فيروز وكل تفكيرها منشغل بحالة أختها، تريد أن تختلي بها لتعرف ما يدور معها. ربما تجعلها تثق بها وتحكي ما يضايقها، وكم كان من الصعوبة دفع فيروز للكلام!

- ماسة!

- نعم يا فيروز؟

- هل هناك مشكلة؟

- لِمَ تسألين؟

صمت دام قليلاً ثم عادت فيروز لتقول بقلق: لاحظت بأنك
اختفيت من العزاء في الأسفل مدة طويلة كما إن عمر أخبرني
بأنك كنت نائمة.

- لكن أنا لم أكن نائمة، من أخبره بهذا؟

- لا أدري! لقد أخبرني بهذا قبل أن تحضري للمطبخ، هل أنت
متأكدة أنك بخير؟

- نعم حبيبتي أنا بخير، فقط لا أتخيل أن عمي قد رحل.

ثم استدارت تنتظر لوجه أختها المجاور في الفراش لتقول
بهدهوء: أنت مطمئني، ما بك؟

قالت فيروز بتوتر بينما تتهرب بعينيها: ليس بي شيء، لِمَ
تسألين؟

قالت ماسة بعطف: لأني أعرفك يا فيروز جيداً، بالرغم من
هدوئك الظاهري فهناك ما يضايقك وتخفيه داخل قلبك
بعمق، هل حدث ما يضايقك؟

أجابت فيروز بإنكار كاذب على الرغم من تصاعد حدة التوتر
في صوتها: لا، لم يحدث!

سألت ماسة: وماذا عن عمر؟

تصلبت فيروز قليلاً لكنها قالت بتماسك: ماذا عنه؟

- هناك شيء يضايقك تجاهه، هل قال ما يضايقك؟

كانت ماسة تريد التأكد بخصوص شيء لاحظته منذ وقت ولا تعرف كيفية التأكد منه فصمتت فيروز تداري اضطرابها. هناك شيء نحو عمر يزلزل استقرارها، لا تدري متى اكتشفت ذلك لكنها استشعرته بقوة مؤخرًا. وخز منتظم داخل قلبها يحدث عندما تراه، ترى مدى قربه من ماسة وتعلم بأن لا أمل لديها لتصبح مثلها فهي قصيرة القامة مكتنزة قليلًا قمحية البشرة بعينين بنيتين متسعيتين كعيني أختها ووجه مستدير، شعرها البني المخلوط بالذهب ليس أملسًا كشعر ماسة بل مجعدًا خشنًا، كما أنها لم تكن ذات شخصية قوية وثقة مرتفعة بذاتها كما أختها. كانت والدتها دائمًا ما تؤنبها لأنها لا تستطيع أن تدافع عن نفسها وتأخذ حقها كما تفعل ماسة وبالرغم من ذلك فهي تعشق أختها وتلتجئ إليها حين تحتاج المساعدة ولم تكرهها رغم تلك المقارنات المجحفة التي لم تتورع إثارة عن عقدها كل حين بينهما، ثم هناك ذلك السر الذي سمعته وأخفته داخل قلبها.. لا لن تبوح به أبدًا!!

عادت لتقول لماسة بصوت غلفه الضيق: لست أهتم به كي يضايقني!

تطلعت نحوها ماسة بتفهم لما تعانيه وقد باتت متأكدة أن أختها الصغرى تكن مشاعر خفية لعمر. قالت بهدوء: بالعكس

يا فيروز! لا بد أن نهتم فعمر أخ لنا لم ينجبه والدانا، ويحتاج وجودنا إلى جواره. أنا أهتم به وأحبه كأخ وصديق مقرب.

سألت فيروز بوجوم وكأنها تحاول التأكد من شيء ما: فقط؟

قالت ماسة باقتضاب: فقط يا فيروز، عمر أخي الذي ساعدني على تخطي طفولتي القاسية.

تغضنت ملامح فيروز لكنها قالت باقتضاب: أنا أيضًا أعتبره أخًا لي.

قالت ماسة بوقار: من الأفضل ذلك، فلا جدوى من التعلق بما ليس بأيدينا.

استدارت فيروز على جانبها قائلة لماسة كي تنهي ذلك الحوار الذي لا فائدة منه: تصبحين على خير.

ما إن ردت ماسة تحيتها حتى بدأ النوم يتسلل إلى عينيها بعد نهار ممتلئ بالعواطف المشحونة والقلوب المتألّمة.

فجأة ارتفع صراخ حاد! انتفضت كلتاهام لتنهضا برعب بينهما يرتفع الضجيج خارج الغرفة، ينبئ عن استيقاظ بعض سكان الفيلا.

بدّل عمر ملابسه بمنامته المريحة ليستلقي على فراشه
 ببطء يفرد جسده المتشنج، يعيش حالة من التيه تشبه حالة
 والدته وقد توقف تفكيره إلى حين رجعه. يريد النوم بشدة، يريد
 أن يذهب إلى عالم الأحلام ربما يلتقي بوالده الراحل فيسأله عن
 كل تلك الحقائق المخفية.

في الصباح عندما كان مع المحامي علم بأن جثة والده في
 المشرحة تنتظر إذن الطبيب الشرعي لنقلها إلى مدافن العائلة.
 أفاد تقرير البحث الجنائي بأن القتل قد قُتل جراء حادثة سطو
 وسرقة وأن كاميرات المراقبة لم تكن تعمل ذلك اليوم دونما
 سبب إلا أنها بفعل فاعل - ربما اهتم والده بإغلاقها لسبب ما -
 فلم يستطيعوا معرفة من دخل المكان وخرج منه. تبقى فقط
 لغز دخول مكتب الراحل دون وجود شهود. سارت الأحداث
 بسلسلة عجيبة وكأنها مخططة فقد علم عمر بأن والده صرف
 الحارس المتواجد في الشركة لشراء طلب ما وقد استغرقه ذلك
 مدة ساعتين ذهابًا وإيابًا، وعندما عاد الحارس من الخارج وجد
 أن مكتب القتل مغلق والإضاءة مغلقة فظن أن السيد مراد
 قد رحل لذا عاد لمكانه في الحراسة حتى الصباح الباكر.

عندما أتى ساعي المكتب صباحا كي ينظفه قبل حضور بقية
 الموظفين، حينها تم اكتشاف الجثة وقد كان ذلك مبررًا لعدم
 سماع أحد من السكان صوت الطلق الناري، فالمنطقة شبه
 نائية وقد نقل إليها مراد شركته مؤخرًا كي يبتعد عن الزحام
 العمراني في العاصمة. جاء انتقال الشركة جزئيًا فلم يحتج سوى

لحارس ليلي للمنشأة فقط، حيث أن مخازن الشركة ما زالت في قلب العاصمة في المبنى القديم.

أخبرتهم الشرطة بأن جثمان القتيل سيخرج من المشرحة في الغد على أقصى تقدير لكن عمر أصر على إقامة مجلس العزاء حدادًا على روح أبيه حتى يتم دفن جثمانه، ظنه نوعا من الإكرام لذكراه أن تُفتح الفيلا لتقبّل العزاء فيها حتى لو تخطت المدة ثلاثة أيام، وها هي والدته تعيش في عالم من الإنكار لموت زوجها دون تقبل الحقيقة البشعة، حقيقة أن والده لم يعد يقيم معهما بعد الآن.

عاد عمر بذاكرته إلى غرفة والده مرة أخرى وكأن مرأى الأدوية المتراصة يلح عليه كي يبحث عن سبب وجودها في غرفة والده وعن حقيقة مرضه. تذكر بأن والده قد أصبح يتغيب عن المنزل لفترات طويلة مؤخرًا، وقليلًا ما كان يتشارك معهما الطعام بحجة أن الشركة فيها عمل متراكم نتيجة الانتقال لمكان جديد. تذكر صوت والدته وهي تئنّب والده بحب عن قلة اهتمامه بنفسه وكل الجهد المبذول لأجل الشركة دون أن يعطي نفسه حقًا في الراحة مما أدى إلى فقدانه بعض الوزن وشحوب وجهه.

قفزت إلى ذاكرته مشاهد من فترة حياة والده مؤخرًا فوجد بأنه كان مهمومًا أكثر من ذي قبل، يغرق بتفكير عميق وكأنه يعيد حساباته في شيء يؤرق فكره.

فجأة وبدون سابق إنذار سمع صوت صرخة حادة انطلقت
تشق صمت الليل الكئيب، صرخة ظن لوهلة بأنه يعرف صوت
مطلقها فخلعت قلبه من صدره. قفز بسرعة من الفراش يعدو
باتجاه الخارج، وفي الخارج كانت صدمته أعنف.

الفصل الثالث... زيارات متكررة

هبت جمانة في فراشها فجأة تتصبب عرقًا. بالرغم من اعتدال الجو بالخارج تشعر كأنها محمومة وترى خيالات لمراد تزورها في منامها ترجوها الغفران. عندما جلست في فراشها كان قلبها يخفق بعنف، تشعر أن وجود مراد كان حقيقيًا وليست مجرد هلوسات في المنام. مراد حبيبها وزوجها الوفي رحل تاركًا إياها بلا سند ولا عائلة فقد كان هو كل عائلتها.

شوق غامر جرفها لاحتضانه والنوم بجواره فقد كان مؤخرًا يعتزلها بحجة أنها تغط في النوم بسبب أدويتها التي تتناولها وأنه لا يريد أن يقلق نومها بسبب عودته المتأخرة وسهره لمراجعة بعض أعماله التي كان يصطحبها إلى فراشه، وقد وافقها ذلك جزئيًا فهي بالفعل تعاني من آلام الفقرات وتفتقر الراحة دائمًا.

انتابها إحساس عارم بالوجيع، وجيعة شخص لم يتوقع رحيل عزيز على قلبه قريبًا فأهمل القرب منه والاستزادة من حبه. شعرت برغبة شديدة في أن تذهب لغرفته وأن تحتضن فراشه علّه يعيد لها بعضًا من سلامها المغدور.

ارتدت رداءها المنزلي الثقيل فوق منامتها ثم غادرت الغرفة بخطوات متثاقلة. وصلت لغرفة مراد فوقفت بتردد أمام الباب، تشعر بالذعر لأنها ستدخل غرفته ويتأكد لها بأنه قد رحل. لا تريد

أن تؤكد تلك الحقيقة! تريد أن تغرق نفسها في أوهام عودته ليحتضنها كما كان يفعل في الليالي السابقة حين تفتقد وجوده بجوارها فتذهب لتنام بجواره.

مدّت يدها لتفتح مقبض الباب فتعجبت من الإضاءة الداخلية الخافتة المنبعثة من غرفة الملابس. عقدت حاجبها برعب لحظي قبل أن تدخل هامسة بغير وعي: مراد، أنت هنا؟

لم يصلها جوابه فعادت تنتشي بأوهامها قائلة: مراد، هل عدت حقاً؟

كانت قد وصلت لغرفة الملابس فتطلعت بذهول للغرفة المبعثرة. دارت برأسها في الغرفة تهتف غير مصدقة: يا إلهي، ماذا حدث هنا؟

ثم لفت نظرها أن اللوحة الأنيقة التي تخفي الخزانة الموجودة في الغرفة خلفها قد أزيلت فظهرت الخزانة واضحة. أيقنت حينها بأن هناك شيئاً غير عادي يحدث فاستدارت لتهرب سريعاً لكنها تفاجأت بظهور ذلك الشبح المتشح بالسواد من قمة رأسه حتى أسفل قدميه. صرخات حادة بصوت مرتفع انطلقت من حنجرتها لتعبر أثير الغرفة إلى خارجها من خلال الباب الذي تركته مفتوحاً خلفها قبل أن تهبط على رأسها ضربة قوية بأداة ما فتكومت أرضاً بلا حراك.

علم الشبح المتشح بالسواد أن الوقت لن يساعده كي يفعل مع جمانة ما فعله مع ماسة، إذ أن صرخة جمانة كانت كناقوس الإنذار المنطلق في أجواء الفيلا الهادئة. سرعة البديهة كانت واجبة في تلك الحالة قبل أن يُكتشف أمره، لذا وبسرعة سُحبت جمانة بقوة لُترمى على الفراش وبجوارها وضع الشبح قميصا من قمصان مراد وكأن جمانة تحتضنه ثم أسرع مرة أخرى لغرفة الملابس لوضع اللوحة الجدارية مكانها وإخفاء الخزانة خلفها كما كانت. الجزء المتعلق بالفرار كان سهلاً ومدبراً إذ كان في الغرفة شرفة تفضي إلى غرفة جمانة المجاورة، يفصل بينهما سور حديدي منخفض.

دلف الشبح إلى الشرفة وأغلق الباب خلفه بإحكام ثم استدار يتسلق السور الحديدي المنخفض ليهبط في الشرفة المجاورة، ولحسن الحظ كانت الشرفة غير موصدة فكان من السهل الدخول إلى الغرفة، وفيها تم التخلص من الملابس السوداء كي يسهل الاندماج بباقي المقيمين في الفيلا.

أول من هرع استجابة لصوت جمانة كانت إيثار. طرقت باب غرفتها بذعر متسائلة عن وجودها وعندما لم تجد إجابة فتحت الباب لتفاجئها الغرفة الفارغة. كانت ماسة وفيروز قد خرجتا من غرفتهما مرتعبتين فوجدتا بعض الخدم يتدافعون لصعود الدرج. هرعتا نحو إيثار المطلة برأسها من داخل غرفة جمانة بحيرة، متسائلتين بقلق عم حدث فأجابت إيثار بقلق أن الغرفة

فارغة لأنها أنهت البحث عنها بالداخل للتوّ ثم خرجت متجهة نحو غرفة مراد، معللة أنها ربما ذهبت لتنام هناك. فتحت مقبض الباب لتدخل، تتبعها ماسة وفيروز ثم عمر الذي وصل مرتعبًا في تلك اللحظة ليسأل بذعر عما حدث، فقد ميز الصوت المنبعث بأنه لوالدته.

توقف الجميع أمام المشهد المحزن لجمانة التي تحتضن قميص زوجها الراحل وتتمدد في صمت كأنها رحلت في إثره. تقدمت إيثار برباطة جأش متسائلة: جمانة، ماذا تفعلين هنا؟

لم تجد حراكًا من جمانة فتقدمت حتى مالت عليها لتهزها بقوة قائلة بصوت محمل بالقلق:

جمانة هل نمت؟

التفتت لتنظر للعيون المحدقة بخوف وقلق، قائلة بأسى: المسكينة، يبدو أن حالتها النفسية تتدهور! أظنها تحتاج طبيبًا نفسيًا.

تقدم عمر قائلاً بموافقة: نعم! لا أظنها تتأقلم جيدًا مع ما حدث لوالدي.

لكن ماسة قالت بقلق: يبدو أنها رأت ما يخيفها، فتلك الصرخة كانت تحمل الخوف وليس الحزن.

التفت إليها عمر قائلاً بقلق: ومِمَّ ستخاف؟ أنت تعرفين كيف كانت تهذي قبل قليل بخصوص والدي، ثم انظري إلى نومها واحتضانها لقميص والدي. ربما شعرت بالحزن لأجل عدم وجوده!

أصرت ماسة على التقدم نحو جمانة قائلة بقلق: دعني أراها!

لكن إيثار سخرت منها: وهل أنت طبيعية؟

تجاهلتها ماسة لتميل نحو جمانة قائلة بقلق فعلي: خالتي جمانة، هل أنت بخير؟

ثم مالت تهزها وتستمع لصوت أنفاسها قائلة بقلق متعاضم: استيقظي خالتي، هيا استيقظي!

مع اهتزاز جسد جمانة عدة مرات بدأت تستفيق، انتفضت جالسة برعب تتطلع إلى الوجوه القلقة المحيطة بها ثم قالت بصوت متقطع خرج محملاً بطبقة سميكة من الخوف: لقد كان هنا!

نظرت نحوها أربعة أزواج من العيون القلقة. كان عمر أول من تكلم بقلق وهو يميل ليحتضن جسدها المختض: اهدئي يا أمي، من الذي كان هنا؟

أشارت جمانة برعب نحو غرفة الملابس الملحقة لتقول بلهجة متقطعة وصوت خفيض: رجل، ضربني على رأسي وفرّ.

شهقات تعالت بينما التصقت فيروز بماسة برعب لتربت عليها ماسة بحنو ونبضات قلبها تعلو لتطرق في أذنها بعنف. إذًا لم تكن تتخيل من قبل عندما هاجمها شخص ما! لقد كان هناك أحدٌ في الغرفة بالفعل.

كانت إيثار أول من تكلم، قالت بتشكك: أي رجل؟! وماذا كان يفعل هنا؟ بالطبع هذه تخاريف فكيف سيدخل رجلٌ دون أن نراه؟

ثم تقدمت نحو غرفة الملابس باستهزاء وكأنها تثبت لهم صدق كلامه لكن ماسة قالت بقلق: لا تقتربي! ربما هناك من يختبئ بالفعل.

توقفت إيثار تنتظر نحو الغرفة بتردد لكن عمر قاطعها بصوت قوي: وكيف يعقل أن يدخل رجل غريب للفيلا كما تقول الخالة إيثار؟ هذا غير منطقي!

ثم تقدم نحو الغرفة بخطى ثابتة ليضغط قابس الإضاءة فلم يستجب. أخرج هاتفه فأناره كي ينظر نحو المصباح الكهربائي المعلق فوجده مهشمًا أيضًا كما كان المصباح في الغرفة الرئيسية.

التفت نحو ماسة التي تبعته بحذر. تساقط قناع القوة الذي يرتديه وبدأ صوته بالتزعزع وهو يسألها بقلق عما إذا كان

المصباح مهشماً في الصباح فأجابته ماسة بخوف أنها لم نتبه له لأنها كانت تحمل مصباحاً يدوياً.

تعقدت ملامحه بتفكير مبهم ثم عاد يدير إنارة الهاتف في أرجاء الغرفة، يطالعها باهتمام. هنا تقدمت إيثار من خلفهما لتسألها بصوت مشبع بالقلق إن وجدا ما يريب، وعندها أجاب عمر بحيرة: لا شيء! بعض الملابس مبعثرة هنا وهناك. بالتأكيد حدث هذا حينما دخلت أُمي لتأخذ قميص أبي.

أما ماسة التي كانت على يقين بصحة كلام زوجة عمها فقد دخلت الغرفة، تبحث باهتمام حولها علها تجد ما كان يبحث عنه الغريب. تقدمت داخل الغرفة تتأملها بتفكير لكن صوت جمانة المنتحب من الخارج أرغمهم على الهرع نحوها مرة أخرى. تقدمت منها إيثار تسألها بمواساة عما يبكيها فوضعت جمانة يدها على رأسها لتخبرها وسط نحيبها أن رأسها يؤلمها عند موضع الضربة.

تقدم منها عمر ليحتضنها وهو يتفحص رأسها باهتمام متسائلاً عن مكان الألم فأشارت بيدها على مقدمة رأسها مؤكدة بجزع أنها تتوجع للغاية. مال يتفحصها باهتمام بينما مالت بجانبه ماسة تحاول أن ترى أثر الضربة. لم يكن هناك أثر ظاهر لكن ما إن لمس عمر الجزء الذي أشارت له أمه حتى وجده متورماً. صاحت جمانة بألم: نعم إنها تؤلمني هنا، وأشعر بالصداع الشديد.

تقدمت منها إيثار لتقول بلهجة مواسية: معك حق يا جمانة في انهيارك، لقد كان فقد مراد صدمة لنا جميعًا لكن عليك التماسك حبيبي، فالوقت لا يسمح بمثل هذا الانهيار.

نفت جمانة بلهجة منكسرة: لكنني لست منهارة! لقد ضربني أحدهم بالفعل على رأسي فقد دخلت الغرفة لأجدها مبعثرة واللوحة التي تخفي الخزانة في غير مكانها ثم ظهر أحدهم متمشًا بالسواد وضربني على رأسي، ولأنني أصبت بالإغماء لم أر أين ذهب.

نظرت نحوها الأعين بصدمة غير مصدقة، إلا أن ماسة تقدمت نحوها لتجلس بجوارها قائلة بثقة: أنا أصدقك وأرى أن من واجبنا إبلاغ الشرطة.

رفعت عينيها تنظر بثقة نحو عمر الذي رمقها بنظرات قلقة ليقول بتمتمة هامسة: أرى ألا داعي لذلك، فلم يحدث شيئًا يستدعي إحضار الشرطة وإسالة لعاب الصحافة.

نظر نحو فيروز بنظرة جانبية ليجدها تقف بجوار أمها لكنها تحتضن نفسها بخوف وكأنها تواسي نفسها بنفسها. شعر بالأسى تجاهها واستشعر مدى ضعفها واحتياجها للحنان في حياتها، وكيف لا وقد ابتليت بأم مثل إيثار؟ يود لو يضمها تحت جناحه فيبيثها الأمان الذي تفتقده في حياتها فمثلها مثل ماسة،

في قائمة عواطفه واهتماماته لكنه لسبب ما لا يعاملها كماسة فقد كانت ماسة أكثر قربًا من قلبه.

عادت عيناه تنظران نحو ماسة التي قالت بإصرار يعبر عن شخصيتها العنيدة: ينبغي أن نبليخ الشرطة فربما المرة القادمة لن تمر على خير! ربما قُتل أحدنا كما حدث مع عمي مراد! ربما هناك من يسعى خلف شيء سري لا نعرفه، لذا فهو يصير على زيارة الفيلا المرة تلو المرة.

قالت فيروز بخوف وقد اتسعت عينها أكثر: المرة تلو المرة! هل حدث ذلك قبل أن يحدث لخالتي جمانة؟

تطلعت نحوهم ماسة تقيم الموقف، هل تخبرهم بما حدث معها فتزيد البلبلة بينهم أم تكتفي بأنها أخبرت عمر الذي لم يصدقها من الأساس وتشك أنه يصدق والدته الآن؟ لا تدري لم يصير على موقفه الغريب ذلك في إنكار ما حدث!

حسمت قرارها ونفت: أنا أقول ربما يصير على الزيارة مرة أخرى.

سمعت تنهد عمر الخافت الذي أطلقه بارتياح فتعجبت في سرها لكنها نوت أن تسأله حين تختلي به عما يقلقه من كل هذه الأحداث وعما يخفيه.

ساعدت ماسة الخالة جمانة على النهوض من الفراش مخبرة إياها بحب أن عليها الراحة قليلاً في غرفتها وألا تقلق، فسوف يببيت عمر الليلة معها كي يطمئن لها لأنها لمحت الرعب

المستتر خلف نظراتها للمحيط حولها. وافقها عمر الذي أسرع ليشارك ماسة في إسناد والدته كلاً من جهة وفي إثرهم خرجت فيروز وإيثار في صمت، كلٌّ مشغول بخاطر يخفيه عن الآخرين وبداخل كلٍ منهم عزيمة على شيء انتواه ليفعله بالخفاء.

بعد مرور ساعتين على انفضاض الجمع وبعد أن تأكدت من نوم فيروز بعمق، ارتدت ماسة حجابها على منامتها الواسعة ثم تسللت على قدميها بهدوء تحمل هاتفها لتستخدمه كمصباح وباليدي الأخرى حملت عصا خشبية انتزعته من مشجب الملابس الذي في خزانها، تنوي استخدامها كسلاح سري إذا ما تعرض لها أحدهم. كانت مصرة على اكتشاف السر الذي يوجد في غرفة عمها الراحل بل هي متأكدة بأنه السبب في رحيل عمها، ذلك السر الغامض الذي يدعو الشبح المتسلل للعودة إلى الغرفة مرارًا وتكرارًا.

فتحت باب غرفتها بحذر كي لا يحدث صوتًا، تطلعت إلى الردهة الطويلة تتأكد من خلوها من البشر ثم أسرع الخطى حافية القدمين نحو غرفة عمها التي كانت على الجهة الأخرى من غرفتها. توقفت أمام الباب تحاول التنصت كي تتأكد من عدم صدور صوت من داخل الغرفة. دقائق قلبها في ذروتها، الأدرينالين المتدفق في عروقها يشعرها بالحرارة.

أدارت المقبض بحذر ففتح الباب. فضلت عدم إنارة الإضاءة التي طلب عمر من البواب إصلاحها وأنارت هاتفها بحذر تتأكد من خلو الغرفة من المتطفلين ثم تسلت بخفة نحو غرفة الملابس. إنها المكان السري الذي يجذب الذباب وفي المرتين كان الشبح الأسود يختبئ فيها. أذنها تطن بدوي صارخ، يا للخوف الذي يتدفق في عروق البشر حين يعيدون تجربتهم مع المجهول! وكأن ذكرى تجربتهم الأولى لم تكن كافية لإثارة الهلع في قلوبهم وإثائهم عن تكرارها أو أن حب المغامرة مثل القمار، يعلم المقامر مدى السوء الذي سيناله لكنه لا يستطيع التوقف عن المجازفة حتى يعلن إفلاسه أو ربحه، والذكي فقط من ينسحب في الوقت المناسب.

توقفت عند مدخل غرفة الملابس، تتفحصها بحذر وقد رفعت عصاها في وضع الاستعداد. لم تر ما يخيفها أو يثير ريبتها فتقدمت بحذر داخل الغرفة لتتأكد من خلوها ثم عادت أدراجها بحذر نحو باب الغرفة الرئيسي لتوصده مرة أخرى، لا تريد أن يتسلل من خلفها أحد!

عادت إلى غرفة الملابس ثم اتجهت نحو اللوحة الجدارية المعلقة. لم تكن قد دخلت هنا من قبل لكن زوجة عمها ذكرت بأن هناك خزانة آمنة وقد أملت أن تجدها مفتوحة. أنزلت اللوحة بحرص ثم تطلعت نحو الخزانة الموجودة خلفها. لا تملك أدنى فكرة عن أنواع الخزائن أو كيفية التعامل معها، الخزانة حديثة الطراز تحوي قرصًا دائريًا ولوحة أزرار مكونة من عشرة أرقام.

وقفت تتطلع نحوها في بلدة، تشعر أنها كالفأر الذي سقط في مصيدة ولا يستطيع الخروج منها.

لم تستطع التفكير في رقم معين قد يكون عمها خصمه كرقم سري للخزانة. جربت تاريخ ميلاد عمر فكان خاطئًا. عادت وجربت يوم ميلاد عمها فكان غير صحيحٍ أيضًا. لم يتبق سوى يوم ميلاد جمانة، جربته فلم يبتسم لها الحظ بعد.

أسقط في يدها! تعلم أن هذه الخزانة تحوي عامل الجذب لذلك المتسلل. لفت نظرها قرصًا دائريًا صغيرًا مغطى فحاولت العبث به لتكتشف أنه مجرد غطاء يحوي تحته ثقبًا صغيرًا لمفتاح. تهلت أساريرها فأخيرًا هناك شيء منطقي تستطيع التفكير به. أين مفاتيح عمها؟ تجهمت ملامحها مرة أخرى عندما تذكرت أن عمها ربما يحتفظ بمفاتيحه مخبأة في مكان خفي أو يحملها معه أينما ذهب. في تلك الحالة فإنها ربما فُقدت مع ما سُرق من مكتبه! سطعت في رأسها فكرة مخيفة، القاتل حصل على نسخة المفاتيح أثناء سرقة لعمها ولذا فهو يصر على دخول تلك الغرفة مرارًا لأنه يريد فتح هذه الخزانة.

أيعقل أن يكون القاتل مستميتًا لهذه الدرجة كي يتسلل إلى الفيلا مرتين متتاليتين دون أن ينتبه له أحد؟ هنا رن جرس إنذار في عقلها.. ارتعدت فرائصها حين هاجمتها تلك الفكرة المنطقية. تلبسها خوف خفي حتى أنها نظرت خلفها برعب لتتأكد بأن لا أحد معها. أعادت اللوحة إلى مكانها بذعر فقد توقعت زيارة ثالثة

للغرفة وهذه المرة ربما تُقتل كما قُتل عمها. لا بد من وجود أحد تثق به كي تستطيع إخباره بما يدور في خلدتها، لكن بمن تثق وقد تبينت الآن أن القاتل يكون واحدًا منهم؟

تريد الخروج الآن من الغرفة ريثما ترتب أفكارها وتفكر بالخطوة المقبلة. أسرع لتغادر غرفة الملابس لكن قبل أن تخرج منها كليًا شعرت أن مقبض الباب في مدخل الغرفة يتحرك. كاد قلبها أن يتوقف وعادت لتقفز داخل الحجيرة مرة أخرى، تطفئ مصباحها وتبحث عن مكان تخفي به نفسها. هذه المرة أيقنت أنها ميتة لا محالة إن أمسكها المتسلل، فالمرة السابقة لم يتوانَ عن ضرب جمانة على رأسها ولحسن حظها أنها سقطت مغشيًا عليها فلم تكن الضربة قوية لتؤذيها.

ارتجفت وتصببت عرقًا وهي ترى الغرفة فتشعر أنها مكشوفة أكثر مما ينبغي. يا تُرى كيف اختبأ المتسلل في المرات السابقة دون أن تراه أي منهما هي أو جمانة؟! تسللت داخل إحدى الخزائن الخشبية، تأمل ألا يراها المتسلل. توقفت خلف الثياب المعلقة محاولة الاختباء قدر المستطاع، معتمدة على أن الخزانة الآمنة في الجهة الأخرى من مكانها فربما يحالفها الحظ في ألا يأتي المتسلل جهتها.

مع اقتراب الضوء إلى غرفة الملابس كانت نبضات قلبها تتحول لقرع طبول كطبول الحرب الأفريقية، تزلزل كيائها وتدوي بأذنها بما لا تطيقه. كتمت أنفاسها قدر المستطاع وكأنها تخشى أن يشعر بحرارة أنفاسها اللاهبة كالحمم. أنيرت الأجواء

فعرفت أن المتسلل في غرفة الملابس الصغيرة الآن فابتهلت في سرها أن تمر الليلة بسلام. سمعت صوت حركة داخل الغرفة تشي بموقع صاحبها في الجهة التي تحمل الخزانة الآمنة. توقعت أن المتسلل يقف الآن بجوار الخزانة كما كانت تقف منذ قليل. فضولها يريد دفعها لتمد رأسها عليها تتبين ما يفعله بينما خوفها من تلك الحركة الرعناء ينهاها عن ذلك التصرف.

سمعت صوتًا منبعثًا من الخزانة يشي بأن الرقم السري الذي أدخل خاطئًا فعلمت أن المتسلل مثلها يجهل الرقم السري. محاولة أخرى منه أسفرت عن نفس الصوت. يبدو أنها ستبيت ليلتها هنا حتى الصباح بانتظار ذلك اللص الفاشل حتى ينتهي من محاولاته ويفتح الخزانة!

جرت عدة محاولات قبل أن تسمع صوتًا مختلفًا يصدر من الخزانة. أخيرًا نجح المتسلل في معرفة الرقم السري وجاري فتح الخزانة! لم تستطع مقاومة فضولها هذه المرة وقد شعرت بالفضول القاتل لمعرفة هوية المتسلل كما أن صوت الخزانة المفتوحة أشعرها بأنها كانت قاب قوسين أو أدنى من معرفة ما تحويه ويسعى الكل للاطلاع عليه. مدت رأسها بحذر فوجدت أن الإضاءة الضعيفة لا تظهر هوية المتسلل جيدًا، فقد كان يوجهها كليًا داخل الخزانة ويقلب محتوياتها باهتمام.

كل ما لمحته أن المتسلل رجلًا يرتدي سروالا من الجينز وسترة تبدو بلون داكن غير واضحة المعالم، يميل بكامل

جسده ويبحث داخل الخزانة باهتمام وكأنه يبحث عن شيء ما ولا يجده.

من زاويتها تلك لمحت جزءًا من محتوى الخزانة ولم يكن سوى أوراقًا متراصة. عادت برأسها مرة أخرى للخلف تختبئ تاركة فرجة صغيرة بين الملابس تنظر من خلالها؛ فقد استقام المتسلل فجأة وكأنه لم يجد شيئًا ذا قيمة. ظل واقفًا أمام الخزانة مديراً ظهره لها كأنه يفكر بالخطوة القادمة ثم عاد ليمد يده فيلتقط كل الأوراق المتراسة ويضعها تحت إبطه ويعود ليغلق باب الخزانة مرة أخرى.

فجأة ارتفع رنين هاتف المتسلل بنغمة تنبيه لرسائل أحد التطبيقات. انتفض مكانه ثم أسرع يمد يده لجيبه كي يخرس هاتفه. كانت حركاته تشي بتوتره، وتركه لهاتفه دون أن يغلقه يعكس مدى غبائه. أثناء حركاته المتوترة الخرقاء لغلق الهاتف تبعثرت الأوراق التي يحملها بيده أرضًا. سمعت صوت سباب خافت فتشنجت، الصوت بدا مألوفًا أو ربما خُيل لها ذلك.

عاد فضولها يدفعها لنسيان حذرها وقد مالت برأسها، تسترق النظر من خلف كومة الثياب المعلقة. كان المتسلل يعطيها ظهره ويجثو على ركبتيه، يلملم الأوراق المبعثرة بسرعة وحركات يده تشي بتوتره الجم.

فجأة ارتطمت يدها بأحد جوانب الخزانة حينما كانت تحاول الحصول على رؤية واضحة للمتسلل فأصدرت صوتًا مكتومًا.

توقفت حركاته واستقام ينظر حوله في أنحاء الغرفة بحذر. تراجعت ماسة سريعاً ووضعت يدها على فمها تكتم أنفاسها بقوة، تتصبب عرقاً وتشعر بأن لحظتها قد اقتربت. أغمضت عينها بقوة كأنها تمنع نفسها من رؤية نهايتها المحتومة لكن اللحظات طالت. أخيراً فتحت عينها بحيرة لتفاجأ بأن الغرفة عادت للغرق في الظلام مرة أخرى.

أزالت يدها عن فمها تلتقط أنفاسها بسرعة، وتعب الهواء إلى صدرها عباً. خشيت أن يكون كميناً معداً لها إن خرجت من مكنها فظلت عدة دقائق أخرى متخسبة في مكانها لكن لم يجد جديد. أخيراً قررت أن تمد رأسها بحذر فلم تستطع الرؤية. أخرجت جسدها بحذر إلى فراغ الغرفة الضيقة فشعرت بأنها لا تجد طريقها في ذلك الظلام الدامس. أخرجت مصباحها الذي خبأته معها وأنارته ثم كتتم ضوءه بكفها كي تحصل على أقل إنارة ممكنة. جسدها يرتجف بفعل مغامرته غير المحسوبة لكنها تأمل أن تعود لغرفتها وتنتهي تلك المغامرة على خير.

همت بالخروج عندما لمحت ورقة تحت المقعد الصغير في ركن الغرفة فمالت لتلتقطها سريعاً ثم عادت لتنير باقي الغرفة كي تتأكد أنه ما من أوراق أخرى متناثرة. شعرت بالخيبة عندما لم تجد غيرها، طوتها ووضعتها في جيب منامتها ثم سارت في طريقها إلى غرفتها بحذر.

استطاعت النجاح بالوصول إلى غرفتها سالمة كقطعة واحدة غير فاقدة أو مفقودة. جلست على المقعد أمام طاولة الزينة، ترتجف بينما يلهج لسانها بشكر الله أن نجاها من موتٍ محققٍ هذه الليلة. حين هدأت ضربات قلبها المجنونة واستعادت شيئًا من هدوئها، أخرجت الورقة من جيبها تطالعها في صمت على إضاءة هاتفها. لم تكن ورقة واحدة كما ظنت بل ورقتان مشبوكتان ببعضهما بمشبك. طالعت محتوَاهما في عدم فهم لتشعر بالغباء.

الورقة الأولى حملت اسم مستشفى متخصصة في عمليات الإخصاب وزرع الأجنة، وبياناتها توضح أنها سند قبض لدفع رسوم خاصة بالمستشفى؛ والثانية صورة صكّ مشبوكة به تحمل اسم شخص ما غير معلوم لها. الأكثر غرابة كان تاريخ إصدار ذلك السند فقد كان يعود لنيفٍ وعشرين عامًا مضت وكان هذا محيرًا لها، فلماذا يحتفظ عمها بمثل هذه الأوراق في خزانة مغلقة في غرفته؟ ألهذا سر يدفع القاتل للبحث عن هذه الأوراق؟ أم تراها صدفة أن تكون هذه الورقة بين أوراق أخرى يبحث عنها القاتل بينما لا تهتمه في شيء؟ بقيت إجابة هذا السؤال معلقة في سماء الغرفة، تدفع ماسة لأن تبحث عنها بضراوة.

الفصل الرابع... شك لا ينتهي.

شارف ضوء النهار على الانبلاج ولم تكن ماسة قد نامت بعد. ظلت طوال الليلة تتقلب على جانبيها بتململ بانتظار أن يحل الصباح كي تبدأ بما خططت له. فكرت بطريقة تتواصل بها مع محامي عمها حتى تعرف ما خفي عنها من تحقيقات الشرطة دون أن تثير رييته. تعرفه كشخص التقت به عدة مرات في مكتب عمها حينما رشحها للعم كمتدربة في مكتبه أثناء إجازاتها الصيفية في الأعوام الماضية، لذا عقدت عزمها على محادثته علها تعرف ملابسات موت عمها الخفية.

عادت تفكر في الأحداث المرعبة التي مرت عليهم هذه الليلة، بداية من الإبرة الغامضة التي حقنت بها وحتى الضربة القاسية على رأس جمانة زوجة عمها. تذكرت جمانة فنهضت من فراشها بحذر تتسلل مرة أخرى نحو غرفتها لتطمئن عليها وترى إن كانت بحاجة إليها.

طرقت باب الغرفة بخفة فلم تجد رداً. عادت تطرق مرة أخرى فلا مجيب لذا قررت أن تفتح الباب بحذر فربما كانت جمانة مريضة أو تعاني من أثر الضربة على رأسها ثم تذكرت أن عمر بيت ليلته معها كي يراعيها ويطمئن عليها. توقفت لوهلة تفكر ماذا تفعل ثم عادت أدراجها نحو غرفة عمر، تطمئن إن كان بها أم لا. سمعت صوت حركة خفيفة منبعثة من الغرفة دفعتها

للتوقف بحذر أمام الباب لتتنصت على تلك الحركة. تعجبت من بقاء عمر في غرفته وقد كان من المفترض أن يبقى في غرفة والدته.

شعرت بالفضول فطرقت الباب بخفوت هامسة بحذر: عمر هل أنت هنا؟

صوت حركة خفيفة في الداخل أعقبه صمت تام دون مجيب لذا غادرت متجهة نحو غرفة جمانة وقد عصف بها القلق. يبدو أنها تبنت ليلتها وحيدة بعد أن تسلل ابنها الجاحد من جوارها لينام في غرفته.

فتحت مقبض باب غرفة جمانة بهدوء ثم تسللت على أطراف أصابعها بحذر داخل الغرفة. تقدمت من الفراش لتجد أن جمانة ليست به فاعترتها الدهشة ونادت عليها بقلق فلم تسمع ردًا. اتجهت نحو الحمام الملحق بالغرفة فوجدته مغلقًا. طرقته منادية إياها بقلق وحينها سمعت صوتًا خافتًا ينبىء بتقيؤ شخص في الداخل. فزعت ففتحت الباب دون انتظار ردها متسائلة بذعر: خالتي ما بك؟

أشارت جمانة بيدها في إعياء قائلة: شعرت بالغثيان الشديد ثم تقيأت.

سألت ماسة بقلق: هل هذه أول مرة؟

قالت جمانة بوهن: هذه ثاني مرة أتقياً، ناهيك عن الصداع الشديد الذي أشعر به الآن.

ساعدتها ماسة لتغتسل وتبدل ملابسها بأخرى نظيفة تصلح للخروج من المنزل. قالت جمانة باستفسار متعب: لِمَ تلبسينني ملابس الخروج؟

- لأنك ستخرجين معي إلى المستشفى الآن.

- لا أريد الخروج، سأصبح بخير.

- لا يا خالتي! لن أبقيك في المنزل إلا حين يخبرني الطبيب أنك بخير بعد تلك الضربة التي نالت من رأسك.

- أنت تصدقينني؟

- نعم أصدقك، ولم لا أفعل؟

- لأنه يبدو أن لا أحد يصدقني فقد اتهمتنني إيثاراً بأنني أهلوس نتيجة صدمتي بفقدان مراد وكذلك عمر.

- أما أنا فأصدقك يا خالتي، وأؤمن بأن ما تعرضت له ليس من وحي الخيال.

كانت قد أنهت مساعدتها بارتداء ملابسها فقالت لها بهدوء: أبقى هنا ريثما أبدل ملابسني وأوقظ عمر كي يذهب معنا.

خرجت من الغرفة تفكر في جمانة وما حدث معها. كانت قد أخبرتها بأنها صرفت عمر لينام في غرفته بعد أن شعرت بتوتره وقلقه، وعمر كان مستيقظًا في غرفته حينما طرقت الباب لكن لِمَ لم يجب ندائها؟

طرقت باب غرفته هذه المرة بقوة وإصرار وعنفته بصوت مسموع على تركه والدته في الغرفة وحيدة، مخبرة إياه بأن وضع والدته حرج للغاية. هذه المرة سمعت صوت قفل الباب يفتح ثم طالعها وجه عمر الشاحب قائلاً بتوتر: هل أمي بخير؟ لقد أجبرتني على مغادرة غرفتها قائلة بأنها لا تحب أن يراها أحد أثناء نومها.

أجابته ماسة بتأنيب أن والدته مريضة وربما تعاني من ارتجاج في المخ، وحين أبدى دهشته ساخرًا من تشخيصها وكأنها طبيبة عنفته بأن لا وقت لمثل هذه التساؤلات عديمة الجدوى وعليه اللحاق بها للأسفل بعد أن يبدل ملابسه.

ساعدت ماسة جمانة على الاستلقاء على المقعد الخلفي للسيارة ثم استدارت لتركب في مقعد السائق، فقد تعلمت القيادة على يد عمر منذ سنوات مراهقتها البعيدة وأصبحت تتقنها جيدًا عندما كانت تحضر للإقامة في فيلا عمها أثناء دراستها الجامعية، حينها كانت تقود سيارة جمانة القديمة للذهاب بها إلى جامعتها.

سارع عمر بالقفز إلى المقعد المجاور، ناظرًا نحو والدته
المستلقية على المقعد الخلفي وقائلًا بقلق:
أمي ما بك؟

قالت جمانة بإعياء متزايد: أنا بخير، ماسة تصر على
المستشفى دون داعٍ.

انطلقت ماسة بالسيارة قائلة بهدوء: لكم أتمنى أن يكون
إصراري بلا داعٍ! حينها سأكون سعيدة للغاية.

تطلع الطبيب نحوهما متسائلًا عمّا حدث لها فأجابه عمر
بنفاد صبر أنها سقطت فارتطم رأسها أرضًا وأصيبت بإغماء
قصير وبعدها أصيبت بالقيء. عاتبهما الطبيب على عدم
إحضارها للمستشفى حين سقطت أول الأمر فتحجج عمر
بأنهم يمرون بظروف سيئة عقب وفاة والده. أخبرهم الطبيب
بأنها ستبقى في المشفى لبعض الوقت حتى يتم التأكد أنها
بخير ولن تعاني من مصاب جلل ثم انصرف، وما إن رحل حتى
استدارت ماسة قائلة لعمر بغیظ: أريد أن أفهم الآن لم لم تقل
السبب الفعلي لما حدث مع الخالة جمانة؟

قال عمر بضيق: ماسة، ما يحدث داخل الفيلا هو شأن
داخلي بيننا. لا نريد أن يعرفه العالم أجمع، لذا لن أخبر أحدًا بما
يدور في منزلي ويحدث لأسرتي دون أن يكون هناك داعٍ لهذا.

هاجمته ماسة بغیظ: إذاً أخبر الشرطة يا عمر ودعها تتولى ما يحدث في الفيلا، فربما لن تمر المرة القادمة على خيراً!

قال عمر بصوت هامس: ماسة، أعلم بأن هناك شيئاً غير طبيعي يدور في الفيلا لكنني لا أعرف ما كنهه أو سببه، لذا دعينا نراقب بصمت وليتخذ كل منا حذره. ونصيحة، دعينا لا نقترب من غرفة والدي حتى نعلم ما يريد منها ذلك المتسلل.

صمتت ماسة تفكر، أتخبره بأن المتسلل قد حصل على ما يريد أم تلتزم الصمت وتبحث بطريقتها؟ لكن حماسها أخذها فمالت تهمس في أذنه: لقد حصل المتسلل على ما يريد وانتهى الأمر، فقد اقتحم الخزانة الآمنة الخاصة بعمي ليلة أمس.

حرق عمر بها بنظرة مرتعبة لا تتناسب مع ما تقول كرد فعل ثم سأل بتلجلج: هل رأيتَه؟

قالت بثقة: بأَم عينيِّ هاتين.

سأل عمر بتوتر: من هو؟

قالت ماسة بضيق: لم أتأكد من هويته. أعتقد بأنه رجل وقد كان يرتدي سروالاً من الجينز.

نظرة غريبة التمعت في عينيه بينما قال بطريقة بدت وكأنها ارتياح: إذاً لم تريه! ظننتك تعرفت على هويته.

تطلعت إليه ماسة لكنه عاد يقول باهتمام: وهل تعرفين ما حصل عليه من الخزانة؟

أومأت برأسها قائلة: نعم، مجرد كومة من الأوراق، أخذها ورحل.

أظهر عمر تعجبه مرددًا: رجل غريب يبحث عن كومة من الأوراق، لماذا؟

قالت ماسة مفكرة: ربما هو من سكان الفيلا، فلن يستطيع غريبٌ اقتحام الفيلا ثلاث مرات في نفس الليلة.

قال عمر مؤيدًا: خطر بيالي ذلك، لكن من يكون؟ فنحن لا نملك عمالًا في الفيلا سوى البواب والبستاني، فما مصلحتهما بقتل أبي أو السعي خلف أوراقه؟

قالت ماسة بحيرة: لا أدري يا عمر، لكن من الجيد أنك تصدقني فيما أفكر به.

قال عمر متعجبًا: في بادئ الأمر ظننتك تبالغين جراء الصدمة لكن أن تصاب أُمي بارتجاج في المخ جراء ضربة من معندي، حينها لا مجال للشك بأن هناك من ضربها فلم تكن لتسقط أرضًا ثم نجدها على الفراش مغشيًا عليها. هناك شيء يدور في الخفاء.

سألت ماسة تحته على التفكير: ماذا تعتقد؟

قال عمر: لا أعرف! دعيني أفكر بخصوص ذلك وسأعلمك بما توصلت إليه.

لم تخبره ماسة عن الورقة التي وجدتتها. ربما أرادت أن تحتفظ لنفسها ببعض المعلومات السرية وخاصة أن الورقة تحمل اسم مستشفى خاصة بالإنجاب والحقن المجهري. ربما يمسه الموضوع بصفة شخصية، هذا ما تبادر لذهنها أولاً ثم عاد يقفز إلى تفكيرها التاريخ المدون في الصك، إنه يقارب تاريخ ميلاد عمر.

عادت لتقول بصوت متقطع والملحوظة الجديدة التي تفكر بها تدفعها للتعرق: وأنا من جانبي إن وجدت ما يزيح الغموض قليلاً عما يحدث فسأخبرك.

قالتها ثم تركته لتقترب من جمانة قائلة بمواساة: خالتي جمانة، هل تريدين مني شيئاً؟

قالت جمانة بصوت متعب ومحمل بالإرهاق:

هل سترحليين؟

قالت ماسة باعتذار: نعم، لدي بعد قليل محاضرة مهمة سأذهب لها ثم أعود سريعاً، لن أتأخر!

قالت جمانة بمحبة: وفقك الله يا ماسة، اذهبي ولا تلقيي بالأل لي سأكون بخير.

ودعتها ماسة ثم غادرت سريعًا في طريقها إلى الفيلا استعدادًا لبدء رحلتها، البحث في خفايا المجهول.

عندما عادت ماسة من المستشفى دخلت حجرتها فوجدت فيروز مستيقظة في الفراش، تكتفي بالتحديق في سماء الغرفة بخمول.

هبت من استلقائها لتقول لماسة بقلق: أين كنت؟ لقد سألت عنك ماما كثيرًا ولم أعرف بما أجيبها.

قالت ماسة بهدوء بينما تجهز ملابس نظيفة لترتيدها: كنت مع جمانة في المستشفى.

ذعرت فيروز لتسأل عن السبب فتوقفت ماسة قليلًا عما تفعله قبل أن تستدير لفيروز قائلة بلطف أنها تعاني من وعكة صحية جراء صدمتها بوفاة عمهما.

دخلت الحمام لتغتسل وتغير ملابسها استعدادًا لخطوتها القادمة وعندما خرجت سألت فيروز بحيرة: هل ستخرجين؟

قالت ماسة بهدوء يخفي انفعالها الثائر: نعم لدي محاضرة سأحضرها وأعود سريعًا.

سألت فيروز بقلق: أتظنين بأنه وقت ملائم لحضور المحاضرات؟

أجابتها بمراوغة: ليس تمامًا لكنني أريد حضورها لأنها مهمة.

هزت فيروز رأسها بالموافقة فلوحت لها ماسة ثم خرجت متجهة نحو غرفة زوجة عمها، تبحث عن مفتاح سيارتها لتذهب بها إلى حيث تريد. كانت قد استأذنتها باستعمال السيارة القديمة حيث إن الفيلا تقع في منطقة سكنية هادئة بعيدة عن وسائل المواصلات، ولم تكن في حالة تسمح لها بانتظار مرور سيارة أجرة أو طلبها من إحدى تطبيقات الهاتف. بحثت في الأدراج الخاصة بالطاولة الجانبية للفراش فلم تجدها. استدارت لخزانة الأدراج المستطيلة تبحث داخلها عن المفاتيح، حينها لفتت نظرها قطعة ملابس سوداء تبرز من الجانب تبدو وكأنها حشرت خلف الخزانة.

تعجبت ماسة فاستدارت لجانب الخزانة تجذب الملابس من الخلف لتجد أنها عباءة سوداء متسعة كالزي التراثي القديم مما كانت النساء يستخدمه في الماضي. ازداد تعجبها بشدة فطوال حياتها التي تجاوزت الثانية والعشرين لم ترى جمانة ترتدي العباءات. فردت العباءة فسقط منها قناع أسود كالذي يستخدم في أفلام السطو أرضًا، مالت لترفعه ثم تراجعته بصدمة فالملابس تشبه تلك التي هاجمها بها المتسلل ليلة أمس. تهاوت أرضًا برعب وكل ما يشغل عقلها تساؤل واحد «هل يعقل أن تكون جمانة هي الفاعلة؟ إنها في المستشفى

تخضع للملاحظة بعد الضربة العنيفة على رأسها. هل يمكنها أن تفتعل تلك الواقعة؟»

هزت رأسها برفض قاطع قائلة لنفسها بصوت مرتفع: لا يمكن أن يحدث ذلك فجمانة أضعف من أن تحيك مؤامرة كذلك.

عادت الأفكار تعصف برأسها بعنف، جمانة متورطة بقتل زوجها. هل تحاول أن تدرأ الشبهات عنها باختلاق قصة ذلك المعتدي عليها؟ لكن من الذي كان في غرفة عمها بالأمس، يقتحم خزائنه الأمانة؟ ربما تكون هي أيضًا من تنكرت بملابس رجالية كي تبعد الشبهات عنها إن رآها أحد!

ظلت ماسة متجمدة مكانها أرضًا تحاول استيعاب تلك المعطيات الجديدة المتزاحمة في خواطرها ثم قررت أخيرًا النهوض وكلها إصرار على البحث خلف الجاني. أقسمت في سرها أنها لن تهدأ حتى تسلمه للعدالة، فلن يضيع دم عمها هدرًا.

كان مكتب المحامي الخاص بعمها هو أول وجهة انتوت الذهاب إليها. أحضرت الورقة التي سقطت من المتسلل معها بغرض سؤال المحامي عنها. ما إن وصلت المكتب حتى وجدت

السكرتيرة المتأنقة تبتسم لها قائلة: تفضلي يا أنسة ماسة، هل ستعملين معنا كمتدربة اليوم؟

هزت ماسة رأسها نافية ثم أردفت: لا! وددت مقابلة السيد أمجد المحامي.

قالت السكرتيرة متصنعة الأسف: السيد أمجد لن يأتي اليوم للمكتب، أنت تعرفين أن.. أوه! البقاء لله نسيت أنك ابنة أخته.

قالت ماسة مصححة بتجهم: ابنة أخيه يا نسرين وليس ابنة أخته. أخبريني متى أستطيع مقابلته؟

فتحت نسرين فمها لتجيب لكن الصوت الذكوري المنبعث من خلف ماسة جعلها تنتفض بخجل مفاجئ إثر طريقتة الواثقة: يمكنك مقابلتي بدلاً منه إن كنت تحبين.

كانت ماسة تعرف ذلك الصوت حق المعرفة، إنه «مالك زيدان» المساعد المباشر للمحامي الكبير «أمجد لاشين». شعره الأسود الجميل مصفف بعناية، وعيناه كما هي لجة سوداء قادرة على سحب من ينظر إليها إلى أعماقهما أما بشرته القمحية فجعلته أشبه بصور الفراغة المميزة التي كانت تسحر ماسة حين تراها. لطالما تخيلته ينحدر من تلك الأسر العريقة لكن بلباس مدني حضاري يناسب عصرنا.

التفتت تقول له بثقة تحجب تلك الأفكار التي تزدهم في رأسها عنه:

لن تستطيع مساعدتي في الشأن الذي أريده لأجله، لذا أشكر
لك عرضك سيد مالك.

تبسم مالك من معاملتها الرسمية وتزايد إعجابه بقوة
شخصيتها. سأها مماًزاً:

هل ما زلت تناديني بالسيد مالك؟ تشعريني بأني عجوز.

قالت ماسة مغيرة سير الحوار دون أن تبتم: هل تعرف
كيف أستطيع الوصول للسيد أمجد؟ هاتفه مغلق ولا أعرف
رقماً آخر له.

قال مالك بلهجة عملية: اتبعيني إلى مكتبي.

تبعت ماسة في صمت وداخلها يهتز كما المعتاد عندما
تتحدث معه. قابلته في أول مرة قدمت بها للمكتب وقد أوكل
له السيد أمجد مهمة تدريبها وتعريفها على طريقة العمل. حينها
كان حديث الالتحاق بالمكتب ولم يكن يعمل كمساعد شخصي
بعد لكنه كان متفانياً في عمله، مجتهداً ومثابراً استطاع تحقيق
نجاحات ساحقة في عدة قضايا تولها باسم المكتب مما دفع
السيد أمجد فيما بعد أن يعتمد عليه اعتماداً كلياً وذاتياً.
الأقاويل تشير بأنه كان مرشحاً للعمل في التدريس في الجامعة
لكنه رفض لأجل أن يعمل كمحاضر خاص، لكنها لم تسأله
شخصياً لتأكد منه.

أعجبت ماسة بجديته في العمل واهتمامه بأدق التفاصيل. كان لافتًا لها أنه يتعامل معها بتلقائية دون أن يتصنع أو يبتذل، علاقة عملية مبنية على تحقيق الطموح والاستفادة القصوى من فترة تدريبها الصيفية.

وهكذا تبعته ماسة دون تردد إلى مكتبه. ما إن دخلت المكتب الكبير الذي جدد بالكامل عن سابقه حتى انبهرت، وقد وصلها أن مالك ربما أصبح هو المالك الجديد لمكتب المحاماة هذا. الجدران طليت باللون الأبيض الناصع أما الأثاث فقد تحول بالكامل إلى أثاث خشبي باللون البني الداكن مما أضفى على جو الغرفة فخامة منقطعة النظير، وأضيفت أرائك عملية وثيرة من الجلد بنفس لون المكتب والخزانة.

قطع عليها تأملها قوله باهتمام وتأثر: البقاء لله يا ماسة، يحزنني ما حدث لعمك فقد كان عميلًا جيدًا وإنسانًا رائعًا.

هزت ماسة رأسها في هدوء متقبلة تعزيتة المجاملة وقد عادت للتركيز على ما أتت من أجله، ردت بخفوت: رحمه الله وغفر له بإذنه.

أشار نحو المقعد المواجه لمكتبه قائلاً: والآن تفضلي، هل تناولت إفطارك أم أطلب من الساعي أن يحضره لك؟

أجابته بصوت هادئ: لا أريد إفطارًا، أشكرك.

بلهجة مرحة تابع كلامه: إذًا إلى العمل كما الأيام الخوالي،
لماذا تريدان السيد أمجد؟

تفوس جسدها في حركة متوترة خفية التقطتها عينا مالك
الخبيرتان بينما قالت بصوت شابه التوتر:
بخصوص عمي.

حثها على الكلام فتابعت بضيق: لدي بعض الأسئلة، أريد
منه الإجابة عليها.

تنهد مالك بقوة ثم قال مماطلًا: يمكنك سؤالي عما تريدان،
فأنا رسميًا أتولى معاملات عمك مؤخرًا بسبب تعب السيد
أمجد.

هزت رأسها بإصرار رافضة إبلاغه عن سبب زيارتها وحين
لاحظ توترها والخوف القابع في حدقتها قرر أن يكسر حاجز
الجمود بينهما بأن يخبرها بعض ما يعرفه عنها تشعر بالأمان
فتشاطره ما يقلقها.

التمعت عيناه السوداوان ونظر لها وعلى ثغره تلاعبت
ابتسامة خفيفة قبل أن يتحدث:

سأخبرك بآخر مستجدات القضية يا ماسة، أتابعها مع وكيل
النيابة وضابط المباحث بنفسي ولدي كل المستجدات.

ثم تناول ملفاً ورقياً موضوعاً على مكتبه ليطالعه ويكمل: عمك الآن في المشرحة بانتظار تقرير الطبيب الشرعي النهائي، والذي سيؤكد إصابته بطلق ناري في جهة القلب نجم عنه موت فوري. المسدس كان ملكاً لعمك، وجد في ساحة الجريمة وليس عليه أي بصمات سوى بصمات خفيفة شبه ممحوّة تعود لعمك. المتعلقات الشخصية كلها مفقودة، النقود والبطاقات الائتمانية والساعة والمحفظة والهاتف، لذا رجحت الشرطة بأن الجريمة كانت بغرض السرقة، وبالأخص في تلك المنطقة الخالية من العمران التي انتقل لها عمك مؤخراً بنصف عمالته حين اكتمال الانتقال من المكان الرئيسي. الحارس اختفى لمدة ساعتين بحجة إحضار طلب للسيد مراد، يرجح بأن سبب اختفائه حقيقي إذ أن هناك شهود على وجود الحارس في المكان الذي أخبر الشرطة به أما أنا فأسعى لمعرفة إن كان الحارس متواطئاً مع القاتل أم بالفعل تم تكليفه من قبل عمك بالذهاب.

سألته بتوتر: هل وُجِدَت مفاتيح عمي؟

قال مالك بتأكيد بينما يتفرس في ملامحها، يحاول استكشاف سبب القلق: لا! للأسف لم يجدوا في الغرفة أي غرض شخصي، كله ذهب مع الريح.

ثم مال نحوها هامساً بتأمر: لو كان ذلك اللص ذكياً لما ترك خلفه شهود.

سألت ماسة بتحير: شهود، هل هناك شهود؟

غمز بعينه قائلاً: فقط أنا من يعلم والسيد أمجد، ويمكنني إخبارك إن أخبرتني فيم تريدين السيد أمجد.

زمت شفيتها بحنق وتطلعت بقوة نحوه كأنها تدرس خياراتها. الشك كان حليفها تجاهه وقد غمرها بأسئلته الغريبة ثم تلميحاً لمعرفته بأنها تبحث خلف مقتل عمها، كل ذلك جعلها تنظر له بخوف داخلي واضطراب ثم اتخذت قرارها بناء على فكرة منطقية زارتها، قراراً بالنبش في طيات الماضي المجهول.

الفصل الخامس ... خبايا النفوس.

كانت عينا مالك يتسع عمقهما كلما استمرت ماسة في جزء من الحكاية، أخبرته باعتقادها أن سبب الجريمة لم يكن السرقة وبأنها تعتقد أن السبب شخصي. أخبرته بذلك الشبح المتسلل المصر على اقتحام غرفة عمها بكل عزيمة متسلحًا بالعنف والشر، فبينما كان متخذًا احتياطاته في أول مرة عندما اقتحمت ماسة عزلته فحقنها بمادة مخدرة، لم يتوان عن ضرب جمانة مسببًا لها ارتجاجًا في المخ، وتعتقد بأنه إن صادف في المرة الثالثة أي فرد منهم فلم يكن ليتورع عن قتله بدم بارد.

سألها مالك باهتمام شغوف عن عدد مرات اقتحامه وكأنه تعجب من الرقم الذي ذكرته، لكنها أكدت له الرقم مكملة بأنها كانت في الغرفة عندما فعل لكن لحسن الحظ لم يرها إذ اختبأت، وفي لحظة اعتقدت بأنه سيكتشف وجودها لولا توتره وتعجله لمغادرة الغرفة فلم يهتم بالبحث عن مكانها بالرغم من الصوت الذي أصدرته باحتكاك يدها بجدار الخزانة المختبئة فيها، وهذا أثار حيرتها قليلًا فقد بدا لها اللص في الزيارة الثالثة مختلفًا عن المرتين السابقتين. بدا جبانًا متوترًا ويرتدي ملابسًا تختلف عن الأسود الذي رأته به هي وجمانة.

قال لها بتوبيخ ضمنى: كان من الممكن أن تُقتلي. لا تقومي بمخاطر غير مأمونة فيما بعد يا ماسة!

ردت بقلق: أريد أن أتأكد أن عمي سيقترض ممن قتله حتى وإن كان ميتًا.

أكد كلامه بثقة: لا تقلقي يا ماسة فكلنا في نفس القارب. أنا لست مقتنعًا بتحليل الشرطة لدوافع القتل وبالأخص بعد أن رأيت طريقة كتابته للوصية.

أشرق وجه ماسة للحظات فقد أعجبها أن يتفق معها أحدهم برأيها ولا سيما إن كان هذا الشخص هو مالك، لكنها سألت بتعجب: وصية؟ هل كتب عمي وصية قبل مماته؟

بلهجة واثقة أجابها: كتبها منذ حوالي عشرة أيام، اتصل بي ذات ليلة لأذهب إليه في مكتبه في موعد مسائي متأخر، بدا لي بأن هناك ما يؤرقه باله بطريقة غير اعتيادية. تحدثت معه بشأن عدة أمور قانونية يريد معرفتها وقال لي أن عليّ العودة إليه في الغد كي أستلم وصيته التي يريد الاحتفاظ بها مغلقة لحين وفاته.

سألته بتعجب: وصية مغلقة مثل الأفلام، هل فيها سر؟

ضحك من تفكيرها الطفولي، قال وقد ازدادت ابتسامته: نعم مثل الأفلام يا ماسة ولست أعلم ما بها، ستفتح بعد أسبوع من وفاته.

سألت بفضول تحته على التحدث: ماذا تتوقع أنه كتب فيها
ليستدعي الأمر كل هذه السرية؟

هز رأسه برفض قاطع قائلاً بتأنيب: أنت محامية وتعرفين
أن الوصية لا تفتح إلا في الوقت المحدد لها كما لا يمكنني
إخبارك بمحتواها الآن حتى وإن كنت أعلمه، تعرفين القانون!

قالت بتذمر محتجة للأطفال: أريد تجميع قطع الأحجية
لفك اللغز يا سيد مالك، أما الوصية بذاتها فلا أهتم بها. هل
يمكنك إخباري عمّا سألك بخصوصه؟

هز مالك رأسه مفكراً: أعرف فيم تفكرين لكن لا أستطيع
إخبارك بما كان يستفسر عنه، كلها أشياء تتعلق بالميراث
وكيفية توزيع إرثه بطريقة قانونية لا تسمح لأحد بالطعن في
وصيته. هل يمكنك إخباري بما حدث في الفيلا تفصيلاً؟ يمكننا
أن نتعاون سوياً لحل اللغز.

ردت بلهجة ساخرة: أنا أتحدث وأنت لا تشارك. يمكنك البدء
بالتحدث كما أفعل للمرة على الأقل.

تنهد ثم استند بظهره على الكرسي وقد ارتسمت الجدية
على ملامحه ليقول:

لا أعرف سوى أن عمك قُتل بعد أن أرسل الحارس ليحضر
طلباً تافهاً لا أدري كنهه. الغريب أن الحارس لم يخبر الشرطة
بأنه عندما عاد كانت هناك سيارة حديثة الطراز ذات لون رمادي

داكن تتحرك من أمام المبنى لكنه لم ير من يقودها ولا يتذكر نوعها، فعلى حد قوله هو لا يعرف أنواع السيارات ولم يشك بأن السيارة كانت تتحرك من أمام البناية إلا عندما وجدت الجثة صباحًا. أخبرنا أنا والسيد أمجد بهذه المعلومة غير المفيدة حاليًا لنا نظرًا لأنها غير مكتملة.

قالت ماسة بتفكير بينما تغضن جبينها: أجدها معلومة تأكيدية، فالقاتل لديه سيارة رمادية داكنة وهكذا يتم حصر الأشخاص المشتبه بهم.

سألها مالك: هل تشبهين بأحد معين؟

لم تجبه وقد بدت علامات التركيز العميق على وجهها، تحصر من في الفيلا لديه سيارة بنفس اللون عدا عمر وسيارة جمانة القديمة، لكن الحارس قال إنها سيارة حديثة، إذاً لم يتبق إلا عمر.

أعاد مالك سؤاله بقوة منتزعًا إياها من شكوكها: ماسة، هل تشبهين بأحد؟

نهضت عن مقعدها وقد التمعت عيناها بنظرة غريبة. هزت رأسها بتوتر: لا يا سيد مالك! ليس لدي مشتبه به، ما زلت أبحث عن واحد.

صمتت ثم عادت لتقول هذه المرة بصوت ينبض بالقوة: وحين أجد صدقني، لن أدعه يهناً بحريته طويلًا.

ارتسمت البهجة داخل قلبه، فقد أعجبته قوتها حين نطقت
بذلك العهد.

جلست أمام مقود السيارة في صمت تبحث في عقلها ما قاله
لها مالك، فالحارس رأى سيارة تتحرك من أمام المكتب وهو
غير متأكد إن كانت تمر ببطء أمام البناية أم تقل شخصًا كان في
المكتب أثناء غيابه.

حاولت ترتيب الأفكار المتطايرة في رأسها. لم تخبر مالك
بشكوكها بجمانة وبأنها قد وجدت الملابس السوداء في غرفتها.
شعرت بالحيرة من نفسها أنها أخفت تلك المعلومة، لكنها في
الوقت الراهن قررت ألا تطلق سهام شكوكها فتصيب من
تصيب دون تمييز أو وجه حق، وهي بالعادة لا تحب إيذاء
الأخرين خاصة وقد عانت ما يكفي من كلام إيثار الحاد
كالسكين.

تبقت لديها مهمة أخيرة، أخرجت الورقة التي تحمل اسم
مركز الإخصاب فطالعت أرقام الهاتف بها. خمنت بأنه من
المستحيل أن تكون تلك الأرقام صحيحة خاصة بعد انتشار
أرقام الهواتف النقالة وإلغاء الأغلبية للهواتف الثابتة لكنها
بالرغم من ذلك أخرجت هاتفها وجربت أن تضغط الأرقام. رسالة
مسجلة أخبرتها أن الرقم غير صحيح فتبسمت بسخرية تطالع
الورقة بينما تخاطب نفسها "والآن يا ماسة، ما الخطوة التالية؟"

فتحت محرك البحث الخاص في الهاتف وكتبت فيه اسم المركز الخاص بالحقن المجهري. بحثت فلم تجد له عنواناً. تعجبت، فلا بد من وجود خطأ ما. لا بد أن يكون المركز له اسم رائد في الوقت الحالي بين كل تلك المراكز التي ظهرت لها على محرك البحث. أعادت تغيير طريقة كتابة الاسم عدة مرات وفي كل مرة كان الحظ لا يحالفها. أسقط في يدها فقد كانت تعوّل على معرفة سبب وجود ذلك السند القديم مع عمها. جربت بيأس أن تكتب الاسم الثلاثي للشخص الموجود اسمه على النسخة المصورة للصك المدفوع فظهر لها عدة صفحات تحمل اقتراحات بأسماء مشابهة. ظلت تقلب بينهم حتى وجدت صفحة يعود تاريخها إلى عشر سنوات سابقة وبجوارها خبر ما، كان الخبر صادماً بكل المقاييس!

«إلقاء القبض على الطبيب راجي عاطف سند، بعد إثبات إدانته بأعمال غير شرعية في مركز حقن الأجنة الذي يملك فيه عدة أسهم، وجاري التحقيق معه.»

تسارعت أنفاسها بشدة، أعمال غير شرعية ومحاكمة. ما سبب تعامل عمها مع ذلك الشخص؟ ما سر وجود صورة ذلك الصك الذي يحمل اسم الطبيب المشبوه؟

تخبطت في الحيرة كثيراً، تريد معرفة أي شيء يخص هذا الشخص. بحث وبحث استمر لنصف ساعة دون جدوى. عدة أخبار بسيطة متناثرة لا تكفي لإشباع فضولها تتحدث عن تلك

المحاكمة. كان خبرًا منشورًا في جريدة معينة تتبعها عدة أعداد تحمل مقتطفات عن الحادث ثم صمت تام وكأن ذلك الخبر اختفى من الوجود، وكأن تلك المحاكمة لم تكن! كونت فكرة عن شكل القضية لكنها لا تعرف التفاصيل. هي متدربة في مكتب محامي معروف، لذا ربما يمكنها استغلال اسمه للدخول إلى أرشيف المحكمة التي تم النظر في القضية فيها والاطلاع على سجلاته الخاصة. تحتاج بطاقتها التي تحملها كمحامية وقد كانت البطاقة معها لحسن الحظ. حسنًا! ستذهب إلى المحكمة وتحاول الوصول إلى القضية بطريقتها الخاصة.

هاتفت عمر لتطمئن منه على جمانة فأخبرها بأن الأطباء سيسمحون لها بالمغادرة خلال النهار. تنهدت بارتياح لمعرفة أنها جمانة بخير. أنهت الاتصال مع عمر ثم هاتفت فيروز فوجدتها قلقة ومتوترة بشكل مبالغ به، أخبرتها بأن إيثار غادرت الفيلا لزيارة جمانة منذ الصباح الباكر ولم تعد بعد ولا تجيب على الاتصال. طمأنتها ماسة بأنها عائدة في الطريق ثم أدارت محرك السيارة لتغادر مكتب المحامي في طريقها نحو الفيلا مؤجلة خطوة الذهاب إلى المحكمة إلى الغد.

وصلت الفيلا فلم تجد سوى فيروز التي تجلس في الردهة تتشغل بالنظر في هاتفها بينما ملامح وجهها تحمل شحوبًا واضطرابًا غير معتادين. اقتربت منها متسائلة عما حدث وعما إذا أجابت إيثار اتصالها فهزت فيروز رأسها بقلق عارم قائلة: كلا! ولا مرة. أهاتفها منذ ساعتين دون إجابة منها.

سألت بقلق: متى خرجت؟

قالت فيروز بتوتر: لا أذكر متى غادرت. بعد أن ذهبت إلى الجامعة أخبرتها أن جمانة في المستشفى ومن ثم أخبرتني بأنها ستذهب لرؤيتها، ومنذ ذلك الحين لم تعد.

أمسكت ماسة هاتفها تتصل بعمر مرة أخرى لتسأله عما إذا كانت إيثار عنده في المستشفى فكان رده بالإيجاب رغم حيرته لسؤالها الذي لم تطرح مبررًا له بل أصرت على معرفة موعد وصولها تحديدًا. في ذهنها أسئلة كثيرة تريد إجابات واضحة لها وكانت إجابات عمر أكثر مدعاة للقلق، فوجود إيثار معهما لم يتعد ساعة من الزمان وهذا لا يفسر سبب أو مكان اختفائها منذ الصباح على حسب قول فيروز.

أنهت الاتصال لتطمئن فيروز أنها بخير وهي مع الخالة جمانة في المستشفى وربما يكون هاتفها على الوضع الصامت لذا لم تنتبه لاتصالاتها المتكررة. لم تخبر فيروز بأنها في المستشفى منذ ساعة فقط ولا تدري أين كانت طيلة الصباح. تركت ذلك السؤال المحير في ذهنها علّها تصل لإجابات له بنفسها دون إشراك فيروز بالتحريات خاصتها.

أصبحت الآن مصابة بالوسواس القهري نحو كل قاطني الفيلا. في داخلها يقين بأن الفاعل من الموجودين معهم في المكان وأنه ليس من الخدم أو العاملين به، فليس لأحد منهم

سابق ضغينة مع عمها أو وجه استفادة من موته. جمانة وإيثار ثم عمر وفيروز هؤلاء من كانت تضعهم في خانة الشبهات.

نظرت نحو فيروز فهزت رأسها مستنكرة. لا تتخيل أن فيروز قد تقوم بعمل حقير مثل هذا، لا تفكيرها ولا بنيتها يسمحان بذلك بالرغم من استشعارها أن فيروز تبدو على غير طبيعتها هذه الأيام، ربما بسبب ما حدث لعمهما. إذًا فيروز مستبعدة!

عادت لجمانة، لا تتخيل أنها قد تتورط في عمل مثل هذا. جمانة زوجة عمها الرقيقة ذات الشعر الأسود الذي خطه الشيب فباتت تغير لونه بالأصباغ كل مرة. سمراء البشرة، عيناها واسعتان وصوتها رقيق لا يتجاوز طبقة الهمس إلا بقليل. جمانة هي حب حياة عمها وكل ما يملك في الدنيا على حد قوله. كانت زميلته في الجامعة وتصغره بعامين دراسيين، تعرف عليها في اتحاد الطلاب حيث كان يترأس الاتحاد حينها. أنقذها من ورطة ما وسقطت في هواه. من أسرة غنية جدًا فوالدها رجل أعمال معروف لديه ابنة وحيدة وابن فاشل. تزوجها مراد وأصبحت شركة والدها أحمد الشيخ تحت تصرفه. وصيته بعد وفاته نصت أن يتولى مراد إدارة كل شركاته على أن يعطي عائدا ثابتا لابنه الوحيد جاسر. لم يكثر جاسر بوصية والده فقد كان يحتاج النقود دون أن يبذل جهدًا في جنيها ووافقت وصية والده هواه. أصبح يجني عائدا الأرباح بينما يتسكع حول العالم، ينفق النقود كيفما يشاء، لذا حين أنجبت جمانة ابنها عمر أصبح هو

الوريث الوحيد لشركات أحمد الشيخ حيث أن جاسر أخيها لم يتزوج ولم ينجب.

قام مراد بدوره على أكمل وجه، أدار شركات زوجته بحنكة ومهارة حتى استطاع أن يصبح شريكًا مساهمًا فيها وبالرغم من ذلك لم ينس جاسر أبدًا. حاول تعويضه عن وصية والده المحجفة بحقه فزاد حصته من الأرباح لكن ظل المستفيد الأكبر هي جمانة الشيخ، لذا فإن جمانة لن تتورط في مقتل زوجها، هكذا كانت ماسة ترى الأمور من زاويتها الرومانسية المؤمنة بالحب الخالص.

عمر! لا لن يكون عمر، فعمر الذي يشبهها في ملامحها كثيرًا حتى كان البعض يظن أنهما أخوين لن يستطيع فعل ذلك! عمر صديق طفولتها البائسة المزرية التي كانت تهرب منها بأن تقيم في فيلا عمها بعض الوقت، عمها مراد الذي ساهم في بناء شخصيتها بالقوة التي تتمتع بها. كانت تلعب مع عمر في طفولتها وتحتضنها الخالة جمانة ويرعاها عمها مراد.

أما عمر فكان أقل حظًا منها في اكتساب قوة شخصية والده. كان مدللًا من قبل والدته التي كانت تعامله بطريقة تثير حنق والده فقد أرادته قوي الشخصية يُعتمد عليه بينما أرادت والدته أن يظل بجوارها طوال الوقت، تدلله وتعنتي به وتخاف أن يصاب بإحدى أزمات التنفس التي تلازمه منذ أن كان طفلًا

رضيعةً. كيف لا وهي التي تأخرت بحمله لعدة أعوام بالرغم من زواجهما المبكر هي ومراد بعد سنوات الجامعة مباشرة؟

تبقى لها إيثار زوجة والدها ذات الشخصية القوية والجلد المتلون كالشعابين. لم يعرف والدها أبدًا كيف تعاملها إيثار. بالرغم من إحساسه أن ماسة لا تحبها، لكنه بالفعل لم ير طريقها الفعلية في معاملة ماسة وبالتالي لم يعرف زوجته على حقيقتها قط. في أول سنوات طفولتها ظنت أن إيثار والدتها. كانت تناديهما بأمي دائمًا بالرغم من قسوتها في معاملتها حتى ذهبت إلى المدرسة، حينها علمت أنها تختلف فشهادة ميلادها تحمل اسمًا مختلفًا في خانة الأم. إذًا إيثار كانت أمًا بديلة!

تذكرت كيف كانت مشاعرها حين علمت تلك الحقيقة وكأنها تعيش نفس العمر مرة أخرى. صدمة يتبعها زعر ثم حيرة وفوضى داخلية وكأن إعصارًا قويًا ضربها فزلزل داخلها وأحدث به ضررًا غير قابل للإزالة.

يومها ذهبت لوالدها دامعة العينين تسأله بصلافة لا تناسب طفلة في عامها السابع: أبي، أريد أن تخبرني بالحقيقة، هل إيثار هي أمي؟

سألها والدها متعجبًا من حالتها: ماسة، هل أنت بخير؟

أعادت صياغة سؤالها مرة أخرى بنفس الصلافة: أريد أن أعرف، هل إيثار هي أمي الحقيقية؟

حينها نهض والدها من مقعده ليقترّب منها فيحتضنها
بحنان قائلاً: أمك إيثار هي من تولت تربيتك حبيبتي منذ أن
كنت طفلة بعمر العامين، هل ضايقتك بشيء؟

عادت تسال بنفس الجمود: أين أمي الحقيقية؟

ارتسم الأسى على ملامحه ليجيبها بألم: أمك توفيت بعد
ولادتك يا ماسة، إنها في الجنة عند الله.

تملصت ماسة من أحضانه برفض لتقول بقسوة:

ولمّ لم تخبرني من قبل؟ لمّ لم تقل لي أن أمي الحقيقية
ماتت؟

تطلع محمود خطاب بألم لملامح ابنته المتقلصة بالبؤس
ليقترب منها مرة أخرى قائلاً بحنان:

لأنك كنت صغيرة يا ماسة، لا تعرفين معنى فقدان من
تحبين. كنت تعيشين طفولتك كما كنت أريد لك أن تعيشها،
تمرحين بالأطفال وتلهين هنا وهناك دون أن تشعرني أنك
يتيمة الأم وبالأخص وأنا أرى أنك لا تشتكين من معاملة إيثار
لك بشيء.

اكتفت ماسة حينها بالتطلع نحوه بصمت طفلة لا تجد
التعبير المناسب لوصف القسوة التي تعامل بها. لا تعرف كيف
تخبره بعدد المرات التي حُست بها في غرفة المؤونة المغلقة،

ولا عدد المرات التي صُربِت بها بقسوة لأنها ارتكبت فعلاً مشاعبًا كما يفعل الأطفال بالعادة، ولا كيف كانت تُعاقب كلما ارتكبت فيروز التي ما زالت تحبو تصرفًا مخربًا بحجة أنها الكبيرة والمسؤولة عن مراقبتها.

حبست دموع قهرها داخلها قبل أن تجيبه بقسوة بأنه لا يعلم شيئًا وأنها لم تعد تريد البقاء معه بعد الآن. أصرت على ذهابها لعمها رغم اعتراض والدها على قرارها لأنها كانت في بداية عامها الدراسي، وأمام إصرارها وخاصة بعد تدخل عمها مراد مخبرًا إياه بأن ذلك الأفضل لها ولنفسيتها حتى تستعيد اتزانها رضح وسمح لها بالذهاب لتقييم في منزل عمها مع جمانة زوجته التي لم تبخل عليها بالعاطفة المفقودة. ذهبت إلى المدرسة مع عمر ذلك العام ورفضت العودة لمنزل والدها بل إنها كانت ترفض مقابلته شخصيًا إن أتى لرؤيتها وكأنها تعاقبه على خطأ ارتكبه بحقها.

ظلت هكذا حتى علمت من عمها في أحد الأيام أن والدها مريض فعادت معه إلى المنزل لتنسى القسوة التي عاشتها في الماضي مقابل أن تهتم لأمر والدها، ومنذ ذلك الحين ازدادت قربًا منه وتعلقًا به. تغاضت عن حبه الجم لإيثار وقد التمسّت له العذر لأنها فهمت فيما بعد أن الرجل بالعادة لا يفهم القبح الداخلي إذا ما تم إخفاؤه جيدًا بالجمال والدلال، وبالمقابل حاول والدها أن يعوضها غياب والدتها بالبقاء معها فترات طويلة فقلّ بطش إيثار بها.

ظلت تبخر في سنوات ماضيها العامرة بالحب لها من جميع الأطراف، حاول معها والدها عدة مرات أن يعرف سبب عدم محبتها لإيثار لكنها كانت تكتفي بالرفض قائلة:
أنا لا أكرهها، يكفي أنها والدة فيروز أختي.

توطدت روابط المحبة بينها وبين فيروز الصغيرة. شعرت أنها تفتقد الأم الحنون التي لا بد أن يحظى بها جميع الأطفال فكانت هي أمها، تولتها بالعطف والحنان والرعاية التي تفتقدهما حتى أصبحت فيروز تلجأ إليها إن واجهتها مشكلة في المدرسة.

تنهدت في صمت. ماذا تريد الآن من كل تلك الأفكار المتزاحمة في رأسها؟ أتأمل أن تكون إيثار هي المتورطة في مقتل عمها؟ ربما، وربما لا! نهضت فجأة لتقول لفيروز بإرهاق:

سأصعد لغرفتي في الأعلى يا فيروز، فأنا مرهقة للغاية وآمل في الحصول على قسط من النوم قبل أن تعود جمانة من الخارج ويتوافد المعزون إلى الفيلا.

قالت فيروز بتعاطف: اذهبي يا ماسة، سأظل بالأسفل هنا بانتظار عودة الجميع.

صعدت ماسة إلى الأعلى وأثناء مرورها أمام غرفة عمر القريبة من الدرج، وجدت أنها مفتوحة على مصراعها دون أن

يوجد بها أحد. اقتربت من الغرفة بتعجب تنظر داخلها فهي تعرف أن عمر لا يحب وجود الغرباء في غرفته لكنها لم تجد أحدًا. تلفتت حولها تستطلع المكان وقد خمنت بأن الخادمة من فعلت ذلك فقد كانت مفارش السرير منزوعة كما كانت الستائر مرفوعة والنوافذ مفتوحة كليًا.

تأملت الغرفة قليلًا، غرفة شبابية عصرية قد جد أثاثها بالكامل منذ فترة قريبة ليناسب ذوق قاطناتها. لون جدرانها أزرق داكن وأثاثها ذو اللون الأبيض يضيء عليها إشرافاً وبهجة. غرفة مرتبة وأنيقة كما ينبغي أن تكون وبما ينافي طبع الرجال بالاهتمام بالترتيب والأناقة لكن عمر كان ذو شخصية منمقة تشبه شخصية والدته كثيرًا.

كادت أن تخرج من الغرفة لكنها ما إن تحركت نحو الباب حتى لفت انتباهها شيء ما في جهة الفراش المقابلة للباب فعاتت مرة أخرى نحو الفراش تشعر بالفضول. هناك ورقة تبرز من أسفل حشية الفراش يبدو أنها ظهرت عندما قامت الخادمة بنزع المفارش. ضحكت من عمر وأفعاله الطفولية، فقد كان معتادًا منذ طفولته على مثل تلك الأفعال. كثيرًا ما كان يخبئ أوراق نتائجها السيئة أسفل حشية فراشه خوفًا من تعنيف والده له على تقصيره وقد كانت ماسة تضحك من أفعاله تلك. أمسكت الورقة تطالعها بفضول وقد اتسعت ابتسامتها قائلة بسخرية:

والآن ماذا يا عمر؟ هل ما زلت تخفي نتائجك عن أبيك؟

ماتت الابتسامة على شفيتها اللتين تيبستا وابيض لونهما.
 رفعت الحشية لتجمع كل الأوراق وعندما انتهت كانت الخادمة
 قد عادت إلى الغرفة مرة أخرى فتفاجأت من مرأى ماسة
 الشاحب. سألتها بتوتر:

آنسة ماسة، هل أنت بخير؟

قالت ماسة تغالب غصّة بحلقها: نعم بخير.

عادت تسألها: هل تحتاجين شيئاً من هنا؟ السيد عمر ليس
 موجودا.

أجابت ماسة بصوت متقطع وقد عجزت عن لم شتات
 نفسها: أعرف، كنت أبحث عنه.

خرجت من الغرفة كالملدوغة، تجر قدميها نحو غرفتها وكأنها
 رأت شبحاً مرعباً فاهتز كل كيائها. دخلت غرفتها فكان أول ما
 فعلته أن أغلقت بابها بإحكام ثم سقطت على فراشها تلتقط
 أنفاسها المحتبسة داخل صدرها منذ أن طالعت الورقة. أخرجت
 الأوراق من حقيبتها التي دستها بها قبل أن تراها الخادمة
 لتتصفح محتواها. تأكدت الآن أن تلك الأوراق هي التي كانت
 في خزانة عمها الآمنة المغلقة.

وضعت يدها على وجهها غير قادرة على قراءة الأوراق بعد.
 هذا لا يعني سوى شيئاً واحداً، عمر هو الجاني!

همست بصدمة مستعصية على نفسها أن تصدق ما تراه
بعينها: يا إلهي، غير معقول! كيف يمكن أن يكون عمر هو
القاتل؟ هذا غير معقول أبدًا!

ظلت تردد لنفسها أبدًا حتى أدركها الإعياء.

الفصل السادس... لهذا؟

مضى ما يقارب الساعة منذ أن اكتشفت ماسة تلك المصيبة التي هبطت على رأسها كالصاعقة. كانت مستلقية في الفراش كتمثال حجري تحديق بسقف الغرفة دون أن تطرف تقريبًا. عقلها كالبحر الهائج تتلاطم به أفكار عاصفة غير مترابطة. كل ما يلح على رأسها في الوقت الحالي هو كيف تتأكد أن عمر هو الفاعل!

عادت وتذكرت أنها قد وجدت ملابس المتسلل في غرفة جمانة. إذًا لا بد أنه من فعلها عندما كان يبيت معها أو قبلها بوقت من الأوقات دون أن ينتبه له أحد، كما أن سيارته رمادية حديثة الطراز كالتي أخبرهم الحارس أنه رآها ليلة الحادث. هل هي الي رآها تتحرك من أمام البناية ليلة مقتل عمها؟ سؤال مؤرق عاصف يضرب أفكارها فيشتتها في كل الاتجاهات.

أخيرًا تنهدت وهي تنقلب على جانبها ثم همست لنفسها قائلة: يبدو أنه قد جن! لكن ما دافعه لتلك الفعلة الشنعاء؟ أيعقل أن يكون قد علم...

بترت تساؤلها ونهضت كالملدوغة، تمسك الأوراق التي كانت في غرفته. تقلبها سريعًا عليها تجد ما يؤكد تلك الفكرة في رأسها وهي أن عمر قد اكتشف شيئًا له علاقة بالماضي، لكن الأوراق كانت غير ذات قيمة فعلية لها.

تصفحتها بتأن عليها تجد ما يثير ربيتها. هناك تقارير طبية عديدة بتواريخ قريبة تحمل اسم عمها لكنها لم تفهم محتواها فأمسكت هاتفها تلتقط صورًا واضحة لتلك التقارير، تحتفظ بها عليها تعرف ما تحتويه فيما بعد. أنهت تصوير التقارير الطبية فوضعتها جانبًا ثم عادت تتصفح باقي الأوراق. هناك شهادة ميلاد لعمر الذي يصغرها بشهر واحد ووثيقة زواج مطبوعة لعمها وزوجته، لم تلتفت إليهما ووضعتهما جانبًا ثم عادت تنظر لبقية الأوراق. لم تلفت نظرها أية ورقة منها. خيل لها أنها كلها تخص عمل عمها لذا اكتفت بأن التقطت لها صورًا على هاتفها من باب الاحتياط ثم جمعتها استعدادًا لإعادتها إلى غرفة عمر كي لا تثير شكوكه.

نهضت ببطء تراقب ساعة يدها، تتأكد أن موعد عودته لم يحن ثم جمعت الأوراق ونظمتها سريعًا كي تخرج بها من الغرفة متسللة نحو غرفته. لم يصادفها أحدٌ لحسن الحظ. دلفت إلى الغرفة سريعًا ثم أغلقت الباب خلفها بحرص. سارت نحو الفراش، ترفع الحشية لتضع الأوراق تحتها كما كانت لكنها وجدت هناك مفاجأة أخرى، مفكرة صغيرة سوداء من القطيفة الفاخرة مخبئة أسفل الفراش. لم تقاوم فضولها فالتقطتها لتسقطها في جيب تنورتها ثم تعيد الحشية مكانها وتستدير لتهرب من الغرفة.

عادت تلهث لغرفتها بفعل التوتر، وتلتقط أنفاسها بينما تمسح قطرات العرق المتكونة على جبينها. أحكمت إغلاق

غرفتها من الداخل مرة أخرى فلا تريد مفاجآت من أي نوع أثناء تصفحها تلك المفكرة.

ارتمت جالسة على فراشها ثم فتحت الصفحة الأولى لتجد فيها كلمة واحدة بخط عريض "آسف!"

تطلعت نحوها بحيرة ثم قلبت الصفحة لتجد رسالة بخط عمها موجهة نحو جمانة.

«حب حياتي ورفيقة دربي، أعتذر عن الفوضى التي سأسببها في حياتك. لن تري رسالتي هذه إلا إن كنت ميتًا. ألتمس منك الغفران لما سيحدث وأعرف بأنك لن تشككي بدوافعي حتى وإن لم تفهمها فقد كان إرضائك دافعي دائمًا وأبدًا... سامحيني.»

تكورت ملامحها في دهشة، تحدد في الكلمات البسيطة تقرؤها مرة أخرى محركة شفتيها عليها تفهم محتواها. هناك شيء سيحدث ويعتذر عنه عمها، يا ترى ما هو ذلك الشيء؟ ولم ترك تلك الرسالة في حالة موته؟ هل هناك سر سينكشف بوفاته؟ كيف علم بأن وفاته قد اقتربت؟ هل كان مريضًا يحتضر؟

كلها أسئلة عقيمة دارت في عقلها الصاخب دون إجابات واضحة.

قلبت صفحات المفكرة لكنها كانت فارغة من الكلمات. مجرد ملاحظات بسيطة وأرقام لا تدري كنهها أو إلام تشير ثم في آخر صفحة من المفكرة هناك رسالة أكثر دفئًا يبيها حبه واشتياقه منذ الآن، وفي نهايتها وصية منه لجمانة كي تهتم لأمر ماسة وفيروز بعد وفاته لأنهما يخصانه.

لم يكن النهار قد مرّ حين جلس المعزون في الأسفل يستمعون إلى صوت القرآن المنبعث من السماعات الجدارية المدفونة في الحوائط الفخمة في بهو الفيلا حديثة التصميم باذخة الثراء، وقد جلست بينهم إيثار تتقبل التعازي بدلًا عن جمانة التي صعدت إلى غرفتها رأسًا لتستريح بعد عودتها من المستشفى.

كانت ماسة شبه مختبئة بين الحاضرين، تخشى أن تقابل عمر بعد أن أبقت المفكرة السوداء بحوزتها دون أن تعيدها لغرفته. لا تدري كيف سيكون ردّ فعله إن اكتشف اختفائها لكنها أملت أن يكون مرهفًا كفاية لينتبه إلى عدم وجودها. جلست بين الحضور بجسدها وعقلها يحاول أن يحل ذلك اللغز المستعصي عليها، فبين اكتشافها لحقيقة عمر المفجعة ومعرفتها بأن عمها ارتكب فعلة ما حمقاء بحق جمانة شردت، يا ترى ما الذي ارتكبه بحق زوجته؟ وهل لهذا الفعل علاقة بمقتله؟

تذكرت التقارير الطبية الخاصة بعمها والتي صورتها على هاتفها، ربما لن تفيدها بما تحتويه لكن ماسة الفضولية قررت ألا تدع أي ورقة تمر من تحت يدها دون أن تعرف محتواها، ويشمل هذا كل الأوراق الغريبة التي تحمل معاملات وأرقام تخص عمله. اتخذت قرارها بأن تمنح ثقتها لشخص يستطيع التصرف كي تعتمد عليه في سعيها خلف الحقيقة.

نهضت في صمت لتخرج من البهو وتدلف إلى الحمام في الدور السفلي اعتمادًا على كونه كبيرًا ولن يستطيع أحدهم سماعها إن تحدثت داخله في الهاتف. دلفت إلى الحمام ثم أغلقت الباب خلفها بإحكام، ابتعدت عنه إلى أقصى الركن المقابل ثم فتحت هاتفها وأجرت اتصالها الخاص بعد أن فتحت صنوبر الماء كإجراء احترازي ليغطي على صوتها كما تشاهد في الأفلام.

- مرحبًا سيد مالك، أنا ماسة.

أجابها بصوته المميز: نعم يا ماسة، عرفت صوتك.

تنحنحت ثم قالت بثبات لا يعكس حقيقة اضطرابها: هل تستطيع مساعدتي؟

صوته المتحير انبعث قائلاً: في ماذا؟

صمتت تستجمع أفكارها قبل أن تقول باندفاع: في بحثي
عن قاتل عمي.

قال بقلق: ماسة، ألم أخبرك أن تتركى ذلك الموضوع جانبًا
وتتوخى الحذر؟

عاودت الكلام بإصرار: لن أستطيع! كل المؤشرات تدفعني
للتعمق بالبحث خلف الأحداث التي وقعت، وصدقني لن أقف
مكتوفة اليدين بينما أعلم بأن هناك من فعلها بيديه القذرتين
ثم عاد ليحيا بيننا دون أن يطرف أو يؤنبه ضميره.

علم بأنه لن يستطيع إثراءها عن قرارها وبه أو دونه سوف
تكمل ما تفعله لذا وبدافع لا معلوم لعقله وجد نفسه مندفعًا
ليشاركها ما تفعله بطيب خاطر، وكأنه أراد تجنيبها الوقوع في
المصائب منفردة أو أراد حمايتها حين يتأزم الوضع وتحتاج من
يساندها ويؤازرها، لكنه رغم ذلك أصر أنه سوف يساعدها
بشرط أن تعطيه وعدها بالتوقف عن مساعيها في حال تأزمت
الأمر وخرجت عن السيطرة.

وافقت على مضمض لحاجتها إليه ولوجوده جوارها كي
يساعدها على الوصول لغايتها. حينها أخبرها بأنه يريد سماع ما
في جعبتها فرفضت طلبه سريعًا متعللة بوجود الناس في الفيلا،
ومؤكدة عليه بأنها ستذهب لمكتبه في الغد حرصًا على نيل
الخصوصية فيما ستحكيه له. في داخلها كانت تشعر بالرعب

مما ينتظرها إن علم أحدهم أنها تسعى خلفه، حينها يعلم الله وحده كيف ستكون نهايتها.

أنهت المكالمة مع مالك وهي تشعر بالدهشة من نفسها. لِمَ اختارت مالك لتشرکه في قضيتها؟ ربما كان من الأفضل لو تكلمت مع السيد أمجد فبحكم خبرته وسنوات عمله مع عمها يستطيع مساعدتها أكثر من مالك. سَبَت تهورها الذي دفعها للاتصال به لكن لم يخطر ببالها أبدًا أن تحدث سواه فقد كانت صدمتها بعمر تدفعها للخوف من وضع ثقتها بأي ممن يقيمون في الفيلا في الوقت الراهن.

توقفت أمام المغسلة، تبلل وجهها برفق وتفكر بما ستفعله. عجزت عن التفكير بالمنطق في الوقت الراهن فأغلقت صنوبر الماء واستدارت لتتناول المنشفة تجفف كي وجهها فسقط نظرها على أسفل الباب، حينها لمحتة.. ظِلٌّ واقف خلف الباب، يبدو أنه يتنصت على مكالمتها. ابتعد الظل حين توقف صوت الماء ولم يعد صوتها مسموعًا وكأنه علم بأنها ستخرج في أية لحظة.

توقفت ماسة محدقة برعب في الباب. شعرت أن رجليها كالهلام لا تقويان على حملها فتهاوت على الخزانة الصغيرة المخصصة للمناشف النظيفة قبل أن تسقط أرضًا. هناك بالفعل مؤامرة خبيثة تلتف حول الموجودين في الفيلا، وحياتهم جميعًا معرضة للخطر. هل كان صوتها واضحًا بأنها تتحدث في

الهاتف مع أحدهم داخل الحمام؟ لكن كيف وقد أدارت صنوبر الماء كإجراء احترازي عند دخولها لمحادثة مالك؟

يا للهول! هل علم القاتل بأنها تسعى خلفه وبات يتتبع خطواتها؟ أيقنت أنها في خطر كما أخبرها مالك لكنها اتخذت قرارها بأنها لن تخبره، فما زال الوقت مبكرًا لإيفائها بالوعد الذي قطعته له، وما لم يعلمه لن يضيره. رفعت رأسها بإصرار هامسة لنفسها بقوة:

حسنًا أيها القاتل! لن أتوقف حتى أسلمك إلى العدالة وستعرف من تكون ماسة محمود خطاب، فأنا لا أخشاك!

قالتها كي تبث الطمأنينة إلى قلبها المضطرب المتخبط بين الخوف والغضب ومشاعر اختزنتها منذ زمن حتى لم تعد تعرف لها تمييزًا ثم نهضت واتجهت نحو الباب بخطوات حاولت جعلها تبدو واثقة.

في الخارج لم يكن هناك أحد لكنها تعلم بأنها مراقبة بطريقة ما فرفعت رأسها وأخفت توترها وأظهرت القوة، قوة فتاة يتيمة علمتها الحياة أن تسعى إلى هدفها بعزيمة وإصرار.

صعدت ماسة الدرج باتجاه غرفة جمانة ولم تنس إلقاء نظرة على غرفة عمر لتتأكد بأنه لم يعد بعد. ربما ما زال مع المحامي في الخارج فقد أخبرتها جمانة بأنه ذهب لتسلم جثمان والده بعد

صدر تقرير الطبيب الشرعي النهائي، لكن ما إن دخلت غرفة جمانة حتى تفاجأت بوجوده في الداخل، يمسك يد جمانة المنهارة في بكاء عنيف بتعاطف. اقتربت منهما ماسة متسائلة بقلق عن سبب بكاء جمانة فازداد نحيبها بصوت يمزق نياط القلب ولم تجبها، نظرت نحو عمر متسائلة فهز رأسه بإشارة مبهمه وبدا لماسة آثار دموعه متحجرة في عينيه. عقدت حاجبها بفهم لتهمس من بين شفتيها بصوت خافت:

متى عدت؟ هل خرج جثمان عمي؟

هز رأسه مؤمناً فأمالت رأسها بتأثر لتقترب من جمانة، تحتضنها مواسية وتحاول أن تتماسك فلا تبكي أيضاً. شعورها بالوحدة تفاقم وتعاضم حتى لكأنها تقف على أرض خالية وحيدة وحولها الخراب في كل مكان لكن الخراب كان داخلها هي! مدينتها تحطمت وأسوارها أُزيلت ولم يعد فيها موضع قدم. والدها رحل وها هو عمها في إثره ولا تملك إلا صلات القرابة البعيدة لعائلة والدها. أما خالها الوحيد فمهاجر خارج البلاد لا يأتي إلا كل عدة أعوام.

وعمر.. تطلعت نحوه خفية بطرف عينيها فوجدته يرسم التأثر على وجهه. غضبت بشدة لأنه يجيد التمثيل بحق، فكيف تتجمع تلك الدموع الصامتة في مقلتيه والتي يمسحها كل حين بكف يديه؟ يقف ساهماً شاردًا في اللا شيء وكأنه يستعيد ذكرى مشهد ما.

شدت احتضانها لجمانة هامسة بصوت خافت في أذنها: هو في دار أفضل من داره الآن، ادعي له بالرحمة والمغفرة.

انتحبت جمانة بصوت متقطع:

لا أتحمل فكرة رحيله وحسب! مراد حبيبي وزوجي وأبي، أشعر باليتم بعد أن رحل.

قالت ماسة بصوت مثقل بالحزن: أعرف ذلك الإحساس حق المعرفة! لا تخبريني عنه فأنا لم أذوق سواه طوال العمر.

تطلع نحوها عمر بصمت فالتقت نظراتهما. نظراته نحوها حملت المواساة والتعاطف وشيئا آخر لم تعرف فحواه، كان وكأنه اعتذار صامت خفي لها. علام يعتذر؟ أخيراً أشاحت بوجهها نحو جمانة وهي تشعر بالقلق والضيق، ضيق مبهم غزا قلبها فجأة فانقبضت معدتها وتقلصت. نهضت فجأة قائلة بتوتر: عمر، اتبعني من فضلك.

تطلع نحوها بتساؤل فأشارت برأسها نحو جمانة لتنبهه أنها لا تريد التحدث أمامها، حينها نهض يتبعها بخطوات قلقة. خرجت ماسة من الغرفة يتبعها عمر الذي قال ما إن خرجا: ماذا حدث؟

نظرت نحوه بتمعن تريد أن تستشف أي شيء في ملامحه يوحي بالشعور بالذنب أو التظاهر، لكنها لم تر سوى القلق يعصف به فقالت بتحفظ خرج رغماً عنها لشكوكها به:

أين جثمان عمي؟ هل خرج من المشرحة؟

سأل بحيرة: ما بك؟ تبدين مختلفة.

أجابت وقد لمعت عيناها بتصميم: لأني ما زلت أرى موت عمي أمام عيني وجثته التي لم تبارح خيالي رغم أنني لم أرها فعليًا، هل تظن موته بالأمر الهين علي؟ لقد فقدت أبي يا عمر ثم عمي دون أن أحول عنهما الموت، لكن هنا الوضع يختلف، فعمي له حق وسأسترده. هل تعلم معنى كلامي؟ سأسترده يا عمر ولو كان من على جثة قاتله. والآن، أين جثمانه؟ أريد وداعه وداعًا أخيرًا.

خفض عيني بهتًا وتحدث فخرج صوته مهتزًا: إنه في طريقه إلى المقابر حيث سيصلى عليه ثم يدفن، لقد حضرت لمساندة أمي حتى تستعد للذهاب واللاحق بالجنائز.

ازدادت لمعة عينيها وغالبت غصة عالقة بحلقها قبل أن تقول: سأذهب لأستعد أيضًا.

ثم استدارت على عجلة لتعود إلى غرفتها قبل أن تفقد تماسكها وتبدأ بالبكاء. وصلت الغرفة فتوقفت خلف الباب بعد أن أغلقته من الداخل. تشعر بالوجع والرغبة، رهبة تجعلها تريد أن تختبئ كطفل صغير وتبكي بسبب إحساس الفقدان والوحدة الذي ما إن يُهَيَأ لها أنها قد تخلصت منه حتى يعود ليهاجمها بقسوة، وكأنه يستكثر عليها راحة البال. جلست على

طرف فراشها تحديق في أرض الغرفة بجمود. كل ما يجول
بخاطرها ذكرى جثمانه الذي لم تره ولم تودعه. كيف يخرج عمها
حبيبها دون وداع؟

اختلطت المشاهد بذاكرتها فخلطت بين جثمان عمها
وجثمان أبيها. أغمضت عينيها تتخيل وداعها لأبيها منذ عامين
وكانه وداع لعمها الآن، وكأنها لعنة ابتليت بها عائلة خطاب
فصار لزامًا على أبنائها أن يموتوا وتبلى أجسادهم، تاركين
خلفهم أفئدة نازفة وسلامًا زائلًا. قرأت سورة الفاتحة بشفاه
راجفة وحين انتهت نهضت لتخرج من الغرفة بخطوات مرتجفة
وكانها ذاهبة إلى حافة الهاوية، حيث يسقط كل من تحب بلا
عودة أو لقاء.

دلفت إلى غرفة إيثار وهي غرفة نوم الضيوف الإضافية،
تبحث عن فيروز المختفية تريد أن تؤازرها قبل الذهاب
للمدافن. وجدتها تستلقي على الفراش في صمت، تحديق في
سقف الغرفة وما إن رأت ماسة حتى هبت من الفراش تخبرها
بارتجاف أنها خائفة. اقتربت منها ماسة بهدوء ظاهري لا يظهر
حقيقة ما تخبئه متسائلة عن سبب خوفها فلم تجد فيروز ما
تقوله سوى خوفها المبهم من تجربة الموت المحيطة بها للمرة
الثانية في حياتها، وكان موت عمها هو تكرار بغيض لموت والدها
منذ عامين، لكن ماسة اعترضت فظروف الميتين لا تتشابهان
أبدًا. لقد مات والدهما على فراشه واستطاعا احتضانه ووداعه

قبل أن يذهب جثمانه تحت الثرى، أما الوضع هنا فيختلف كلياً وسيذهب عمهما مباشرة من المشرحة إلى المدافن دون احتضان أو قبلة وداع.

كلامها أحزن فيروز للغاية وجعل الدموع تتدفق من عينيها دون هوادة أو ترفق حتى أشفقت عليها فاحتضنتها وأخبرتها بأن تتعجل بارتداء ملابسها حتى يستطيعا اللحاق بالجنائز وقراءة الفاتحة لعمهما قبل لحظة الوداع الأخيرة.

ذهبتا لتبديل فيروز ملابسها ومن بين نحيبها المكتوم همست بخوف: هناك يدًا خبيثة لا يمكننا أن نوقفها وكأنها ماردرج من عقاله وسيقتل الجميع كما قُتل عمي.

تطلعت نحوها ماسة بدهشة وسألت: ولم سيقتل الجميع؟ الموضوع مجرد حادث سرقة. (مالت نحوها بلهجة مطمئنة) واطمئني، ليس لدينا ما يُسرق فقد تكفلت العزيزة والدتك بتبديد كل ثروة والدنا.

رمقتها فيروز بنظرة غريبة محملة بالشعور بالذنب، لكن ماسة ظننتها نظرة عتاب فلوحت بيدها قائلة بحنق: أعرف! لا تحبين انتقادي لها لكنني أذكر الحقيقة، أليس هذا ما حدث؟

قالت فيروز بحزن وفي داخلها تتخبط بتأنيب مستعر يجعلها لا تستطيع التحكم برجفة يديها:

لا أستطيع الجزم بهذا يا ماسة! والدي بالفعل لم يترك خلفه شيئاً سوى الجزء المكتوب باسمك من المنزل كميراث من والدتك، حتى أنا لم أأكل شيئاً بعد وفاته لكن أُمِّي تصر بأن والدي تنازل عن كل أملاكه لأجلها.

مطت ماسة شفيتها قائلة بلهجة معترضة ساخرة: لأجلها؟ هل تظنين أنني بلهاء كي أصدق هذه الخزعبلات؟ والدي رحمه الله ما كان ليظلم أياً منا بهذا الشكل الفج.

تألّمت فيروز: ليتني أعلم أي شيء، أنا لا أعلم ما هي الحقيقة أبداً.

تكلّمت ماسة بلهجة مريّة: أنا أعلم! بعد وفاته صُدمتُ بعدم وجود ما يورث رغم أنني كنت أحياناً أساعده في إدارة أمور العمل وأعلم حجم أملاكه، وهذا ما أصابني بالدهشة والحيرة.

ثم مالت نحو فيروز قائلة بلهجة شرسة أثارت الخوف في أوصالها رغماً عنها:

وعندما تقصيت الأمر وجدت تنازلاً مثبتاً في المحكمة من والدي لكل أملاكه للسيدة إيثار الشاهد، الحرم المصون لوالدي العزيز.

تراجعت فيروز بخوف وسألت: في ظنك كيف حدث هذا؟

أجابت ماسة بلهجة واثقة: لا أدري يا فيروز! الحرباء والدتك تملك عقوداً صحيحة بالبيع من والدي لها. لم أبحث خلف ذلك الموضوع كثيراً، أثرت الصمت لأجلك وكذلك فعل عمي مراد، فلم نرِد لك أن تصبّحي يتيمة الأم مثلي. (مالت ساخرة لتقول) بالرغم من يقيني أنك تعيشين دور اليتيمة منذ ولادتك.

عقدت فيروز حاجبها بانكسار قائلة: ماسة، لا تحمّليني أكثر من طاقتي!

لوحّت ماسة بذراعها في تبرم ساخر قائلة: لأجلك فقط سأخرس كما اعتدت أن أفعل. لا أحب رؤيتك تعانين فيكفي أن تحمل إحدانا المعاناة وقد اعتدتها أنا.

تنهدت فيروز في يأس فهي تعلم مدى سوء علاقة والدتها بماسة. كبرت على مرأى ماسة تعاقب لأنفه الأسباب ودون رادع عقاباً قهرياً، بدءاً بإذلالها ومناداتها بوجه الجثة نهاية بسبابها بكل أسماء الحيوانات وتذوقها كل أنواع الحرمان العاطفي والجسدي.

بادئ الأمر لم تكن تفهم سر تلك المعاملة، لكنها ذات مرة حينما كانت ماسة بعمر الثانية عشرة عوقبت بالحبس الانفرادي في غرفة المؤونة، وأوصدت إيثار الباب بالمفتاح لأن ماسة كانت قد بدأت أولى ثورات مراهقتها المتمردة على إيثار رافضة منها المعاملة المجحفة. بعد مرور ساعة وجدت ماسة

أن الباب يفتح فاستعدت للتبجح أمام إيثار مرة أخرى بأنها لن تخاف منها لكن فيروز التي تصغرها بثلاثة أعوام كانت الفاعلة.

تطلعت نحوها بقلق متسائلة عن مكان إيثار فأخبرتها الصغيرة بأنها خرجت للتسوق فسرقت مفتاح الغرفة لتفتحها لها. حينها علمت ماسة أن فيروز سوف تنال من العقاب ما لن ترضاه لها فسخرت باستهزاء: سوف تحبسين بجواري أنت أيضاً يا صغيرة. لا تظهرني تعاطفك معي أبداً! إنها معركتي وحدي.

قالت فيروز بحيرة: لا أدري لم تعاقبك أمي هكذا لأتفه الأسباب؟

مالت نحوها ماسة ساخرة بطريقة المراهقة المتمردة: ربما لأنها ليست أمي!

سألته فيروز وعيناها البريئتان ترمشان: كيف ذلك؟

اقتربت منها لتدفعها برفق قائلة بعبث ساخر: إنه لغز يا فيروز، هيا حببتي اخرجي وأغلقني الباب عليّ من الخارج كما كان وادخلي غرفتك لتفكري في حل له.

لكن فيروز أصرت قائلة برفض: لن أخرج من هنا حتى تخرجي معي! لن أترك تلك التي ليست أمنا لتعاقبك هكذا طوال اليوم.

انفجرت ماسة بالضحك قائلة بتحذير: إنها ليست أمي أنا فقط. إياك أن تخبريها بشيء كهذا!

ردت فيروز بحيرة طفلة يستعصي عليها الإدراك: إن كانت ليست أمك فهي ليست أمي، وسأظل معك هنا حتى تعلم بأننا أختان لن يفرقنا شيء. أنا لا أحب رؤيتك تعاقبين.

ونفذت تهديدها فكانت أن حلت ضيفة على زنزانة ماسة، تتسامران حتى قررت إثارة إنهاء حبسهما لقرب وصول والدهما. منذ ذلك اليوم ازدادت أواصر الترابط بينهما حتى باتت ماسة تضم فيروز تحت جناحها كما لو كانت أمها.

جلست ماسة على الفراش تتابع فيروز الشاردة أثناء استعدادها للذهاب قبل أن تطمئننها بإرهاق:

لا تفكري بالأمر. واثقة بأن الحقوق مكفولة عند الله ولن تضيع أبدًا.

قالت فيروز بخوف: لكن أنت يا ماسة لك حقوق كثيرة، أنا أخشى عليك من أمي كثيرًا.

تنهدت ماسة ثم قالت برضا: ولأن لي حقوق يا فيروزي فأنا واثقة بأنها ستعود لي يومًا، ثم أن أمك لن تستطيع أن تؤثر بي ولو بعد مليون عام؛ فأنا صلبة كما تعلمين.

وكان هذا آخر ما تبادلته مع فيروز التي ظلت صامتة واجمة كأنها تدير الكلام في مخيلتها لكن ماسة أخرجتها من دائرة صمتها قائلة باستعجال: هيا كي لا تتأخر عن الذهاب للمدافن.

خرجت الفتاتان لتلحقا بالركب المتجه نحو المقابر، وفي الطريق شردت ماسة في الفراغ وقد استحضرت صورًا عديدة لوالدها وعمها الراحلين. همست بشوق غامر ودمعة يتيمة تطرق أهدابها منذرة بالهبوط على خدها: لقد اشتقت إليكما، صدقًا أنا يتيمة دونكما في هذا العالم.

قالتها دون أن تدري بأن إحساس اليتيم الذي يكتنفها أصبح ضيفًا ثقيلًا للأبد.

الفصل السابع... ذكريات.

غفت ماسة لنصف ساعة أو على وجه الدقة سقطت في غيبوبة من شدة إرهاقها بعد عودتهم من دفن جثمان عمها قبل أن تستيقظ على صوت نحيب فيروز. هبت من الفراش منتفضة تغالب متاهات عقلها لتسألها بخوف عما حدث، لكن بدا لها أن فيروز تعاني انهيارًا حادًا ولا تستطيع أن تتحدث بما تفهم. كانت تتكلم من بين نحيبها تخبرها عن انهيار جمانة منذ قليل وعن معاناة عمر واحتياجه للمواساة وكأنها ولية أمره مما دفع ماسة لاحتضانها بقوة طالبة منها الصمت والاستكانة، فقد أقلقها الانهيار العنيف الذي تعانیه وتخطبها الواضح في نظرات عينيهما الزائغة وارتجاف جسدها كله وكأنها مبللة تعرضت لنوبة برد عاصفة لا يحتملها جسدها، وهاتان الكلمتان الغامضتان اللتان ما فتأت ترددهما وكأنهما تعويذتان تستجلب بهما مزيدًا من النحيب والارتجاف، كلمتا «عمي وخطئي».

صوت نحيبها بدأ بالخفوت لكتمانها إياه بصدر ماسة حتى استكانت وارتخى جسدها فظنتها ماسة قد نامت، ورغم ذلك لم تجرؤ على إبعادها تاركة إياها في حضنها تبثها السكينة والطمأنينة التي تحتاجها كلتاهما، لكن صوت فيروز الخافت تسلل إلى أسماعها قائلة ببؤس وكأنها تجتر ذكريات اختزنتها لوقت حاجة: يحزنني أن والدي ليلة وفاته قد زارني وكأنه يعرف بأنه سيرحل، ومع ذلك لم أفهم إشارات.

تصلب جسد ماسة لتسأل لفيروز بتعجب: هل زارك أيّضاً؟

رفعت فيروز رأسها عن صدر ماسة حيث كانت تختبئ تتطلع إلى عينيها المتسعيتين بتوتر قائلة بتأثر: زارني وطلب مني السماح إن كان مقصراً في حقي وبأنه آسف على ظلمي لكنه ليس أسفاً على وجودي.

سألت ماسة بتحير عن معنى هذا الكلام فتكلمت فيروز بحيرة تضاهي حيرتها مخبرة إياها بأنها لم تفهم معنى كلامه وأنها سألته فأخبرها بغموض أن الأيام القادمة ستخبرها بما لا تفهمه، فقط عليها أن تسامحه حين تفهم.

ظلت ماسة تحدق في الفراغ كتمثال حجري وقد تذكرت ليلة وفاة والدها...

كان قد عاد بعد موعد صلاة العشاء بقليل. لم تره ماسة لأنها دخلت غرفتها للاستذكار ثم استلقت بعدها على فراشها تقرأ كتاباً ما، لا تتذكره الآن. كل ما تذكرته أن بابها طُرق ثم أطل وجه والدها الحزين من خلفه متسائلاً: هل أنت مستيقظة حبيبتي؟

ما إن رآته حتى اعتدلت قائلة بحبور: مرحباً والدي الحبيب، أي رياح طيبة أَلقت بك نحو غرفتي؟

اتجه والدها نحو فراشها بخطى بطيئة متعبة ليجلس بجوارها، يتطلع نحو ملامحها بطريقة غريبة فسألته بقلق: أبي، هل أنت بخير؟

قال بهدوء وحزن غريب يقطر من صوته: ماسة، هل أنت سعيدة؟

أجابت بغمغمة خافتة: هل أنت بخير؟ ما بك؟

أعاد سؤاله بإلحاح وكأن إجابتها تهمة بطريقة ما فتنهدت لتقول بحذر: نعم أبي أنا سعيدة، ولم لا أكون؟

سأل بحذر: هل أنت غاضبة مني لأنني تزوجت بعد وفاة أمك؟

هزت رأسها سلْبًا لتقول بينما تبتلع غصة عالقة بحلقها: أبدًا يا أبي. لم أكن أعرف أمي بأية حال، ولن ألومك على اختيار إيثار، فأنا أعلم كم هي فاتنة وساحرة وتخلب اللب بطريقتها، فأنا أنخدع أحيانًا بطريقتها الجميلة في معاملتي أمام الناس في الخارج.

هزّ محمود رأسه بسخرية بينما يستوعب الحقيقة المرة في كلام ابنته لأول مرة، لقد كانت على حق؛ فإيثار ذات الجمال الجذاب والتفكير المتفرد كانت لتخدع العرافين أيضًا، فكيف لرجل ليس له خبرة في نوعيات النساء أن يكتشفها؟ أخرجه من تفكيره سؤال ماسة: هل كانت رائعة؟

تطلع نحوها بحيرة ثم سأل بحذر: من تقصدين؟

قالت بصوت متقطع: أمي الحقيقية، هل كانت رائعة؟

تطلع نحوها بشفقة ثم لمعت عيناه ليقول بمحبة خالصة:
كانت بمثل جمالك، بيضاء بعينين بنيتين وشعر بني ذهبي
طويل، كأنها القشدة بالعسل.

ضحكت ماسة قائلة: إذا أنت محظوظ بالنساء اللاتي
تتزوجهن، فكل منهما لها جمالها الفتان.

أكمل بحزن: إلا أن أمك كانت طيبة بحق يا ماسة. أسرتني
ببراءتها ونقاء شخصيتها، ظلت هكذا طوال عامي زواجنا حتى
قدر الله أن تصعد روحها إليه.

قالت ماسة تواسيه ولا تدري أكانت تواسي نفسها معه: لا
تحزن يا والدي، ربما اختار لها الله أن تفارقنا لأنه يؤهلنا لتحمل
قسوة الحياة. (تبسمت لتقول بلهجة ساخرة) صدقني، زواجك
بأخرى كان له فوائد جمة في تكيفي مع الواقع. تعلمت أن الحياة
لا تسير باتجاه واحد بل هناك طرق مختلفة عليك تجربتها
جميعاً حتى تنجح في الاختبار.

تطلع نحوها بقلق قبل أن يقول لها فجأة: ماسة، هل
تسامحيني يا ابنتي؟

عادت للقلق مرة أخرى فقالت: علام أسامحك يا أبي؟ أنت
تقلقني!

مال نحوها يحتضنها بقوة وكأنه يواسيها على سنوات
طفولتها المريرة مردداً: أنا آسف يا ماسة، آسف للغاية! سأصلح

كل ما ارتكبته في حقك، أعدك بأنني سأفعل ما دام في صدري
نفس يتردد.

قالها ثم نهض يحث الخطى خارجًا لا يدري بأن نبوءته
ستتحقق، فلن يبقى بصدرة نفس لينفذ وعده لها أبدًا.

انتفضت على همس فيروز لها، تخرجها من شرودها: لقد كان
شجاره مع أمي هو السبب.

سألت ماسة بعدم تركيز: ماذا؟

أكملت فيروز التي كانت تسبح في عالم ذكرياتها الخاص
وكانها تحاول فهم ما حدث:

لقد تشاجرا تلك الليلة وكان أبي غاضبًا للغاية. لقد سمعته
يعنف أمي ثم خرجت من غرفته وشفقت الباب خلفها بعنف
لتخرج من المنزل مباشرة.

سألت ماسة وقد تنبعت كل حواسها: هل تعلمين لم
تشاجرا؟ هل كنت موجودة معهما؟

هزت فيروز رأسها سلبيًا ثم أكملت مفسرة: أنت تعلمين أن
غرفتي قريبة من غرفتهما، كنت في طريقي إلى المطبخ حين
رأيت وجه أبي وهو يدخل الغرفة ثم يغلق بابها خلفه. اتابني
القلق من شكله وهو يمسك ذراع أمي ويجرها خلفه فاقتربت
من غرفتهما أحاول الاطمئنان بأنهما سيكونان بخير. لم أنتبه

لفحوى كلامهما إذ كانا يتحدثان بصوت منخفض لكن صوت أبي كان يرتفع أحيانًا بكلام غاضب تتخلله بضع كلمات عن الثقة وخياتها له. قررت الانسحاب فلم أحب التنصت عليهما ودخلت المطبخ كي أشرب، حينها اندفعت أمي من الغرفة لتخرج بعنف فخفت أن ألحقها فتصب غضبها على رأسي لذا عدت سريعًا إلى غرفتي. بعد مرور بعض الوقت حضر أبي ليحدثني.

عادت عيناها لتغرورقا بالدموع مرة أخرى، متممة بإقرار: كان يعلم بأن قلبه سيتوقف من الحزن تلك الليلة فأتى لوداعنا. لقد مات من الحزن يا ماسة. سلبت أمي منه حياته بشجارها معه.

انتقلت ماسة إلى ذكريات موت والدها مرة أخرى. الصدمة التي تبعت خبر موته، انهيارها وفقدانها الوعي ثم فقدان الشهية الذي تبع وفاته لعدة أشهر، وتأتي فيروز لتذكرها بأن قلبه توقف من الحزن جراء شجاره مع إيثار. هل تستطيع أن ترفع قضية ضدها تتهمها بأنها السبب في موت والدها؟ تسأل ساخر دار في رأسها؛ فلن تجد قاضيًا يتمتع بقواه العقلية كاملة أو حتى نصفها ليقبل مثل تلك القضية، بل وربما انتهى الأمر بها مشكوكًا بقواه العقلية أو وضعها في مصحة.

أمسكت كف فيروز بغرض التخفيف عنها كعادتها دائمًا: لا يا فيروز، والدنا توفي لأن أجله انتهى كما هو مقدر له وإلا إن صح كلامك فسيموت نصف سكان العالم من القهر. خذيني أنا

عندك كمثال، لقد تبلدت مشاعري ولم أعد أتأثر بشجار أحد معي.

قالتها لتضحك ضحكة جوفاء لا معنى لها وكأنها تحاول أن تقنع نفسها قبل أختها، فلم تكن ماسة متبلدة المشاعر أبدًا بل كانت فتاة حساسة تحاول التظاهر بالصلابة وقوة التحمل، تخفي دموعها ومشاعرها خلف قناع سميكة من اللامبالاة والقوة. كانت حرب القوة بينها وبين إيثار هي ما دفعتها لسلوك ذلك المسلك، إيثار الشاهد تستلذ بأكل العظام اللينة وكان على ماسة أن تكبر سريعًا لتستطيع المقاومة والمواجهة، هكذا علمها مراد.

أخيرًا نهضت ماسة من الفراش تسحب فيروز خلفها قائلة بهدوء: لنتماسك ونذهب لنمنح الدعم لجمانة وعمر فهما أولى بالمساندة، أليس كذلك؟

هزت فيروز رأسها وأخذت تكفكف دموعها في صمت وسارت خلف ماسة وكأنها مغلوبة على أمرها.

دخلتا غرفة جمانة فوجدتاها تستلقي على فراشها ويجلس عمر على المقعد المجاور يقرأ لها بضع آيات من القرآن ويجوارها إيثار تجلس على مقعد آخر متصنعة التأثر كما كانت تراها ماسة. ما إن رأتها تتأبط ذراع فيروز حتى رفعت عينيها تنظر لماسة بنظرة قرأت فيها الحنق والغضب، لكن ما إن

نطقت حتى قالت بصوت مهتز متأثر فاتحة ذراعيها بطريقة
درامية حنونة: تعالي يا فيروز واجلسي بجواري.

تركت فيروز يد ماسة بتردد وسارت نحو والدتها وكأنها
تخشى أن ترفض دعوتها تلك لسبب ما. جلست على مقعدها
متوترة لكن إيثار مالت تجذبها لأحضانها بعاطفة أمومة غير
مسبوقةٍ منها فارتمت في أحضانها تذرِف الدموع في صمت.
سحبت ماسة مقعداً لتجاوز عمر الذي توقف عن القراءة، يرفع
نظره نحو ماسة وكأنه يستمد الدعم منها.

قالت ماسة بصوت خافت متأثر: سأكمل أنا قراءة القرآن
مكانك، عليك الذهاب للراحة ولا تقلق فخالتي جمانة ستكون
بخير.

كانت جمانة مستلقية شبه غافية ففهمت ماسة أنها تحت
تأثير المهدئات إثر نوبة الانهيار العصبي التي زارتها. اختلج
صوت عمر وبدا أنه بالكاد يستطيع التحكم بنفسه مانعاً إياها
من البكاء. نهض مستجيباً لدعوة ماسة له بالراحة وكأنه كان
ينتظرها. رمقها بامتنان قبل أن يغادر الغرفة فجلست مكانه
بجوار الفراش تقرأ القرآن في سكون حتى قاطعها صوت إيثار
الساخر:

ألن تبكي رحيل عمك يا ماسة؟ فقد كان خير سند لك
وكنتما تتشاركان الأسرار. أم أنك لا تعرفين ما يخفيه من أسرار
عنك؟

تجهمت ملامح وجهها لكنها لم تهتم بالرد عليها أو إظهار أنها
استمعت لما تقول رغم احتراقها بالفضول لمعرفة عم تتكلم
إيثار، فقالت فيروز الساكنة في أحضان والدتها:

لقد رحل عمي يا أمي، أظهري بعض الرحمة لأجله ولأجل
ماسة.

نهرتها والدتها بغلظة: وما دخلك أنت؟ هل تركت دراسة
الصيدلة وقررت أن تكوني محامية؟

التزمت فيروز الصمت تشعر بالوجل من طريقة والدتها
بالسخرية من ماسة، لكن ماسة الصامتة رفعت عينيها أخيرًا
لتقول لفيروز:

هيا يا فيروز عودي لتنامي في غرفتنا وسأتبعك بعد قليل ما
إن اطمئن أن جمانه أصبحت بخير.

هزت فيروز رأسها باستجابة ثم نهضت لتخرج من الغرفة
لكن إيثار نهرتها: هل تستمتعين بكونك منعدمة الشخصية؟ لا
تسمحي لأحد أن يتحكم بك وسوف تنامين في غرفتي الليلة.

توقفت فيروز تتطلع نحوها برهبة بينما ظلت ماسة تنظر لها
ببرود ثم وجهت الكلام نحو فيروز:

ليس تحكّمًا بك يا حبيبتي، إن أردت البقاء فلا يوجد ما
يمنعك.

قالت فيروز بهدوء: سأذهب للغرفة يا ماسة، تصبحين على خير يا أمي.

استدارت لتخرج من الغرفة بصمت فقالت إيثار بحنق: أنت تتحكمين بها كما يحلو لك. ألا تخجلين من نفسك وأنت لتستغلينها هكذا لإيلامي.

قالت ماسة بهدوء ساخر: إنها ليست لعبة لأتحكم بها. إنها علاقة أخوية مبنية على الحب. هل سمعت عنه من قبل؟ لا أظن!

ثم نهضت لتقترب من جمانة المستلقية باستكانة فنظرت لوجهها مليًا قبل أن تنظر نحو إيثار متسائلة في تصميم: هل ستبیتين معها أم أبيت أنا بجوارها؟

تطلعت نحوها إيثار بتحد قبل أن تقول باستهزاء: تحاولين إحراجي وإظهارني بمظهر الجاحدة أليس كذلك؟

استدارت ماسة في هدوء قائلة: إنها لك، اهتمي بها وأظهري بعض التعاطف حتى ولو من وراء قلبك، تصبحين على خير يا إيثار.

قالتها مشددة على نطقها لاسم أرملة والدها بطريقة مستفزة وكأنها لا تقصد معنى جملتها الأخيرة حرفيًا «أن تصبح على خير.»

ما إن عادت لغرفتها حتى وجدت فيروز مستلقية على بطنها دافئة رأسها تحت الوسادة. اقتربت بقلق متسائلة عما بها فأتاها صوتها مكتومًا يدل على اختناقها بالدموع التي تحاول كتمها في مآقيها أنها بخير ولكنها لا تستطيع النوم. فهمت ماسة معاناتها فقلبتها لتتطلع إلى وجهها الغارق بالدموع قائلة بتأنيب: والآن ما الذي يبكيك؟

أجابت فيروز بحزن طاغي: لم أعد أتحمل ما يحدث! سأمت يا ماسة، صدقًا سأمت.

قالت ماسة باستفهام مؤنب: وما الذي حدث الآن؟ كل الأمور بخير، لا تهتمي بما تفعله إيثار معنا فأنا لم أعد أهتم.

لكن فيروز المنتحبة أقلقت ماسة بشدة، سألتها بإلحاح: أخبريني يا فيروز ما بك، أنت تبدين يائسة بشكل غير معتاد!

عادت فيروز لتدفن وجهها في الوسادة مرة أخرى هامسة بنحيب: لا أستطيع التحمل! أنا لست قوية مثلك يا ماسة.

رددت ماسة خلفها: أنت قوية يا فيروز. لا يوجد ما يدعو للانهازم بهذا الشكل. كل عقدة ولها حل، حبيبتي صدقيني.

قالت فيروز بطريقة عابرة من بين دموعها التي ما زالت تهطل وكأنها تسعى لتغيير الحوار:

تعجبني طريقتك الجديدة بمعاملة إيثار، أشعر أنها أفضل
عن ذي قبل.

هزت ماسة كتفيها قائلة بسأم: لقد مللت شجارها الدائم
وأحاول أن أتفاداه.

صمتت الفتاتان قليلاً قبل أن تهمس فيروز بحزن: تصبحين
على خير، سأنام الآن.

أدارات ظهرها لماسة التي غرقت في الصمت بدورها وكأن
طاقتها قد نضبت وتحتاج لإعادة الشحن.

في الصباح الباكر نهضت ماسة من الفراش مترنحةً فنومها
القلق لم يكفِ حاجة جسدها للراحة وكانت تعاني الأرق بطريقة
مجحفة لجسدها وعقلها. بعد ليلة سوداء قضاهها الجميع في
البكاء بعد تشييع جثمان مراد ليدفن في مدافن العائلة، شعرت
ماسة بأنها هائمة وروحها تهفو لترحل خلفه حيث يوجد والدها
ومن قبله والدتها، بالأدق حيث يوجد كل أحبائها.

نظرت للساعة فوجدتها قرابة الساعة والنصف. تعرف أن
الموعد ما زال مبكراً للذهاب لمكتب المحامي أمجد حيث
موعداها مع مساعده مالك، أثرت أن تتأخر قليلاً كي لا تهيم على
وجهها في الشارع كثيراً وخاصة أنها تفتقد التركيز السليم في هذا
الوقت نظراً لتلاحق الأحداث وتواليها.

اتجهت بخطيٍ مترددة نحو غرفة جمانة بغية الاطمئنان عليها وهي تأمل ألا ترى إيثار الآن، ما إن اقتربت من غرفة جمانة حتى لمحت باب غرفة عمها المجاور مفتوحا جزئيا فانقبض قلبها وفزعت. همست لنفسها: لا، ليس مرة أخرى!

أطلت برأسها بحذر فوجدت جمانة مستلقية على الفراش في صمت. فتحت الباب لتدخل بخفة وسألت بقلق: خالتي جمانة، ماذا تفعلين هنا؟

فتحت جمانة عينيها قائلة بابتسامة حلوة: لقد زارني مراد.

ظلت ماسة تنظر نحوها بقلق لكن جمانة استكملت كلامها وقد اتسعت ابتسامتها الحالمة: زارني وظل معي طوال الليلة يواسيني عن رحيله المفاجئ وأخبرني بأنه كان سيخبرني بموعد رحيله لكن الوقت سرقه.

ثم رفعت بصرها نحو ماسة المحدقة بها في صمت لتقول بتأكيد:

صدقيني يا ماسة إن أحلامي لا تكذب أبداً، أنا تأكدت من ذلك عدة مرات من قبل.

مدت يدها لتمسك كفي ماسة بين راحتها قائلة: لقد كان يمسك يدي هكذا وهو يتطلع في عيني ليخبرني بأن أكون قوية وأن أسامحه على كل شيء.

صمتت ثم عادت لتستطرد بهيام: لا يدري بأنني أبدًا لم أغضب عليه حتى في أوقات غضبي على الأشياء التافهة التي كانت تحدث بيننا. دائمًا وأبدًا كان قلبي يهفو إليه، فكيف أغضب عليه بعد رحيله؟!

ظلت ماسة تتطلع لها بصمت وداخلها يهتز بعنف، إذًا ما هو مدون في المفكرة حقيقي! عمها ما زالت روحه تبحث عن الغفران، الغفران لأي شيء؟ هذا ما كان يطن في عقلها كنحلة تحوم حول خليتها لكنها تقنعت بالهدوء قائلة: رحمه الله يا خالتي، لكن ألا تعلمين لماذا يطلب منك الغفران؟

قالت جمانة بأسى: لا أملك فكرة عما يريد، لكن صدقيني لا شيء يستحق الغضب بعد رحيل من تحبين، أشعر بأني لم أعد أهتم سوى بذلك الفراغ الذي تركه رحيله في حياتي وكيف سيمكنني تجاوزه، فالوضع برمته يبدو مستحيلًا وضررًا من الخيال.

ربت ماسة على كفتها بين يديها لتقول بمحبة: نحن حولك يا خالتي، ستجدين منا كل الدعم الذي تحتاجين. خذي وقتك واحزني كما تشائين حتى تجدي طريقة تتخطين بها وجع الحنين.

تطلعت جمانة نحو ماسة بحب قائلة: أنت يا ماسة نسخة عن والدتك الراحلة. روحك حلوة وتنشرين البهجة حولك.

(عادت لتغمض عينيها قائلة بحزن) وها قد رحل كل من نحب!
عسى أن يكتب الله لنا لقاءً في الجنة.

أمنت ماسة على كلامها ثم استأذنتها لتخرج بعض الوقت فسمحت لها جمانة باستخدام سيارتها مخبرة إياها بالألا تنتظر عمر فحالته تبدو مقلقة. شكرتها ماسة ثم عادت لغرفتها كي تبدل ملابسها استعداداً للذهاب. تعلم بأن الوقت ما زال مبكراً لكنها لا تطيق أن تظل كل هذا الوقت في الفيلا، تنتظر موعد نزولها.

وجدت فيروز نائمة. تعلم بأنها ظلت تتقلب لوقت طويل في الفراش يجافئها النوم مثلها لكنها تظاهرت بالنوم. لا تريد أن تتحدث مع أحد، كانت تفضل العزلة في حالتها تلك. تسلمت على أطراف أصابعها كي لا توقظها فارتدت ملابسها على عجل لتغادر بهدوء وتغلق الباب خلفها.

في الأسفل حينما كانت تستعد للخروج من الفيلا بسيارتها لفت انتباهها سيارة حديثة مرصوفة على الجهة الأخرى من الشارع. السيارة لا تبدو مألوفة لها كما أنه من الغريب رصف سيارة خارج إحدى الفيلات الموجودة في تلك المنطقة، فكل قاطني الفيلات بالجوار لديهم سياراتهم داخل الأسوار كما أن المنطقة تضم الفيلات الكبيرة الفخمة أو ما يمكن تسميتها بالقصور الصغيرة، وهي على قدر عالٍ من الخصوصية خلف الأسوار المرتفعة والأشجار الكثيفة التي تحيط أسوارها.

نزلت من سيارتها ثم اقتربت من السيارة الأخرى تطالعها بتأمل. السيارة ذات الزجاج داكن لا يظهر ما في داخلها. تراجعت بتوتر إذ خيل لها أنها لمحت شخصًا يتحرك داخلها خلف المقود. عادت لتقترب من الزجاج الأمامي بفضول تحاول أن تنظر من خلاله لتتأكد فطالعها وجه رجل كبير العمر أشيب الفودين يبدو كسائق خاص ينظر لها بتسلي ثم فجأة أنزل الزجاج الجانبي ليقول لها متفكِّهاً:

هل أعجبتك السيارة؟ أتحبين أن تركبي لتجربيها؟

ارتدت للخلف شاهقة ثم استدارت بخجل شديد وعادت بخطوات قافزة لسيارتها المتوقفة على الجانب المقابل. شعرت بأنها تريد أن تختفي لشدة إحراجها فأدارت سيارتها لتهرب بها بعيداً، لكنها قبل أن تختفي عند المنعطف في نهاية الشارع لمحت من خلال المرآة شخصًا يسير باتجاه السيارة ليستقلها. خيل إليها بأنه خرج من فيلا عمها لكنها لم تكن متأكدة؛ إذ لم تنتبه لمرآة السيارة طوال الوقت. فكرت أن تعود لتتأكد من هوية الراكب لكنها خشيت أن تُخرج مرة أخرى فسارت في طريقها تغالب فضولها هذه المرة هامسة لنفسها: كفاك فضولاً! فالفضول يقتل القطط يا ماسة.

وصلت مكتب المحاماة بعد أن تخطت الساعة الثامنة بقليل فأخرجت هاتفها تجري اتصالاً مع مالك كما طلب منها

بالأمس. أجابها بصوت ناعس يشي بأنه ما زال يحتضن فراشه ولم يغادره بعد فسارعت لتعجل حضوره بإخباره أنها تنتظره أمام المكتب. تعجب من وجودها المبكر لكنه وعدها بأنه سوف يحضر في الحال فلحسن الحظ كان منزله قريبًا من مكان عمله.

أمسكت هاتفها تقلب في الصور التي التقطتها خلسة للأوراق التي تخص عمها. أرادت أن تقطع وقت الانتظار الممل حتى موعد وصوله كما أن الفرصة لم تأت لها من قبل لتصفحها بشكل أفضل. معظم الأوراق كانت تحمل اسم مستشفى مشهورة في العاصمة وتحت الاسم إما يوجد اسم قسم الأشعة وإما قسم الأورام. عقدت حاجبيها مفكرة بقلق، أورام؟ ما علاقة قسم الأورام بعمها؟

لا بد من استشارة طبيب يخبرها بما تحويه تلك الأوراق! فكرت كثيرًا في علاقتها بأي شخص له علاقة بالطب فلم تتذكر. كان عمره هو الوحيد القادر على منحها ما تريد وبالطبع لن تخبره بأنها سرقت الأوراق من غرفته لتصورها وتحفظ بنسخة منها على هاتفها. تبسمت في حسرة وسخرية من حالها.

أرجأت التفكير في وجود طبيب فرما يستطيع مالك أن يحل لها تلك المشكلة المستعصية وعادت تقلب باقي الأوراق. معظمها صور تخص بيانات صفقات وتحمل اسم شركة عمها لكن الورقة الأخيرة استوقفتها فهي مكتوبة بخط اليد وفيها حسابات ما، لا تفهمها لكن ما لفت نظرها هي تلك الدائرة التي

أحاطت اسم فرع لمصرف ما. ذلك الفرع يوجد حيث تقيم في مدينتها الإقليمية وليس في العاصمة كما من المفترض أن يكون. ظلت تتطلع نحو الورقة، تدقق فيها وتحاول أن تستخرج قطع الأحجية منها. هل يتعامل عمها مع هذا الفرع الإقليمي لذلك المصرف؟ غير معقول! فعمها منذ زواجه انتقلت كل أملاكه إلى العاصمة حيث يقيم مع زوجته وحيث يباشر أعماله.

أغلقت شاشة الهاتف لتحقق أمامها بشروء وعقلها يقده بالتفكير كأنه مرجل مشتعل. سألت نفسها بحسرة «ما بال هذا الوضع المتشابه؟ كلما أحسست أنني اقتربت خطوة أجدي قد ابتعدت إلى الخلف مزيدًا من الخطوات!»

قطع تفكيرها رنين الهاتف معلنًا عن اتصال من مالك. نظرت إلى الوقت المعلن على الشاشة فوجدت أنه قد مضى قرابة نصف ساعة منذ أن هاتفته. أجابت فأخبرها بأنه وصل إلى المكتب وسألها عن مكان وجودها فأخبرته بأنها ستصعد في الحال ثم أنهت المكالمة وترجلت من السيارة لتعبر الطريق فالبنية التي يقبع فيها مكتب المحاماة قيد التجديد ولا يسمح بصف السيارات بجوارها، لذلك تخيرت موقف السيارات الذي يقع على الجانب المقابل من الطريق.

التفتت خلفها أثناء عبورها الطريق فلمحت سيارة متوقفة على بعد مسافة من سيارتها، تشبه تلك التي رأتها خارج الفيلا. انقبض قلبها وتعجبت كيف أنها لم تنتبه لها أو تراها في مرآة سيارتها الأمامية، وبقرار أحرق وليد اللحظة توقفت لتستدير

وتعود إلى حيث تقف السيارة. أرادت التأكد من أن السيارة تحمل نفس أرقام السيارة الأخرى فقد التقطت رقمها سريعاً في المرة السابقة فإن كان ثمة شيء تتميز به في حياتها فهي ذاكرتها الرقمية، لكن لشدة تركيزها على ما تبحث عنه فقدت انتباهها وهي تعاود عبور الطريق مرة أخرى فسمعت صوت صرير مرتفع لإطارات سيارة يحاول سائقها أن يكبح جماحها. قفزت إلى الخلف مرة واحدة فسقطت على ظهرها واثنت قدمها تحتها بقوة. توقفت السيارة على بعد عدة سنتيمترات من قدمها وهبط السائق المرتعب فعنفها بغلظة دون أن يبالي بسقوطها وكأن كل ما يهتم له هو أن تبتعد المصائب عن طريقه.

تجمهر الناس حولها واختلفت مشاعرهم وكلماتهم بين مؤنب ومتعاطف. امتدت يد من بين الجمع لتساعدها على النهوض وأثناء ذلك كانت السيارة الغامضة تتحرك بسرعة مغادرة المكان. التقطت منها ماسة الأرقام الأخيرة فسقط قلبها بين قدميها.

الفصل الثامن... ألم جديد.

جلست ماسة في مكتب مالك ساهمة واجمة. كان قد رأى سقوطها على قيد سنتيمترات من مقدمة تلك السيارة بينما كان يتجه نحو البناية فعاد أدراجه سريعًا ليمد يده ويساعدها على النهوض، لكنها بدت وكأنها لم تنتبه لما يدور حولها إذ كانت تحدق بقوة نحو جهة ما. التفت نحو الجهة التي استرعت انتباهها بذلك الشكل فرأى سيارة رمادية داكنة اللون تتحرك من مكان اصطافافها.

عاد يتطلع نحوها بقلق متسائلًا: ماسة هل سببت لك هذه السيارة مشكلة؟

التفتت إليه وعيناها تلمعان بشكل مريب وتجاوزت سؤاله قائلة: هيا لنصعد إلى المكتب!

عندما حاولت التحرك شعرت بصاروخ ناري يتحرك من فخذيها نحو قدمها فترنحت وكادت أن تسقط. امتدت يد مالك تلقائيًا لتساندها في وقفها قبل سقوطها أرضًا وسأل بفرع عما إذا كانت قدمها تؤلمها. ملامح وجهها المتقلصة تطوعت للإجابة بأنها ليست بخير ورغم ذلك قالت بقوة تحمل تحسد عليها أن قدمها بخير.

سارت تحجل على قدمها الأخرى رافضة أي طريقة
للمساعدة حاول أن يعرضها عليها، وبعد جهد

وصلت لمصعد البناية تتفصد عرقًا وتشكر الله في سرها أن
كانت البناية تحتوي على مصعد.

عندما استقرت على المقعد أمام مكتبه حمل لها مالك
طاولة دائرية صغيرة قائلاً بتعاطف:

ضعي قدمك عليها وافحصيها.

تطلعت نحوه برفض لكنه أنهى كلامه واستدار بوقفته قائلاً
بشهامة: سأعطيك ظهري حتى تفحصيها جيداً دون خجل.

قالها ليقرن قوله بالفعل إذ اتجه نحو النافذة الجدارية
الكبيرة يراقب الشارع من خلف زجاجها المغلق. تنهدت لتمد
يدها فترفع تنورتها الطويلة وتتطلع لقدمها بتأن بعد أن خلعت
حذاءها وجوربها. كاحلها يبدو متورماً قليلاً والجلد حوله بدأ
بالاحمرار. فكرت أنه التواء في الكاحل ورباط ضاغط تلفه حول
كاحلها سيجعلها تشعر بالتحسن. همست مهوَّنة على نفسها
الأمر أن الأمور ستكون بخير ثم ارتدت جوربها مرة أخرى وأزلت
قدمها من على الطاولة ووضعتها في الحذاء.

استدار مالك متسائلاً بقلق بعد أن التقطت أذنه همسها:

هل الأمور جيدة؟

أجابته مكابرة لا تريد جذب تعاطفه: نعم! لا شيء على الإطلاق.

هزّ رأسه بارتياح ثم عاد ليجلس على كرسيه مفكراً بصوت مسموع، يرجو أن تعطيه إجابات تشفي حيرته: ما الذي تسبب بكل هذه الفوضى في الأسفل؟ هل كانت تلك السيارة الرمادية تضايقك؟

تظاهرت بعدم الفهم: أي سيارة رمادية؟

قال ببساطة وكأنه لم ينتبه لمحاولتها بالمماثلة: تلك التي كادت رقبتك أن تنخلع من مكانها وأنت تحديقين في لوحة أرقامها!

تهندت وسألته بضيق: هل كنت واضحة إلى هذا الحد كي تعرف أنني أتابعها؟

أجابها بابتسامة ساخرة: لقد ساعدتك على النهوض ولم تعرفي أنه أنا من فعل. كنت تحديقين بها كأنك تخشين أن تفر قبل أن تعرفي أرقامها.

امتدت يدها تلقائياً تمسك ورقة على مكتبه وقلماً لتدون بها الأرقام التي التقطتها من لوحة السيارة أمام فيلا عمها، وتحت تلك الأرقام كتبت آخر ثلاثة أرقام التقطتها من السيارة التي كانت تقف خلف سيارتها أمام البناية ثم أعادت الورقة تضعها أمام عينيه، تسأله بترقب: ما احتمالية أن تكون تلك الأرقام

الثلاثة التي كتبت في الأسفل لنفس السيارة التي تحمل الأرقام المكتوبة في الأعلى؟

تطلع نحو الأرقام يتأملها مليًا قبل أن يقول: خمسون بالمائة تقريبًا، إلا إن كانت هناك معطيات أخرى تزيد النسبة لأكثر من ذلك.

قالت بسرعة: لون السيارتين ونوعيهما وتصميميهما متشابهة. هل يقرب ذلك احتمالية أن تكون نفس السيارة؟

سأل بفضول دون أن يجيب سؤالها: ما قصة تلك السيارة؟

تنهدت قبل أن تقول بشرح مبسط ما حدث معها أمام فيلا عمها ثم تفاجئها بتلك السيارة متوقفة خلفها حيث كانت ترصف سيارتها، وكل ما جاء في خاطرها أنها تتبعها طوال الطريق.

سألها بدهشة حانقة: وهل لهذا السبب كنت تعبرين الطريق مرة أخرى لرؤيتها؟

قالت بلا مبالاة: نعم! أردت التأكد من سائقها ومن الراكب الذي يصاحبه.

تكلم بغیظ مكتوم وكأنه على وشك الانفجار في وجهها: هل أنت حمقاء؟ ألم أخبرك بأن تتوخي الحذر يا ماسة؟

برعونة وتهور سخرت منه قائلة: وماذا سيحدث لي؟ نحن في
 وضح النهار وفي شارع عام ومزدحم. هل تتوقع أن يُطلق عليّ
 الرصاص في الشارع؟

منصدمًا من استهتارها ردّ بينما يقلب وجهه بغیظ: أنت
 بالفعل حمقاء متهورة! وما الذي يمنعه أن يؤذيك يا ماسة؟
 نحن في بداية اليوم والطريق ليس مزدحمًا كفاية ليفعل أي
 مصيبة ثم يفر بعدها بكل سهولة. كان من الممكن أن يصدمك
 ويفر.

صمتت في وجوم، يبدو من تعبيرات وجهها أنها لم تضع كل
 تلك الاحتمالات برأسها قبل أن تتخذ خطوتها الرعناء تلك.

قال مالك بضيق: ماسة، أخبرتك بأننا نتعامل مع قاتل؛ ومن
 طريقة سير الأحداث حتى الآن يبدو أنه ليس بقاتل عشوائي فهو
 مستعد لفعل أي شيء كي يصل لهدفه والذي حتى الآن لا
 نعلم ما هو تحديدًا لذا وحتى نعرف من هو أو ماذا يريد، يجب
 أن نأخذ حذرنا كي لا تصبحي أنت الضحية القادمة يا آنسة،
 فوجودك تحت التراب يعني الخسارة للكثير.

تهكمت منه بسخرية وقلبها يشتعل بالحسرة على حالها:
 صدقني، لا يوجد الكثير ممن سيبكونني فأغلبهم قد رحل
 بالفعل.

تطلع نحوها بصمت مشفقا عليها قبل أن يغير الموضوع:
حسناً، هاتي ما عندك! يمكننا التناقش فيما بعد في موضوع من
سيبك.

دفعت الورقة التي دونت فيها أرقام السيارة قائلة: أولاً أريد
معرفة من يملك تلك السيارة، هل هذا صعب؟

هز رأسه مؤكداً سؤالها ومتباهياً بنفسه كصبي غرّ يحب
الظهور: نعم صعب، لمن لا يعرف أحداً في إدارة مرور السيارات،
لكن يمكنني التصرف. لا تقلقي!

ابتسم وغمز لها بتألق موضحاً كيفية سير تلك الأمور
فابتسمت تلقائياً من طريقتة الصبانية. سأل بفضول وعيناه
ترسمان ابتسامتها نادرة الحدوث في ذاكرته ليحتفظ بها مدمجة
مع صورتها الرقيقة التي يحفظها لها: أريد معرفة سر مكالمتك
الغامضة بالأمس. هل نسيت؟

هزت رأسها نافية ثم أخرجت هاتفها وفتحت ملف حفظ
الصور قائلة: لا لم أنس! وجدت أوراقاً تخص عمي وأردت أن
أريها لأحدهم لأني لا أستطيع فهم ما فيها وحدي.

مدت يدها بالهاتف نحوه فتناوله منها بينما أكملت موضحة
وقد شاب صوتها الاستهزاء:

أول الصور تخص تقارير طبية تحمل اسم عمي لكنني لا اعرف ما تحويه إذ أن ثقافتي الطبية لا ترقى لمستوى نملة. حاولت فهمها فوجدت أنني أحتاج لمن يخبرني بفحواها بدلاً من الاستعانة بمترجم جوجل الذي يحرف الكلام بطريقة فجة.

علت ملامحه ابتسامة لتهمكها من حالها. نظر إلى الصور بتركيز قبل أن يهز رأسه قائلاً بنفس سخريتها: وأنا لست بأفضل منك في هذا المجال، لذا دعيها فلدي شخص مقرب يستطيع إخباري ما فيها.

سألت بفضول: هل تعرف طبيبًا؟

قال ببساطة: بل طبيبة.

تقلصت معدتها وانقبضت دونما إرادة منها وكأن ذكره لمعرفة طبيبة ضايقها في الخفاء لكنها قالت بتماسك رهيب: إذاً ستخبرني بما ستقوله لك تلك الطبيبة!

بكل تأكيد! سأهاتف (حبيبة) مساءً لأنها لن تجيب اتصالي الآن، فعملها يشغلها طوال الوقت.

فكرت في نفسها ساخرة كعادتها "طبيبة واسمها حبيبة، لا تأملي الكثير!"

هل هناك أوراقٌ أخرى؟

سألها غير منتبه لصراعها مع ذاتها. أرادت أن تنهض لتختفي من أمامه بغصتها التي كتمت أنفاسها لكن عقلها وكبريائها دفعاها لتجاهل تلك الرغبة الحارقة، ولأن تظل على وضعها مكملة: نعم! لدي ورقة غريبة تخص مركزًا للخصوبة وصلك غامض يحمل اسم طبيب له قضية سابقة في فضيحة أخلاقية.

لمعت عيناه السوداوان بحماس وارتسم الجذل على ملامحه قائلاً: هكذا تصعب الأمور. لديك الحق في طلب المشورة. وافيني بالتفاصيل.

انهمكت ماسة في شرح كل ما تعرفه عن ذلك الموضوع بحماس يفوق حماسه متناسية آلامها الداخلية والخارجية لبعض الوقت.

حين انتهت ماسة من قول كل ما تريد لمالك، كانت تلهث من سرعة تلاحق الأحداث والمعطيات التي تريد التحقق منها. نظرت لمالك الذي فقد جزءًا من وقاره كمحامي وأخذ يتطلع نحوها محققًا بتعجب. طال صمته ثم تنحى وكأنه يفكر فيما سيقول. أعاد النظر إليها مرة أخرى بقلق ثم قال بلهجة متأملة:

هل تدركين عاقبة أن ننبش في ماضي عمك وأن تظهر لنا حقائق لا تحبين معرفتها؟

قالت بحماس: أنا مستعدة لتحمل كل العواقب، ما دام عمي سيرتاح بقبره.

سأل باستهجان: ومن أخبرك بأنه يبحث عن الراحة بنبش الماضي يا ماسة؟ إنك تتدخلين بستر الله الذي وهبه له منذ زمن مضى.

تطلعت نحوه بصدمة وقالت بتلعثم: لم أفكر بها هكذا، أردت أن أعرف من تسبب بقتله وتقديمه للعدالة كي يأخذ جزاءه.

هز رأسه قائلاً: أنا أعرف هدفك، لكنني أردت أن أريك الحقيقة من منظور مخالف لما تفكرين به فالغالب أننا حين نكون محاصرين بأفكارنا لا نستطيع رؤية الأمور بنظرة شمولية ولا يسعنا سوى الدوران في إطار ما نريده نحن، لذا من وقت للأخر نحتاج لمن يرينا الأمور التي تشغلنا من جانب آخر؛ حينها ربما يمكنك اتخاذ قرارٍ جيد يتناسب مع رؤيتك الجديدة.

صمتت ماسة وأطرقت رأسها أرضاً تفكر في الجانب الجديد الذي تكشف لها. هل هي على استعداد لنبش ماضي عمها كي تحقق سعيها خلف الحقيقة؟ هل تراها ستهدأ وترتاح أم ستتسبب بسعيها خلف راحة ميت بإقلاق حياة شخص حي؟ أخذها التفكير وسافرت خلفه في دهاليز بعيدة في غياهب عقلها حتى

انتزعها مالك بصوته الرخيم قائلاً: ماسة، أين سافرت
بخيالك؟

أعدت النظر نحوه هذه المرة بعينين قلقتين وكأنها غير
مستقرة على ردّ تجيب به سؤاله. هون عليها الإجابة قائلاً
بكياسة: يمكنك التراجع. نحن لم نبدأ بعد بما تخططين له، وإن
أردت أن أوّجل بحثي معك حتى تقرري ما تريدين فلا بأس
بذلك.

تنهدت قبل أن تقول بحيرة: خائفة بالفعل مما سيكشف
عنه البحث من حقائق فيما بعد. لا أتخيل أن أجد عمي متورطاً
بشيء لا أخلاقي يهز صورته العالقة في مخيلتي.

بهدوء وتأنٍ، اختار كلماته: لكل شيء ثمنه يا ماسة، فحياة
عمك انتهت والنبش في ماضيه لن يعيده للحياة مرة أخرى،
لكن...

شرد قليلاً وكأنه يحاول التفكير بعمق ثم عاد ليكمل: ربما
لن يتوقف القاتل عند قتله ويظل على سعيه خلف أفراد الأسرة
حتى يجد ما يريد، لذا أمامك خياران.

رفع سبابته ووسطاه أم عينيها، يعدّد لها: أولهما أن تكتفي
بتقرير الشرطة عن سبب الوفاة وتتعاملي على هذا الأساس أو
أن تظلي على قرارك بتسليم القاتل للعدالة حتى يأخذ ما

يستحقه، ولا أعدك بأننا سنستطيع إيجاده في النهاية. ربما نعرض حياتنا للخطر دون جدوى!

هزت رأسها بصمت تحدق فيه بعينيهما وقد بدا أنها مترددة بعض الشيء. فكرت قائلة له:

لن أستطيع التغاضي عما حدث له يا مالك حتى وإن تسبب ذلك بكثير من الفوضى. ليس لدي ما أخسره بالفعل! أما الفوضى فأنا غارقة فيها حتى النخاع، لذا دعنا نمضي قدمًا في سعينا لإيجاد القاتل وليوجهنا الله لما فيه الخير لنا وله.

نهضت بتباطؤ فنهض مالك معها قائلاً: إذا سأبلغك بما توصلت إليه في مسعاي خلف أرقام لوحة السيارة الرمادية وخلف تلك الأوراق التي تحتفظين بصورتها. لا تنسي إرسالها لي على هاتفي.

هزت رأسها بالموافقة وكانت قد أكملت وقوفها على قدميها فلم تستطع تحمل الألم الشديد بقدمها المصابة لتهبط مرة أخرى على المقعد صارخة بصوت مكتوم. التف مالك حول المكتب سريعاً ليقترب منها قائلاً بقلق شديد: ماذا حدث؟

كان وجهها الشاحب قد احتقن من شدة الألم فبدت متوردة بجمال خاص. قالت بصوت مكتوم يحمل بين طياته ألمًا فاق الاحتمال: قدمي.

تطلع باهتمام نحو قدمها المغطاة بتنورتها الطويلة فلا يظهر
منها سوى الحذاء.

سأل بقلق: ما بها قدمك؟ هل تؤلمك؟

أجابت بألم فعلي: لا أستطيع الوقوف عليها، تكاد تقتلني من
شدة الألم.

مال نحوها باهتمام وكأنه ينوي أن يمد يده ليكشف قدمها
لكنها أسرعت بوضع يدها أمام وجهه قائلة بحزم رغم معاناتها:
ماذا تفعل؟

انتصب بإحراج قائلاً: كنت سأفحصها.

قالت وعيناها تهتان بسبب الألم: لست طبيياً لتفعل! أريد
مسكناً فهل لديك؟

هز رأسه سلماً وعرض عليها بإحراج: دعيني أصطحبك إلى
المستشفى، ربما تكون إصابتك خطيرة.

أرادت النكران لكن إصابتها كانت تؤلمها بشدة فقالت
محاولة التركيز معه بدلاً من التركيز مع ألم قدمها: أعطني ما
أتوكأ عليه وسأرافقك.

تألفت عيناه للحظة مفكراً ثم خرج من المكتب فجأة ليعود
بعد قليل يحمل عصا مما يستعملها كبار السن قائلاً بمزاح لا

يخفي قلقه الفعلي: طلبك مجاب. عصا السيد أمجد التي استخدمها حين تؤلمه مفاصله يشرفها أن تكون تحت خدمتك اليوم.

أمسكت العصا بخجل خفي تحاول أن تتوكأ عليها لتنهض وقد تمسكت بيدها الأخرى بحافة المكتب بينما ظاهرها يدعي الصلابة قائلة: أشكرك.

تحاملت على قدمها السليمة، تساعدها العصا حتى وصلت خلفه لباب البناية. أسرع مالك ليحضر سيارته قائلاً لها على عجلة: سنحضر سيارتك فيما بعد. سنذهب بسيارتي الآن.

أرادت الرفض فقد شعرت أن كبرياتها جرحت باحتياجها لشخص يتدبر أمرها وهي المتحكمة بزمام حياتها منذ الصغر، لكن لشدة الألم وافقت على مضمض وانتظرت أمام البناية حتى أحضر مالك السيارة فسارت تقفز على القدم السليمة حتى وصلت تلهث لترتمي بعنف على المقعد قائلة بتذمر:

لا أدري كيف يتحمل السيد أمجد آلام قدميه! كان الله في عون.

أجابها متفلسفاً: لا ندرك كم النعم التي نعيشها حتى تنقص أو تزول.

هزت رأسها مؤكدة كلامه وبالها منشغل بتطبيق كلامه على كل النعم التي فقدتها في حياتها، نعمة الأم والأب ثم العم.

عادت ماسة قرابة الظهر إلى الفيلا بغير تلك الهيئة التي خرجت بها صباحًا إذ أضيف لكاحلها جبيرة وصارت تتوكأ على عكاز طبي يساعدها على الحركة. ما إن رأتها فيروز الجالسة في بهو الفيلا الكبير حتى هرعت نحوها بذعر متسائلة عما حدث فتهاكت ماسة على أقرب مقعد منها، قائلة بإجهاد أنه مجرد حادث بسيط. سقطت على قدمها فكسر كاحلها هكذا بكل بساطة.

أنبتها فيروز لأنها لم تخبرها أو تتصل بها طالبة منها الحضور لمؤازرتها لكن ماسة تحدثت بلا مبالاة أنها لم تر فائدة من إقلاق الجميع لأجل أمر بسيط كهذا فأغضبت فيروز منها. أسرعت تحتضنها بقوة وقد تجمعت الدموع في عينيها قائلة بعتاب: ماسة، لا داعي للتظاهر بكل هذه القوة! أنت بشريا حبيبتى ومن حقا طلب التعاطف في بعض الأحيان فلن يضيرك في شيء.

أصرت ماسة على رفضها: لا شيء يستدعي التعاطف يا فيروز. مجرد حادث بسيط وانتهى بأقل الخسائر الممكنة.

تساءلت فيروز بذعر: أقل الخسائر؟ وهل كان السقوط عنيفاً ليؤدي إلى خسائر أكبر من كسر الكاحل؟

تجاهلت ماسة سؤالها قائلة بلطف متصنع كي تشتت تركيزها عما حدث:

أين البشر الذين يقطنون هذا المكان؟

انطلت خدعتها على فيروز فقالت بملل: الكل مختفٍ منذ الصباح. خالتي جمانة متوعكة وترفض الخروج، عمر بين غرفته وغرفة والدته أما أمي فقد عادت منذ قليل وصعدت لغرفتها قائلة إنها لا تريد أن يزعجها أحد حتى تنال قسطًا من النوم.

قالت ماسة بسخرية مبطنة: لا أظن أنها قضت ليلتها تبكي رحيل عمي مراد، أليس كذلك؟

نظرت نحوها فيروز بصمت، تعض شفيتها بتفكير وكأنها تمنع نفسها من النطق بكلمة تغضب ماسة ذات الطبع الحاد الآن. لاحظت ماسة محاولة فيروز لتخفيف غضبها فعادت تهدئ نفسها قائلة:

لا يهم يا فيروز! اعذري طبعي الحاد، فقدمي تؤلمني.

ربت فيروز على كتفها بمحبة قائلة: لا عليك يا حبيبتي، هل أخذت مسكنًا للألم؟

أومات ماسة برأسها مؤكدة ثم شردت تتذكر ما حدث معها في المستشفى حين تحاملت على قدمها في صمت كي لا تطلب مساعدة مالك لها، وبدوره اكتفى بمتابعتها بقلق؛ يرى محاولتها في تحدي الألم بمثابة وجلد لا يوجد لدى الفتيات في مثل عمرها. كان متعجبًا من قوة تحملها تلك وهو الأدرى

بتصرفات الفتيات فلديه أخت مدللة تملأ الدنيا صراخاً إذا ما ضربت ذراعها بالحائط عفوياً.

فحصها الطبيب وطلب عمل جبيرة لقدمها ثم أخبرها بضرورة المتابعة حتى يتأكد من التحام العظام بشكل صحيح وكتب لها المسكنات حتى يهدأ الألم، وعندما خرجت من المستشفى طلبت من مالك أن يمر على معرض للأدوات الطبية كي تشتري لنفسها عكازاً بدلاً عن ذلك الذي اقترضته من مكتب السيد أمجد.

أوصلها مالك لفيلا عمها واعدًا إياها بإحضار سيارتها المتوقفة عند مكتب المحاماة ومؤكداً عليها بأنه سيهايتها إذا ما توصل لأي شيء بخصوص تحرياته.

هبط عمر في تلك الأثناء مرتدياً ملابس الخروج، وما إن رأى ماسة حتى اقترب محيياً إياها ثم سأل بحذر: أين كنت؟

ارتفع صوت فيروز بلهجة هجومية: ألا ترى ما حدث لقدمها؟

هبط بنظرة لقدمها وما أن رأى الجبيرة حتى قال بصدمة: ماذا حدث لقدمك؟

أجابت ماسة بفتور: مجرد سقوط حر على قدمي.

سألها: وأين كنت منذ الصباح الباكر؟

قرأت ماسة في عينيه الاهتمام الحذر متلونًا بالقلق والفضول
لكنها قالت بلا مبالاة:

كانت لدي محاضراتي.

تطلع نحوها في صمت غير مقروء ثم قال بهدوء: لا بأس على
قدمك، أتمنى الشفاء العاجل لها. هل كتب لك الطبيب مسكنًا؟

أجابت ماسة ساخرة: هل امتهن كل من يقيم في الفيلا مهنة
طبيب في هذا اليوم الغريب؟ نعم أخذت دوائي.

لم يبال عمر بسخريتها فقد بدا وكأن عقله مشغول بشيء
أكثر أهمية لذا اكتفى بهز رأسه قائلاً:

هذا جيد، تحتاجين الراحة وعدم الحركة حتى يلتئم كسرك
جيدًا.

ردت باستهجان: أخبرني عن معنى الراحة عندما تكون مقيدًا
بصفوف الدراسات العليا!

شجعها: سأساعدك إذا ما احتجتِ العون لكن اعتني
بقدمك. سأترككما الآن فلدي موعد ضروري وسأعود سريعًا.

تنهت ماسة لصدق إحساسها بأنه يبدو على غير طبيعته
فسارعت لتسأله بفضول: أين ستذهب؟

تلعثم بشكل خفي لكنه قال: تذكرت بأن هناك مراجع بحثية مهمة لم أحصل عليها، واضطرت للخروج الآن كي أحضرها فلدي اختبار في الاسبوع المقبل وأحتاجها لأجله.

تظاهرت ماسة بتصديقه قائلة بتعاطف: حسنًا اذهب واهتم بمستقبلك يا عمر ولا تقلق بشأن الخالة جمانة.

ابتسم بضعف قائلاً: شكرًا لكما ماسة وفيروز، أنتما أفضل أختين لي.

هزت ماسة رأسها مشجعة له على الذهاب وفي داخلها كانت تنتظر فرصة عدم وجوده في الفيلا كي تفتش غرفته، فقد كانت تريد أن تعرف كل ما يخبئه داخلها. التفتت لفيروز التي كانت ملامح وجهها شاحبة، تتابع خروج عمر من خلفه بعينين غائمتين ثم اندفعت فجأة نحو الدرج قائلة بصوت متقطع: تذكرت شيئًا في غرفتي، سأحضره.

قالتها وانطلقت تصعد بالقفز إلى كل درجتين معًا. تطلعت نحوها ماسة بقلق قبل أن تسير خلفها بخطوات بطيئة تحاول أن تجاريها بكاحلها المكسور. تعلم أن كلمة أختين هي سبب تلك الدراما التي تعيشها فيروز ولكم كانت تتمنى لو أن بيدها شيء تستطيع تقديمه ليخفف عنها كل آلامها، إلا أن هناك بعض الآلام غير قابلة للتخفيف.

الفصل التاسع... الموت يأتي مرة واحدة.

عندما وصلت ماسة إلى الغرفة المخصصة لها وجدت فيروز تجلس على حافة الفراش الوثير الذي يتشاركه في غرفتها الأنيقة التي اختارت أساسها بنفسها حينما أتت في أولى سنوات الجامعة لتصبح شبه مقيمة عند عمها طوال فترة الدراسة. ما إن لمحت فيروز دخول ماسة إلى الغرفة حتى قفزت تجري نحو الحمام لتغلق الباب خلفها بعنف. توجهت ماسة نحو الباب قائلة بقلق: فيروز، ما بك؟

كانت قد لمحت ملامح وجهها الشاحب وارتجاف شفثيها كأنها على وشك البكاء.

أتاها صوت فيروز مختنقًا: لا شيء يا ماسة أنا بخير، فقط أحتاج الخلوة قليلاً.

قالت ماسة بإصرار: لا لست بخير يا فيروز فأنا أعرف متى تكونين بخير ومتى لا تكونين! الآن أحتاج أن أعرف ما بك، وصدقيني سأكون متفهمة لما تمرين به فوق ما تتخيلين.

تحشرج صوت فيروز فبدأ أكثر اختناقًا: أعلم، فقط دعيني لحالي لبعض الوقت وسأكون بخير.

لم تجد ماسة ما تفعله فقالت بتفهم: سأكون خارج الغرفة لبعض الوقت، خذي الوقت الذي تشائين لأني حين أعود سيكون بيننا حديث طويل.

قالتها ثم خرجت من الغرفة وقد شعرت بأن الظروف مواتية كي تنفذ ما كانت تخطط له منذ البداية، توجهت نحو غرفة عمر بحذر تراقب الطريق فلم تجد أحدًا من الخدم أو من المقيمين في الفيلا وقد كان وقت القيلولة حيث يعم الهدوء. مدت يدها تحرك مقبض الباب فوجدت الغرفة غير موصدة. دلفت بحذر لتغلق خلفها الباب ثم توصلته من الداخل بالمفتاح، لا تريد أن يفاجئها أحد بالدخول أثناء مهمتها السريعة أو تفاجئها عودة عمر دون سابق إنذار.

استدارت تتطلع نحو الغرفة المرتبة باهتمام. كانت كما اعتادت على رؤيتها تمامًا، منظمة ونظيفة. اتجهت بخطواتها البطيئة نحو الفراش فرفعت الوسائد تبحث عما يلفت أنظارها. وجدت أن الأوراق التي رأتها من قبل ليست في مكانها. تبسمت هامسة بسخرية: بالطبع، فهو ليس مغفلًا ليطرئها تقع تحت أيدي من يدخل الغرفة!

رتبت الفراش كما كان مرة أخرى ثم استدارت نحو المكتب الجانبي. الأدراج لها مفاتيح لكنها لم تر عمر يغلقها من قبل. توجهت نحوها تأمل ألا تكون مقفلة لكن رجائها خاب حين جربت فتحها الواحد تلو الآخر ففتحت جميعها ماعدا الأخير.

بحث في الأدراج المفتوحة فلم تجد فيها ما تريد. أعادت ترتيبهم مرة أخرى ثم توقفت عند الدرج الأخير، تنظر إليه بعجز وقد تأكدت بأنه يحوي سرًا لذا أبقاه مغلقًا.

أخذت تفكر، أين تستطيع إيجاد المفتاح؟ أملت بأنه تركه خلفه في الغرفة قبل أن يغادر لذا نهضت واتجهت نحو خزانة الملابس تفتشها بحذر كي لا تفسد ترتيبها. أخذت ترفع الملابس المطوية بعناية فتتأمل تحتها ثم تعيدها مرة أخرى كما كانت وبينما كانت تعيد الملابس لأحد الرفوف سقط شيء ما على الأرض.

وضعت الملابس بحذر ثم مالت تتناول ما سقط لتجد أنه مألوف، حلية ذهبية تحمل حرفي «F وO» فشهقت بصدمة غير مصدقة. تعرف هذه الحلية خير المعرفة بل وسبق أن سخرت من صاحبته لأنها توقعت أن حرف "o" يشير نحو عمر خصيصًا. تطلعت نحوها بذعر وقد تجمد تفكيرها. هل وجود تلك الحلية داخل ملابس عمر المطوية تعني شيئًا لم تعرفه من قبل؟ تأكدت بأن هناك لغزًا خلف وجودها هنا وفي هذا المكان بالذات. أخذت الحلية وأسقطتها في جيب تنورتها ثم أكملت ما كانت تفعله بشرود فعقلها مشتت يكاد ينفجر من التفكير.

لم تجد شيئًا آخر ذي قيمة فأغلقت الخزانة بعد أن تأكدت من ترتيب الملابس كما كانت ثم استدارت تسير بخطى بطيئة تتحامل على ألم قدمها الذي كان قد اشتد ربما لأنها لم تنفذ تعليمات الطبيب عن الراحة.

حينما وصلت باب الغرفة كانت قد بدأت تلهث وتفقد حذرها. فتحت الباب لتخرج منه سريعًا فوجدت إيثار في الخارج وكانت على ما يبدو في طريقها إلى غرفتها المجاورة، تتطلع نحوها بدهشة. عقدت ماسة حاجبيها بضيق ودون أن تنبس شفتها بكلمة. أغلقت الباب ثم استدارت جهة غرفتها في الممر المقابل لكن صوت إيثار الساخر لاحقها بحقارة: هل أصبحت تتسولين لغرف الشباب الآن؟ ليت والدك كان موجودًا ليرى كيف استطاع تربية ابنته!

تصلب ظهرها وسرت القشعريرة فيه ودماؤها تغلي بالغضب من حقارة العبارة الموجهة نحوها وخاصة عند ذكر والدها بمثل تلك الطريقة المنحطة، ورغم ذلك استدارت ببطء ترمقها بنظرة ساخرة قائلة:

وهل يا ترى لو كان والدي موجودًا كنت ستخبرينه عن كيفية قضائك أغلب وقتك في الخارج؟

انقبضت ملامح وجه إيثار قائلة من بين أسنانها: أنا أرملة ومن حقي أن أفعل ما يحلو لي، أما أنت فلا تجعلي من نفسك قديسة وأنت ترتمين بين أحضان الشباب هنا وهناك دون رابط شرعي.

أوجع الكلام ماسة بصميمها لأنها لم تفعل أبدًا ما يشين ثم تأتي هذه الحرباء وتتهمها بما يستوجب جريمة دفاع عن الشرف،

لكنها تمارت باستفزاز إيثار فضحكت بسخرية مشيرة نحو غرفة
عمر:

اذهبي وفتشيها بنفسك لتري مدى صدق كلامك المثير
للقرف. قاطن الغرفة غير موجود بها في الوقت الحالي، ولا يشمل
معنى الارتماء في أحضان الشباب في قاموس الحقيرات على
دخول الغرف الفارغة كما أظن!

ثم عادت لتكمل طريقها قائلة بسخرية مريرة: إن كان من
شيء خاطئ فعله والدي ذات يوم في حق نفسه فهو الزواج بك
يا إيثار، ولا تظني بأني لا أعرف كل ما فعلته!

سقطت أرضاً فجأة مع جذب إيثار العنيف لذراعها، قائلة
بغضب أسود:

وما الذي تظنين أنك تعرفينه عني؟

تكومت ماسة على الأرض وعكازها الطبي طار بعيداً عنها
جراء سقوطها المفاجئ، قدمها السليمة ملتوية أسفلها والأخرى
التي في الجبيرة ممددة بوضع زاد ألمها. رفعت عينيها تنظر
بغضب أعمى نحو إيثار، حفزته تلك الوخزات المؤلمة التي
اندفعت في قدمها كأنها صاروخ ناري حارق قائلة:

كيف تجذبيني هكذا؟

لكن إيثار المندفعة بغضبها مالت لتواجهها قائلة بفحيح
كالأفاعي: ما الذي تظنين أنك تعرفينه عني؟

ارتسمت السخرية المبطنة بالحدق الأعمى والتي لطالما
استطاعت ماسة التحكم بها من قبل لكن على ما يبدو بأن
الضغوط التي تعرضت لها مؤخرًا دفعتها لتظهر ما استطاعت
إخفائه كل تلك السنوات!

قالت بصوت مرتفع أقرب للصراخ: أنت تعرفين من أنت
تحديدًا، لذا لا داعي لأن تتحفي أذنيك بمواصفات أنت تعرفينها
بالفعل عن نفسك، ولا تجبريني على ذكرها فمن عاب ابتلي!
دفعتها إيثار بعنف وسحابة من الارتياح الغريب عبرت
وجهها لتنهض قائلة بتشفي:

أنت شخصية حقودة يا ماسة، دائمًا عرفت ذلك. تظهرين
الدمائة واللفظ وفي داخلك تتأكلين حقدًا وسوادًا. تكرهين كل
من هو أعلى منك شأنًا، لذا فكلامك لن يؤثر بي بل يسعدني،
أتعرفين لماذا؟ (مالت نحوها قائلة بشماتة) لأنك حين تنظرين
نحوي هكذا أستطيع أن أستشعر بمدى غيرتك مني وكم كنت
تتمنين أن تصبحي مثلي ذات يوم لكن هيهات!

استدارت لتغادر بشموخ لكن صوت ماسة الذي يقطر غضبا
ارتفع فجأة من خلفها:

لن أتمسك بتلك الفكرة مطولاً لو كنت مكانك، ففي الغد
سيعرف الجميع حقيقتك.

تسمرت إيثار مكانها لبرهة ثم عادت لتواصل مسيرها،
مطلقةً ضحكة ساخرة مرتفعة لكن ضحكتها خرجت مهتزة
جوفاء. ضحكة غير واثقة وقلقة.

جلس رجل الأعمال فاروق حمدي على مكتبه يتابع بعض
الأوراق المهمة الخاصة بعمله حين أتته مكالمة هاتفية على
هاتفه الشخصي. ما إن رأى اسم المتصل حتى ابتسم بتلقائية
ومد يده يلتقط الهاتف، يجيب الاتصال بحبور: مرحبًا حلوتي، ما
أخبارك؟

أتاه الصوت الأثوي المجهش بالبكاء: لست بخير يا فاروق،
لست بخير!

سأل بقلق: ماذا حدث يا حبيبتي؟

عقد حاجبيه وهو يستمع للصوت الباكي، يأتيه من الطرف
الأخر ليحكى له مشكلة ما دفعته للهتاف بقوة: لا تخشي شيئًا
يا حياة القلب! لن يجرؤ أحد على المساس بك، صدقيني! أنت
تحت حمايتي وحي وداخل قلبي ولن أدع أي شخص يمسك
بأذى أو يكشف سرنا.

أنهى مكالمته ثم أخذ يفكر بضيق، كيف يحل تلك المشكلة
التي تلوح في الأفق، وعلى الطرف الآخر كانت محدثته تبتسم
بخبث شديد فقد استطاعت أن تحكم قبضتها هذه المرة

وأصبحت لها كل السيطرة على جميع قطع اللعب، وكأنها تنتظر فقط لتقول «مات الملك!»

دلفت ماسة غرفتها فوجدت فيروز مستلقية على فراشها تحديق في السقف في خواء، وما إن رأت ملامح وجه ماسة المحترقة حتى خرجت من شرودها لتعتدل متسائلة بقلق: هل أنت بخير؟ ماذا حدث؟

تجاهلت ماسة سؤالها وهي تقترب منها بعينين تطلقان الشرر المستعر قائلة بسؤال واضح:

ما الذي بينك وبين عمر؟

بهتت فيروز وهدقت بها كأنها مجنونة فقدت عقلها لكن صوت ماسة الغاضب عاد يكرر بعنف:

هل تخفين شيئاً بينك وبين عمري يا فيروز؟

غصت فيروز بريقها وهزت رأسها نافية وما زالت الصدمة تكسو ملامح وجهها، لكن ماسة المندفعة بوفرة الغضب والألم اللذين يفتكان بها داخلياً وخارجياً دفعها لقول المزيد: إذأ أخبريني بأنك أنت من تكنين له مشاعراً من طرف واحد وبأنه لا يبادلك إياها!

ارتجفت شفتا فيروز وقالت بصوت متقطع: أقسم لك ألا شيء بيني وبينه، لِمَ لا يصدقني أحد؟

أغفلت ماسة شطر الجملة الأخير وهي تقترب منها بخطوات بطيئة حتى توقفت أمامها ثم فتحت قبضتها لتسقط منها القلادة الذهبية في حجر فيروز قائلة بسخرية: أخبريني، أليست تلك الحلية تابعة لك؟ فحسب ما أذكر أنك أخبرتني بأنها هدية من صديقتك في عيد ميلادك الماضي، أم أنني واهمة؟

فتحت فيروز فمها بصدمة تتطلع للحلية الذهبية بعجز ثم عادت ترفع عينيها لماسة بذعر وكأنها تستجديها بأن تفهم ما لا تفهمه هي بشأن نفسها. سألت بخوف: من أين حصلتِ عليها؟ ارتمت ماسة بألم جالسة بجوارها، قائلة بلهجة ساخرة: من غرفة عمر، إن كان المكان يعني لك شيئاً.

شهقت فيروز بصدمة مستفهمة: لكن كيف وصلت لغرفة عمر؟ لقد كانت مع...

بترت جملتها لتحققن ملامح وجهها بشدة وتزم شفتيها بياس فاعتدلت ماسة متسائلة بقلق وفضول وقد نسيت غضبها للحظة: مع من؟

تطلعت فيروز نحوها بياس ثم طأطأت رأسها للأسفل قائلة: لا أحد! لقد ظننت أنها سرقت من الغرفة حين لم أجدها.

سألتها ماسة بإصرار: من الذي تظنين أنه أخذها؟

قالت فيروز بمواربة وقد تجمعت حبات العرق على جبينها:
ربما أحد الخدم، لا أدري!

تنهدت ماسة قائلة بقلق فعلي وقد علمت أن فيروز خائفة
من المصارحة: فيروز، أنا إلى جانبك ولست ضدك! لِمَ لا تخبريني
بما تخفيه داخل قلبك وعقلك؟

أصرت فيروز المتصلبة والمتلفتة بعينيها بعيدًا: لست
أخفي شيئًا!

قررت ماسة أن تطرق الحديد وهو ساخن من ثم استلمت
زمام المبادرة قائلة بحذر: أنا أعلم أن عمر يعني لك شيئًا هامًا،
هل أنا مخطئة إن كنت أريد أن أعرف إلى أي مدى تطور الوضع
بينكما؟

أجابت فيروز بسخرية مريرة: إلى الحد الذي يضعني به في
قائمة الأخوات كما سمعت منه. لا شيء بيننا يا ماسة، ليس
هناك أي شيء! أبدًا لم يكن ولن يكون! (صمتت ثم عادت
لتكلم بحسرة) أو ربما توجد فتاة حمقاء وهبت مشاعرها منذ
الطفولة لشخص لم يبد لها اهتمامًا عدا كونها أخت الفتاة التي
يحبها.

اقتربت منها ماسة قائلة بعطف: وربما تلك الفتاة الحمقاء
ستكبر يوماً لتسخر من نفسها أن كانت تحمل مثل تلك
المشاعر الساذجة في زمن لا يسمح بالحب والمشاعر النقية.

ثم أردفت بهدوء: أنت يا فيروزي لست بحمقاء، أنت فتاة
نقية لم تستطع الدنيا أن تلوث براءتها بعد، ولا يوجد من
يستحق أن تذرني الدموع لأجله. كوني فتاة قوية ولا تهتزي
لمرورك بأي محنة، وأنا أعلم بأنك تستطيعين.

تهتدت فيروز بإحباط: لست مثلك يا ماسة! لا أستطيع أن
أخلق من ضعفي قوة. لو لم تكوني في حياتي لكنت أنهيتها منذ
زمن، أنت لا تعرفين شيئاً عن حقيقتي أو عمّا أمر به.

نهرتها ماسة بقوة: حياتك أئمن من أن تهدريها بكل تلك
الأفكار الحمقاء يا فيروز. لا أحد يستحق أن تنهي حياتك لأجله.
أنا أعرفك جيداً يا أختي، أنت فتاة صغيرة وجددتني دائماً بصفك
فتواكلت عليّ لكن ما إن تسنح لك الفرصة فستعلمين كم أنك
قوية.

ظلت فيروز ترمقها بصمت، تهتز وتنتفض وترتعش شفتاها
بشدة كأنها على وشك البكاء. الأسى يغلف مشاعرها، أينبغي
أن تخبر ماسة بكل ما تمر به أم تلتزم الصمت كدأبها مؤخراً؟
كل تلك الأفكار كانت تدور في رأسها بينما عيناها تحملان غيوماً
من الحزن والقلق والتوتر.

صمتت ماسة تراقبها بمحبة ثم عادت لتقول فجأة دون أن تنتبه لتلك المشاعر العاصفة التي تجول في عقل أختها: من أين حصلت على تلك القلادة؟ ولا تخبريني تلك القصة السخيفة عن صديقتك المقربة التي أحببت أن تهديك هدية قيمة تذكيرتها بها، فوضعت أول حرف من اسمها جوار أول حرف من اسمك.

أجابت فيروز باستكانة: لكن هذا ما حدث حقًا، اسمها علا.

قالت ماسة بلوّم: وربما يكون اسمها عمر بدلًا من علا، أليس كذلك؟

اهتزت فيروز بغضب مفاجئ على غير عاداتها وسألت بعنف: لم لا تصدقيني؟

تعجبت ماسة لانقلاب حالها لكنها أجابت ببساطة: ربما لأننا في زمن يصعب فيه حصول الفتيات الصغيرات على مبلغ مرتفع لشراء حلية ذهبية واهدائها لفتاة غريبة عنها كليًا، ألا ينافي هذا المنطق؟

تنهدت فيروز قائلة باستسلام وقد شعرت أنها مستنزفة كليًا: حسنًا! تخيلي ما تشائين وصدقيه، فمثلك مثل إيثار.

انعقد حاجبا ماسة لتقول بغلّ: لست مثل إيثار يا فيروز ولا تشبهيني بها أبدًا، أفهمت؟ (ثم أكملت بسخرية حادة) مع اعتذاري إن كانت والدتك، فهو شيء لم تختار به بنفسك.

الصمت من جهة فيروز دفعها لتخرج من دائرة غضبها قائلة لها بلهجة اعتذار: لا تحزني يا فيروز فليس بأيدينا اختيار ماضيها لكن بالإمكان أن نصح مستقبلنا كما يحلو لنا، فلا تحملي نفسك ما لا تطيقين.

هزت فيروز الشاحبة رأسها بصمت دون أن تنطق مما دفع ماسة لتكمل:

أنا لست أعترض على حبك لعمر يا فيروز، ذلك الحب الخفي الذي نجحت في أن تكتميه داخل قلبك لسنوات لأنه لم يكن ملائمًا حينها أن تظهريه. اعتراضى فقط في حالة واحدة يا حبيبتي، لا تقللي من شأن نفسك أبدًا! كوني مترفعة عن كل ما يؤذيك، وإن كان حبك لعمر يؤذيك في صميم مشاعرك فإؤديه يا فيروز. انظري خارج حياتك الضيقة المعتادة. أنت في عامك الجامعي الثاني، قطيطة صغيرة تبحث عن الدفء والأمان. اجعلي نجاحك هو دفتك وأمانك يا حبيبتي، لا تستجديه من البشر! وإن كان ذلك يعني المزيد من الصمت والتظاهر بالقوة فأنا أؤيدك وأسير بجوارك حتى تقرري ما تريدين في حياتك فيما بعد. هل يناسبك ذلك؟

قالت فيروز بصوت مختنق: نعم يناسبني، أنت أروع أخت.

قالتها ثم ارتمت على ماسة تحتضنها ودموعها تغرق وجهها مما دفع ماسة للتأوه قائلة بالم:

وإن لم تنهضي من فوق فساكون أروع أخت ميتة.

ابتعدت فيروز مبتسمة من بين دموعها: أسفة إن أمتك،
نسيت أمر كاحلك.

ربت ماسة على ظهرها قائلة: لا عليك حبيبتي.

صمتت ثم عادت تقول متفكرة كأنها تخاطب نفسها: يؤرقني
شيء واحد فقط، كيف وصلت قلاذتك لغرفة عمر؟

ظل سؤالها عالقاً في سماء الغرفة يبحث عن إجابة شافية
بينما غرقت فيروز في حالة عجيبة من الصمت لكن ماسة
المتألّمة كانت قد غرقت في بحر النوم دون أن تنتبه لها.

مرّ النهار عادياً دون أي مستجدات، فبخلاف اعتكاف ماسة
في الغرفة غير عابئة بمظاهر العزاء في الأسفل أو بالضيوف
الذين يحضرون ويذهبون. لم يكن هناك أي تغيير!

جاءها طرق على باب غرفتها مساءً مما دفعها للتذمر وقد
كانت جالسة تحديق في هاتفها بلا هدف يذكر كأنها تستجديه أن
ينطق فيخبرها بما تريد معرفته. أجابت بتذمر فأتاها صوت عمر
قائلاً بقلق:

ماسة هل أنت بخير؟

شعرت بغضب مستعر يشوه روحها من الداخل بل ويلتهم كل سلامها ووازنها النفسي فلا تعرف أتبكي أم تصرخ أم تضرب أحدهم ولم تفعلها من قبل. أجابته بسخرية سوداء:

نعم! بأتم خير كأني فتاة كادت أن تدهس تحت عجلات سيارة.

فتح الباب بحذر ليمد رأسه في الداخل مستفهمًا بتوتر: تدهس تحت عجلات سيارة؟ أليس سبب كسر كاحلك هو سقوطك الحر كما أخبرتني في الظهيرة؟

صرخت به بغضب: ألا تحترم خصوصيات غيرك أبدًا؟ كيف تفتح الباب دون أن أذن لك بالدخول؟

تطلع نحو حجابها الملتف حول رأسها بعشوائية ليقول باعتذار: لكنك ترتدين حجابك بالفعل فلم الغضب؟ ثم إن كلامك عن الدهس أقلقني فلم أفكر قبل أن أفتح بابك.

سألت بغضب: ولم يقلقك كلامي عن الدهس يا عمر؟ هل أثرت خوفك أم لم تكن تتخيل أن يصل الأمر لذلك؟

تطلع نحوها بغباء: لست أفهم إلامَ ترمين بكلامك! لكن إن أحببت المعرفة فنعم، أثرتِ خوفاً يا ماسة بأن أفقدك أنت الأخرى. لقد فقدت والدي منذ يومين وها أنت تتحدثين عن دهس الفتاة الوحيدة المتبقية من عائلتي في حياتي بلا أدنى شفقة أو رحمة.

قالت بسخرية: هناك فيروز والخالة جمانة أيضًا.

قال بتأكيد: نعم، هناك أمي وبالطبع هي حياتي لكنها ليست صديقتي كما هو الحال أيضًا مع فيروز الصغيرة. أنت تختلفين وتعرفين ذلك جيدًا.

قاطعته بسخرية: هل هي تلك الفقرة حيث يعترف الفتى للفتاة التي كانت صديقه طوال العمر بأنه يُكن لها مشاعر بأكثر مما تتخيل؟ إن كان الأمر كذلك فأعفني من مشاهدة تلك الحلقة يا عمر.

بهت عمر وتطلع نحوها بصدمة لكنه عاد ليتمالك نفسه قائلاً بضيق شديد: في أحلامك يا ماسة. لست تستحقين اعترافاً كهذا بالطبع! (ثم أكمل بحنق) هذا إن وجد من الأساس.

استدار ليخرج لكنه التفت مكملاً بصوت خرج مهتراً بصورة ملحوظة: كما أنني لا أهتم بأن أسمع منك شيئاً بينما أنت في مزاجك السوداوي هذا، ولن أخبرك بما أردت قوله لك.

نادته قبل أن يخرج من الباب تسأله بحذر: ما الذي أردت قوله؟

توقف ليقول دون أن يهتم بالنظر نحوها: لا شيء مهم! فقط أردت الاطمئنان على حالك، وبالنظر لمزاجك القاتل كالأرملة

السوداء* فأنا لست مستعدًا للتضحية بحياتي، لذا إن تحسن
مزاجك ربما حينها نتحدث.

ثم خرج دون أن ينظر للخلف ولا مرة تاركًا إياها تحديق بظهره
بغباء وتلعن مزاجها الأسود الذي منعه من اطلاعها على شيء
مهم.

عندما أتتها مكالمة مالك المتأخرة كانت الساعة قد تجاوزت
العاشرة بقليل حيث تستلقي في فراشها، تصارع أشباح

الغضب الذي لازمها منذ حديث إيثار معها. لا تدري لِمَ آلمها
اتهام إيثار لها بمصاحبة الشباب؟ وهل يا ترى تقصد بجمع كلمة
الشاب أن تقصد إيلامها فقط أم أنها تنوي أن تروج إشاعة عنها
لغرض معين يدور في عقلها؟

رن هاتفها فأمسكته بتخاذل وما إن قرأت الاسم حتى تسارع
نبضها بطريقة لا إرادية لكنها أجابت الاتصال بحذر: مرحبًا.

أتاها صوت مالك محملاً بالأسف: مرحبًا ماسة، كيف هي
حال قدمك الآن؟

* (الأرملة السوداء نوع من العناكب السامة للغاية من جنس الزوع، وتتميز إنثائها بأن لها
لونًا مميزًا من الأسود والأحمر وتأكل أحيانًا شريكها بعد الإنجاب، وتستوطن هذه الأنواع أمريكا
الشمالية).

مطت شفيتها بلا مبالاة وكأنه يراها قبل أن تقول بصوت بارد: بخير. لا جديد، ما زلت بالجبيرة.

ضحكة صغيرة من مالك غزت روحها قبل أن يقول: بالطبع ما زلت بالجبيرة، فهي لم تُكسر سوى اليوم

قالت بسخرية: أشعر بأنها منذ قرون لكن بما أنك أخبرتني بأنها كسرت اليوم فبالطبع سأصدقك، والآن هل تحمل لي أي أخبار تحرك ذلك الركود الذي أشعر به منذ عودتي إلى هذا المكان الكئيب؟

لاحقها مالك بتأنيب: على رسلك يا ماسة! لم تمر سوى عدة ساعات وتطالبيني بأن أحل لغزًا منذ عشرات السنين!

تنهدت بحسرة قبل أن تقول: هات ما لديك!

صمت مالك قليلاً، يستجمع ما يريد قوله لها ثم قال: عمك كان يحتضر.

ردت بغباء: لقد مات بالفعل!

قال بهدوء: لقد كان يحتضر قبل أن يُقتل يا ماسة. كان مصابًا بسرطان الرئة في مرحلة متأخرة جدًا، لا تستجيب للعلاج وقد كان أمامه وقتًا قصيرًا قبل أن يرحل بالفعل.

حين لم يأت ردها سأل بقلق: ماسة، هل ما زلتِ معي؟

قالت بهمس: نعم أسمعك.

عاد يستكمل: بالطبع الطيبة لا تعلم كم كان يملك من الوقت قبل أن يموت، لكنها أخبرتني بأنه كان يأخذ علاجًا لتخفيف الأعراض التي يشعر بها وبأنها كانت مسألة وقت قبل أن يُحتضر بالفعل.

صوت تنفسها المرتفع أثار قلقه فسأل بقلق: ماسة، ما بك؟ لم تجبه! كانت تمسح دموعها التي تهطل في صمت باستمرار ولا تجرؤ على النطق كي لا يظهر البكاء في صوتها. عاد يناديها بخوف: ماسة، هل أنت بخير؟

قالت فجأة بلا مقدمات: لا لست بخير! وداعًا.

ثم أنهت المكالمة دون سابق إنذار. عاد هاتفها يرن بإلحاح لكنها اكتفت بالتحديق في الشاشة وكأنها تراها من خلف زجاج مبلى بالماء، فلم تكن ترى سوى شاشة مضيئة تحمل حروف اسم مالك المتراقصة بغير وضوح.

الفصل العاشر... جدير الشك.

عند ظهيرة اليوم الثاني كانت ماسة على وشك الانفجار،
تشعر بضيق يجثم على أنفاسها حتى أوشكت على الاختناق.
نظرت لفيروز التي تلملم أشياءها القليلة في حقيبتها وسألت
بحنق:

هل سترحلين معها يا فيروز؟

انشغلت فيروز بوضع بعض الملابس في الحقيبة قبل أن
تجيبها بعجز: إنها والدتي يا ماسة، لا أستطيع عصيانها. أخبرتني
بأن أستعد للرحيل اليوم فماذا أفعل؟

سألته ماسة بضجر: ألا تستطيعين البقاء معي إلى أن يمر
هذا الاسبوع؟ لا أريد ترك جمانة وحدها.

هزت فيروز رأسها بالرفض بينما تحاذر أن تلتقي عيناها
بعيني ماسة كي لا تقرأ رغباتها. قالت بهدوء: كوني معهما فهما
معتادان على وجودك، أما وجودي فلن يلاقي منهما الترحيب.

غمغمت ماسة بقلق: لِمَ تتصورين ذلك؟

عضت فيروز على شفيتها، تتشاغل بجمع أشياءها لبعض
الوقت؛ وعندما تيقنت أن صمتها لن يزيد ماسة إلا إصرارًا على

المعرفة، تنهدت واستدارت نحوها أخيرًا قائلة بهدوء لا يتناسب مع سنوات عمرها الأقرب للطفولة أو توتر حركات يديها:

بغض النظر عما أتصوره أنا، فالحقيقة تقول بأنهما معتادان على وجودك في الفيلا لبعض الوقت أما أنا فلم تكن أُمي تسمح لي بالمبيت هنا من قبل أبدًا، لذا فإنه من المستحيل أن تسمح لي الآن وبالأخص أنها تصر بأني لم يعد لي أحد هنا. سأرحل معها يا ماسة فأنت تعرفين نتيجة التجرؤ على عصيان أوامرها.

تنهدت ماسة بضيق، لا تريد لفيروز الرحيل وبالأخص في تلك الفترة. لا تعرف لِمَ تشعر بكل هذا القلق وكأنها تتوقع حدوث كارثة أخرى.

قالت بيأس: حسنًا يا فيروز اهتمي بنفسك وإن أردت التحدث معي بأي وقت فسأكون موجودة.

هزت فيروز رأسها مؤمنة وعادت لإنهاء إغلاق حقيبتها: بالطبع يا ماسة أنا أعلم ذلك.

بعد رحيل فيروز مع إيثار عادت ماسة لترتمي على فراشها، تشعر الآن بأنها أصبحت عالية على الجميع وكأنها مشردة لا تملك المأوى، فمنزلها لا تحب العيش فيه بعد وفاة والدها إذ أن إيثار دائمًا ما تحاول استفزازها وإحالة حياتها إلى جحيم فأصبحت تهرب منه إلى فيلا عمها الذي رحل، والواقع يقول إن جمانة ليست من أقاربها لذا فماسة تشعر بالتطفل على حياتها.

قررت أنها ستظل في العاصمة حتى تتجلى لها بعض الحقائق ثم تغادر فيلا عمها بلا رجعة سوى للزيارات، وربما تبحث لنفسها عن شقة تسكنها في العاصمة هربًا من إيثار.

سألت نفسها باستهجان "هل سيتركها الناس في حالها إن انتقلت للسكن بمفردها؟" كان سؤالاً غير هادف، لا تبحث عن إجابة له لأنها بالفعل تعرف إجابته.

أتاها اتصال مالك قرابة العصر وقد بدا قلقًا على حالها لكنها طمأنته أنها بخير. رغم عدم وجود مبرر لديها لعدم ردها على اتصاله بالأمس لكنه أصر على معرفة ما حدث معها بالأمس فسأل بإلحاح عن سبب انهيارها أثناء مكالمته معها وحينها صمتت قليلًا تفكر بما تخبره به ثم في النهاية بعد تردد دام قليلًا، أجابته بخفوت:

لا شيء! أمر بمرحلة متخبطة في حياتي، ربما أبالغ في ردّات فعلي تجاه بعض الأمور.

لم تخبره الحقيقة التي شعرتها بالأمس، فحين أخبرها بمرض عمها شعرت بأنه كان سيرحل بأية حال وأحزنها إخفاؤه حقيقة مرضه عن الجميع كما أخفى ذلك الشيء الذي تحاول معرفته من ماضيه. شعرت بأنها لا تعرف عمها مراد كما كانت تظن، أو أنها تعرف مراد آخر غير ذلك الذي بدأت تظهر بعض

سماته. أيعقل أنها عاشت طوال ذلك العمر تتوهم له شخصية خيالية غير التي يملك؟ أين كل تلك الشعارات التي كان يملأ بها أذنها وهو يبثها كلامه عن مدى القوة التي يجب أن تتحلى بها لتعترف بما أخطأت فيه ولتصحح ما تراه خاطئًا في مسار حياتها؟ أين كل تلك الشعارات التي كان يهديها إياها عن كونها ابنة مراد وليست ابنة محمود، فهي تشبه عمها في تمرده وسعيه دائمًا خلف إسعاد أسرته؟

أكملت بصوت خرج غاضبًا رغمًا عنها: لا تشغل بالك بردّات فعلي كثيرًا يا مالك، فربما كل تلك الأحداث حولي تشوش تفكيري!

أتاها صوته متفهمًا: أنفهم ما تقولين يا ماسة. إن أردت مساعدتي لك فلن أتأخر، وثقي بأنني لن أتركك حتى تستعيدين زمام أمورك.

شعرت بالامتنان له وفكرت بأنه الوحيد الذي يتفهم وضعها الآن: أشكرك.

ثم استطردت آملة في الحصول على أي معلومة: هل اتصالك بي يحمل لي أية أخبار؟

تنهد بقلق قبل أن يقول: تلك القضية التي حدثتني عنها، لقد بحثت خلفها اليوم قليلًا ويبدو أن موضوعها شائغًا يا ماسة.

اعتدلت في فراشها، تسأل بقلق وعيناها تلمعان بالإثارة:
كيف ذلك؟

صمت ثم قال بعد هنيهة: إنها تخص التلاعب بالأنساب وقد
كانت قضية رأي عام لما أحدثته من صدمة بين الناس حين
عرضها.

سألت بحيرة: ماذا تقصد؟

عاد ليتنهد قبل أن يقول: اسمعي يا ماسة، من الأفضل ألا
نبحث خلف ذلك الشيء من الماضي فربما وجدنا ما يؤلمنا.

قالت بإصرار: ماذا تريد أن تقول؟

حاول اثائها عن رأيها بهدوء: أقول إنه من الأفضل أن نترك
تلك القضية يا ماسة ونستأنف حياتنا.

ردت بغضب: لا أستطيع يا مالك! هناك شيء من الماضي
انبعث ليطاردهمي فأودى بحياته المنتهية من أساسها، لكنه
لن يكف عن مطاردة كل من له علاقة بعمي. اسألني أنا فلقد
تعرضت للإصابة مرتين بسبب ذلك.

عقب على كلامها بغضب: وذلك أكثر مدعاة لتركها خلفنا يا
ماسة، لن يفيدنا النبش بالماضي كثيرًا! صدقيني، ربما تتخيلين
أنه الأفضل لكنني أخبرك بأن حياتك ستتوقف عند نقطة ما، ما
إن تعرفي حقيقة لا تحبينها.

مسّ كلمه جزءًا من الحقيقة لكنها عاندت بالقول: هي حياتي يا مالك وأنا اتخذت قراري بشأنها، فإما أن تساعدني كما كان الاتفاق بيننا وإما تدعني أكمل بحثي بطريقتي كما يحلو لي.

قال بغیظ أكبر: أنت ترغميني على مجاراتك فيما تفعلين بالرغم من رفضي الكلي له.

قالت بسخرية: لم أجبرك يا مالك! يمكنك الانسحاب صدقني، فعمي لم يكن سوى عميل لدى مكتبكم ولست أريد إرغامك على فعل ما لا ترتضيه.

صمت لفترة كأنه يدرس كل الاحتمالات في رأسه. علم أنها ستكمل غبائها سواءً بمساعدته أم دونها، ومن يدري ربما حينها تلتحق بعمها بسبب ذلك الإصرار العنيد. شعر بغصة تلهيه عن التفكير بالانسحاب. تنهد بغضب: أنا معك وليسامحنا الله!

قالها ثم صمت فسألته بحذر مبددة سحب الصمت التي تلفهما: ألن تخبرني بما عرفته؟

هدأ قليلاً وكأن الصمت امتص نوبة الغضب من أعماقه. أجابها: كانت تلك قضية كبيرة في ذلك الحين، لم يسعفني وقتي بالبحث خلف كل جوانبها لكن ما وجدته منها جعل قلبي يسقط بين قدمي.

تابعته بفضول تحثه على الإكمال فاستأنف: ألقى القبض على ذلك الطبيب لأن أحد الآباء رفع قضية إثبات نسب ضد

مركزه الطبي لحمل زوجته بطفل غير شرعي. القصة باختصار أنه حين علم الأب بأنه لا يستطيع الإنجاب واحتفظ بفحوصاته التي تثبت ذلك لنفسه مخفيًا الأمر عن زوجته وأهلها، رفض أن يجري الفحوصات لنفسه مبررًا لهم أنه أجراها من قبل ونتائجها كانت سليمة. كانت الكارثة حين ذهبت الزوجة من خلف زوجها إلى ذلك المركز سعيًا خلف حلمها بالأمومة فما كان منهم إلا أن طمأنوها بأنها سليمة وبإمكانها إجراء عملية حقن مجهري وحمل طفل أنابيب، كان المركز في ذلك الحين هو الأشهر وكانت نتائجه مبهرة بنسب نجاح تتعدى كل مراكز زراعة الأجنة حينها. المركز كان ملكًا لطيبين، أحدهما كبير السن والأخر يصغره عمًّا وأكثر شهرة لأن نسب نجاح عملياته كانت مبهرة. أخبرت الزوجة زوجها بأن ذلك المركز هو المعجزة التي يبحثان عنها وأنها مستعدة لتفعل أي شيء كي تنال ذلك الطفل الذي تحلم به، ولأنه شعر بالشفقة نحوها فما كان منه سوى أن ذهب معها وهو يأمل أن تفشل تلك المحاولة فتهدأ ولا تعود للحديث عن الأطفال مرة أخرى لكن صدمته جاءت حين أخبروه بأن زوجته حامل أخيرًا! وسط كل تلك الدموع التي رآها والتهاني التي تلقاها لم يهدأ قلبه. شعر بالغضب الذي كان يلتهم روحه ويحرقها كلما ظهرت أعراض الحمل على زوجته. ذهب لطبيب آخر في الخفاء وأعاد فحوصاته مرة أخرى ليؤكد له ذلك الطبيب بأنه لا يملك أية حيوانات منوية تصلح للإخصاب لذا فنسبة الحمل تكاد تكون مستحيلة. تملك قلبه الشك فما كان منه إلا أنه انتظر عملية الولادة ليرفع قضية نسب على الطفل تثبتها

المحكمة حينها بفحص (دي إن إي) أو الحمض النووي وأثبت حينها أن الطفل بالفعل ليس من صلبه، ولأن المركز كان قد أخبره بأنهم حصلوا على بعض من حيواناته المنوية الصالحة للإخصاب بأعجوبة؛ اتهم المركز بتزييف العينة التي حصلوا عليها من الزوج وعندها انكشفت الحقيقة البائسة فقد كان الطبيب الأصغر سنًا يستعمل عينات من السائل المنوي الخاص به لحقن النساء اللاتي ليس لديهن أمل في الحصول على حمل طبيعي. كانت قضية رأي عام وفضيحة أخلاقية اهتز لها المجتمع حينها حتى أن النيابة قد منعت النشر في تلك القضية.

صمت يلتقط أنفاسه فأتاه صوت ماسة المصدوم:

يا إلهي! لا تخبرني بأن الطبيب الأصغر سنًا هو صاحب الصك الذي كتبه عمي!

قال بتأكيد: بل هو بالفعل، الطبيب راجي عاطف سند.

وضعت ماسة يدها تخفي وجهها قائلة بصدمة موجعة:

يا إلهي، يا إلهي!

أنبها مالك: أخبرتك بأننا لا يجب أن ننبش في ماضي قد يحمل لنا إيلامًا أكثر مما نتحمل.

لم تهتم لتأنيبه بل سألت بصدمة: ألم تعرف شيئًا عن ذلك الطبيب أو لماذا كان اسمه على أوراق عمي المخبأة؟

فكر مليًا ثم قال: لم أبحث خلفه بعد. لقد سألت أحد زملائي القدامى والذي صادف بأنه كان موجودا عند إثارة القضية في أروقة المحاكم فأجابني بما عرفه حينها. تبقى فقط أن أبحث عنها في سجل ملفات المحكمة كي أصل لكل تفاصيلها

سألت بتوتر: هل من الممكن أن نرى ملفات القضية القديمة؟

قال بهدوء: بالطبع ليس بتلك السهولة لكنني سأحاول.

ترجته قائلة: أريد أن أكون معك حينها، رجاء! أريد أن أرى ما كتب في ملف تلك القضية علني أتوصل لبعض الحقائق.

قال بعد فترة صمت قضاها مفكرًا: حسنًا! سأرى ما يمكنني فعله.

هتفت بحماسة: نعم، نعم! أخبرني متى أقابلك وسأفعل.

ضحكة خافتة انبعثت منه قبل أن يقول: تتصرفين كالأطفال. من كان يظن أن تحت تلك الهالة التي تحيطين بها نفسك من القوة تحملين داخلك طفلة تتصرف بعفوية؟

بهتت ماسة فلم تجد ردًا حاضرًا لديها. وخزها ذلك الإحساس المبهم الذي بات يزورها مؤخرًا كلما تحدثت معه. حين طال صمتها قال ممازحًا: هل نمت؟

تنحنت لتجيب بصوت أظهرت اللامبالاة فيه: متى يمكنني
مقابلتك في المحكمة؟

غزا وجهه ابتسامة عريضة لم ينتبه لها مجيبًا سؤالها: غدًا
سأخبرك ما إن أقرر الذهاب، فربما لا أستطيع مغادرة المكتب.

قالت بسرعة: سأنتظرك! أقصد سأنتظر مكالمتك.

غمرها الخجل لزلة اللسان تلك لكنه كان من اللياقة بأن لا
ييدي لها انتباهًا فعقب:

حسنًا يا ماسة، أراك بخير.

حين انتهت المكالمة كانت تتصبب عرقًا وتلعن غباء لسانها
في سرها أما هو فقد كانت هناك ابتسامة غير منطقية تزين
ثغره، ظلت ملازمة له بقية اليوم.

في مستشفى ضخمة على أطراف العاصمة، جلس طبيب
شاب على مقعده في غرفة الأشعة يطالع تقارير ورقية بيده بتأن
قبل أن يرفع رأسه ليسأل الشاب الواقف أمامه عما يريد
تحديدًا فقد كان منشغل الذهن ليستوعب طلبه في البداية.

تهند الشاب ثم تكلم بثقة: هذه فحوصات والدي المتوفي
منذ عدة ليال. أردت متابعة ملفه الموجود لديكم.

سأل الطبيب بحذر وقد خطر له أن ذلك الشاب يبحث عن
المشاكل:

لماذا؟ هل تشك بأنه توفي نتيجة الإهمال الطبي؟

فهم عمر تخوفه فقال بسرعة نافيًا: لا! لقد مات نتيجة
حادث. أنا فقط مشوش التفكير لأنه أخفى حقيقة مرضه عنا،
وكنت أريد معرفة اسم الطبيب المختص بعلاجه لمعرفة كيف
كانت حالته آنذاك. إنها خدمة انسانية تقدمها لي ليس إلا

ظل الطبيب يرمقه بحذر قبل أن يستدير ليجري بحثًا على
جهاز الكمبيوتر خاصته ثم يعود ليرمق عمر قائلاً بهدوء حذر:
سأكتب لك اسم الطبيب المعالج لحالة والدك ويمكنك
مقابلته وسؤاله عما تريد

هزَّ عمر رأسه موافقًا بلهفة فما كان من الطبيب سوى أن
تناول ورقة صغيرة دون بها اسم الطبيب الآخر ثم ناولها له

شكره عمر ثم أسرع بين أروقة المستشفى حتى وصل
لمكتب الاستقبال فسأل الموظفة المتأنقة عن وجود ذلك
الطبيب ولحسن حظه أو ربما لسوءه فقد استطاع مقابلته، ويا
لها من مقابلة!

خرج عمر من المستشفى يشعر بالصدمة فقد علم حقيقة
مرض والده بتفاصيلها وتأكد له حقيقة إخفاء مرضه لأسباب لا

يعلمها إلا الله. أحس بالوجل فثمة مصائب لابد وأنها مخفية من قبل والده كما أخفى عنهم حقيقة مرضه، وعليه أن يعرفها الواحدة تلو الأخرى. لا يدري من أين يجب أن يبدأ سعيه! هل سيجد ما يبحث عنه بين أروقة الشركة وحيث وقعت جريمة القتل؟ اتخذ قراره بالذهاب لمكتب محامي والده عله يجد لديه ما يريد

أيقظ رنين الهاتف ماسة من نومها مذعورة. كانت قد سقطت نائمة في فراشها بعد مكالمتها مع مالك دون مقدمات لشدة التعب. أمسكت الهاتف تطالع شاشته فتفاجأت بأن الساعة قد تجاوزت الواحدة صباحًا

أجابت الاتصال قائلة بصوت قلق: فيروز ماذا حدث؟

أتاها صوت فيروز الخافت قائلة: أنا خائفة!

قالت ماسة بقلق متزايد: مِمَّ أنت خائفة يا فيروز؟ هل حدث مكروه لك؟

قالت فيروز بصوت متحشرج: لا أريد البقاء في المنزل!

هبت ماسة جالسة على الفراش لتقول بخوف: أخبريني لِمَ؟

لكن فيروز اكتفت بالقول: أنا خائفة يا ماسة، أشعر بأنني وحيدة وأفتقدك بشدة.

قالت ماسة بهدوء: أخبريني يا فيروز، هل حدث شيء أخافك؟

لم تجب فيروز سؤالها بل قالت بصوت مرتجف: أفتقدك يا ماسة. لا أستطيع النوم، تتنابني كوابيس مرعبة بخصوص عمي.

سألت ماسة وما زال القلق يعصف بداخلها: أين والدتك؟

أجابت فيروز بخوف: لا أجدها!

تعجبت ماسة: ماذا؟ أين هي؟

شرحت فيروز بقلق: ذهبت للنوم حوالي العاشرة مساءً واستيقظت منذ نصف الساعة، شعرت بالقلق فدخلت غرفتها لكن فراشها كان مرتبًا والشقة فارغة.

قالت ماسة تطمئننها: ربما كانت في الشقة التي في الدور الأرضي يا فيروز، هل حاولت مكالمتها؟

عقبت فيروز بخوف بدأ يتزايد وكأنها على وشك الانهيار: هاتفها مغلق، هل يجب عليّ الهبوط للأسفل

كي أتحقق من وجودها؟

حذرتها ماسة: لا تخرجي من الشقة يا فيروز! احكمي إغلاق الباب جيدًا ولا تفتحيه لأحد أبدًا

لكن فيروز سألت وقد تصاعد خوفها: هل تعتقدين أنها تأذت؟

سخرت ماسة بقسوة: بالطبع لا! صدقيني، لا يستطيع أحد إيذاؤها فهي قادرة على افتراس من يقترب منها. ستعود حتمًا فلا تقلقي.

هدأ صوت فيروز قليلًا لكنها قالت بقلق: أنا خائفة. أريد أن أطمئن أنها بخير، ربما سيكون الهبوط للتحقق من وجودها في الأسفل فكرة جيدة.

أكدت ماسة عليها بصرامة: إياك أن تغادري الشقة يا فيروز! لا أريد إخافتك لكنك آمنة داخلها، فقط احكمي إغلاق بابها.

سألت فيروز بخوف متجدد: هل تظنين أن وجودي وحدي يعرضني للخطر؟ صدقيني أشعر بالخوف الآن وخاصة بسبب مام...

بترت كلامها لتستدرج قائلة بحزن شديد: بسبب ما حدث لعمي. أشعر كم أن حياة البشر هينة ورخيصة في مواجهة الأطماع وكأن التخلص من روح شخص كالتخلص من حفنة من الأوراق غير ذات الأهمية.

هبط قلب ماسة بين قدميها لكنها قالت بتماسك: اتركها
لله. إنه الأجل، متى ما أؤف موعده نفذ.

همست فيروز بتوتر وكأنها طفلة غير متزنة: ونعم بالله!
يقلقني غياب أمي، هل تظنين أنها بخير؟

تهددت ماسة قائلة: لا تقلقي بشأنها يا فيروز! إيثار قادرة
على حماية نفسها. افعلي كما قلت لك وسأبقى معك على
الهاتف حتى تهدي وتنامي.

خرجت فيروز من غرفتها تجوب الشقة بحذر، تتأكد من
خلوها من صحبة غير مرغوبة ثم أغلقت الباب جيدًا بالمفتاح
وقفل الأمان. عادت لغرفتها فأوصدتها من الداخل ثم تدرت
بغطائها بينما تتابعها ماسة على الهاتف حتى اطمأنت أنها
أتمت التعليمات. ظلتا تتحدثان سويًا لبعض الوقت حتى أنهت
ماسة المكالمة حين شعرت فيروز بالنعاس بينما يعتصر قلبها
القلق وينتابها الخوف، خوف مبهم من شيء مجهول لا تدري
كنهه.

حينما أتى النهار أخيرًا كادت ماسة أن تموت رعبًا وقلقًا على
فيروز. نامت نومًا متقطعًا مليئًا بالكوابيس وكلها تتعلق بالقتل
والدما. مرة ترى عمها وثقب رصاصة في صدره تتفجر منه
الدما، ومرة ترى شبحًا متشحًا بالسواد يلاحقها ويحمل سكينًا
عملاقًا يريد ذبحها به، ومرة ترى فيروز تختبئ في بيت مهجور

بينما هناك لَصَّ يبحث عنها ليقتلها، وفي كل مرة كانت تستيقظ فزعة تمسك هاتفها لترى إن كان هناك أي اتصال وارد من فيروز ثم تعاود النوم القلق مرة أخرى.

عندما استفاقت أخيرًا أمسكت هاتفها لتتصل بفيزوز كي تطمئن عليها، لم ترد فعلها من قبل كي تمنحها نومًا مستقرًا ولا تسبب لها القلق. أجابت فيروز بصوت منخفض: صباح الخير يا ماسة، لقد استيقظت منذ قليل على طرقات أمي على باب الشقة. أخبرتني بأنها كانت تنام في الأسفل كي تؤمن البيت لأنها شعرت بالقلق، ولم ترد إيقاظي كي لا أقلق معها.

لم تعجب ماسة بمبررات إيثار لكنها ارتأت الصمت فقالت بهدوء: أخبرتك يا فيروز، لا داعي للقلق أبدًا بخصوص والدتك، هل نمت جيدًا؟

صمتت فيروز تستجمع أفكارها ثم قالت بخفوت: تمامًا مثل الصخرة. سقطت كالميتة حتى أيقظتني إيثار صباحًا بسبب طرقاتها على الباب واتصالها المتكرر بهاتفني.

قالت ماسة بهدوء بينما في داخلها تغلي غضبًا: هذا جيد، سعيدة أنك بخير. إن أردت يمكن أن تأتي لتقييمي معي في فيلا عمنا حتى نعود سويًا.

لا أستطيع يا ماسة، فأمي تخاف عليّ ولن ترضى بذلك. ليس بعد كل ما فعلته لأجلي.

وما الذي فعلته لأجلك تحديداً؟

سؤالها الساخر صفع أذن فيروز فتلعثمت وتهدج صوتها ثم حلّ الصمت دون أن تجد ما تجيب به. علمت ماسة أنها قست عليها بالسخرية من والدتها لكنها لم تتمالك نفسها فتولت الإجابة على سؤالها بسخط أن والدتها لم تفعل لها ما يجب على أي أم أن تقدمه لأبنائها ثم أفلت منها زمام التحكم بغضبها قررت أن تنهي المكالمة خاصة حين وصلها صوت فيروز المضطرب والذي ينبئ عن بوادر انهيارها وهذا ما لم ترده الآن أو فيما بعد.

انتابها إحساس مستمر بغرابة تصرفات فيروز مؤخرًا. شعرت بأنها ازدادت انطواءً وعزلة، وتلك اللهجة الغريبة من الانكسار جديدة عليها. ظنت السبب هو موت العم فقالت بغضب داخلي: لن أترك من فعلها يهنأ بفعلته! سأعرف من هو عاجلاً أم آجلاً وسأجعله يعرف أن الجاني سيأخذ جزاءه ولو بعد حين.

قالتها ولم تكن تدري بأنها تفتح أبواب الجحيم المغلقة منذ زمن، جحيم الشك وجحيم الطغيان!

الفصل الحادي عشر... هل تعرف حقاً؟

قرب الظهيرة جلست ماسة في غرفة جمانة التي بدت قلقة وهي تتطلع نحو جبيرة قدمها، تتساءل عن كيفية خروجها للشارع وقدمها بتلك الحالة. لوح لها ماسة بيدها بلا مبالاة مخبرة إياها بأنها بأفضل حال ولا تعوقها عن الحركة لكن جمانة المتشككة سألتها عن الدافع الملح لخروجها بينما قدمها بالجبيرة وخاصة أن اليوم هو السبت، إجازة من الجامعات كما تظن. هزت ماسة رأسها بموافقة ضمنية ثم عادت لتخبرها بمراوغة بأن لديها جلسة محاكمة تود حضورها والاستفادة من المرافعة فيها. حينها تعجبت جمانة لأن ماسة في الآونة الأخيرة لم تكن تحضر كثيراً بسبب انشغالها لكن ماسة أكدت بأنها تعمل في المكتب منذ عدة أسابيع.

كانت تكذب لكنها أملت ألا تكتشف جمانة ذلك. انطلت كذبتها على جمانة التي شعرت بالقلق لأجلها فوبختها بلطف كي تهتم بنفسها خاصة أن وجهها ازداد شحوباً وظهرت الهالات السوداء تحت عينيها كعلامة واضحة على إرهاقها وعدم انتظام نومها لكن ماسة تعللت بوجود نزولها اليوم ثم بعد ذلك سترضخ لرغبات زوجة عمها الحنونة بأن تهتم بنفسها وراحتها، رافضة كل ما يقف بوجه تحقيقها السري الذي تجريه. رغم صعوبة خروجها بجبيرتها إلا أنها تحاملت على الألم في سبيل تحقيق الغاية.

_ ماسة حبيبتي، أريحي نفسك قليلاً، وجهك شاحب
كالأموات.

- الحياة لا تتوقف يا خالتي، لابد أن تسعي خلف كل ساعة
تقضينها بها.

_ لقد أحسن مراد زرع مبادئه داخلك، أشعر أن مراد هو من
يحدثني.

- أما أنا فلم أعد أعرف من أكون! في داخلي اضطراب وتخبُّط
يكاد يوصلني للجنون وأنا أسأل نفسي دائماً ماذا لو؟ (همست
ماسة باقتضاب حزين)

_ ماذا لو تحققت كل أحلامنا؟ ماذا لو أخذنا من السعادة ما
يشبعنا طوال العمر؟ هل تظنين أننا سنكتفي؟ لا يا ماسة!
الانسان لا يكتفي أبداً! حتى وإن نال كل ما تمناه فسوف يعلو
سقف أمانيه وطموحاته وسيظل طوال عمره يسأل ماذا لو؟
ونحن لا نرضى بهذا بل نقول الحمد لله فقضاؤه غالب، أليس
كذلك؟

وافقتها ماسة قبل أن تنهض لتخرج من الغرفة فلاحقتها
جمانة بالسؤال: أما زلت مصرّة على الخروج يا ماسة؟ ارتاحي
في فراشك اليوم وسوف أراك حتى تستعيدين بعضاً من
رونقك.

ضحكت ماسة بسخرية قائلة: لا تتعبي نفسك فوجهي كما هو المعتاد، شاحب وسيبقى هكذا، وجه الجثة.

قالتها بغيظ وكأنها تذكر جمانة بذلك اللقب البغيض إلى قلبها فتغضنت ملامح جمانة قائلة بتأنيب:

لا تدعي أحدًا يهز ثقتك بنفسك يا حبيبتي! لست شاحبة بتلك الطريقة السيئة! أراك جميلة كما أنت، وكلتانا تعلم أن إيثار تحاول دائمًا إشعارك بالدونية. لا تدعيها تكسب ذلك التحدي! أنت رائعة وإياك أن تصدقي إهانتها لك.

باغتتها ماسة بالسؤال: خالتي جمانة، أخبريني عن علاقتك بإيثار طوال فترة معرفتكم ببعضكما. أريد أن أعرف سبب اختيار والدي لها دونًا عن كل النساء، فالنساء يفهمن بعضهن جيدًا.

تنهدت جمانة وغرقت في صمت دام قليلًا وكأنها تسترجع شيئًا ما بذكرتها قبل أن تقول باختصار:

كانت تعمل في المستشفى التي كنت أتابع فيها حالتي الصحية. بدت لطيفة مع الجميع وخصوصًا أنت. محمود والدك رحمه الله كان يمر بأزمة نفسية شديدة ولم يستطع رعايتك كما يجب في ظل حياته الممتلئة بالأعمال، وكان في ذلك الوقت يميل للبحث عن زوجة ترعاك في غيابه. استطاعت إيثار بلطفها

وكل ما تملكه الأنثى من أسلحة خفية أن تجعل والدك يميل
لاختيارها زوجة بالرغم من معارضة مراد تلك الزيجة.

سألت ماسة بفضول: لماذا كان عمي يعارض تلك الزيجة؟

تنهدت جمانة لتقول بحيرة: لست أدري تحديداً السبب
خلف معارضته لكنه كان يقول إنها صائدة فرص.

- صائدة فرص!؟

هكذا كانت نظرة مراد الدقيقة لما خلف البشر. يحب تحليل
شخصية كل من يراه أو يتعامل معه. كان دائماً ما ينعت إيثار
بأنها علاقة ممتصة تعيش على عرق الآخرين. أنا لم أر منها ما
يسيء لي شخصياً لكنني شعرت أنها تتعامل بتحدٍ مع وجود
مراد، تتعمد أن تضايقه أثناء وجوده، تأخذ عمر لتلاعبه وهي
تعلم بأن ذلك يضايق مراد بشدة.

اتسعت عينا ماسة، تسأل بفضول بينما تعود لتجلس قرب
جمانة وكأنها نسيت سبب خروجها:

لماذا كان يتضايق من ملاعبتها لعمر؟

تنهدت جمانة مرة أخرى ثم قالت بحذر: لا أدري يا ماسة!
لكن كل ما كانت تفعله كان يضايق عمك بشدة، وكأنه يعرف
عنها شيئاً ويكرهه فيها.

صمتت لتفكر قليلاً قبل أن تقول: حتى ليلة وفاة والدك عندما أخبرتنا أنه مات كان يغلي غضباً قائلاً إنه لن يرحمها وسوف يفضح أمرها في كل مكان.

سألت ماسة بصدمة: يفضح أمرها بخصوص ماذا؟

قالت جمانة بغمزة مصاحبة من عينيها: بخصوص موضوع الإرث كما تعلمين.

صمتت ماسة تحديق في جمانة بينما تفكر بكلامها عن الإرث فقد علمت بعد وفاة والدها أنها لا تملك سوى نصف المنزل الذي تقيم فيه، وحين أخبرها المحامي بذلك بكت يومها بكاءً مريراً ليس لأنها لم ترث شيئاً إنما بكت والدها الذي استطاعت تلك المخلوقة الوضيعة أن تجعله يظلم ابنتيه بذلك الشكل المريع وهو الذي عاش طوال عمره حكيمًا لا تحركه أهواؤه ولا يرتضي الظلم لكن عمها حينها أمسك يدها قائلاً:

أنت ابنتي يا ماسة، لا تقلقي حبيبتي بخصوص مستقبلك فهو مؤمن تمامًا.

لم تسأل عمها عن معنى كلامه لكنها علمت منه فيما بعد بأنه قد تشارك مع والدها بأحد المشاريع وأنها سوف تجني أرباح شراكتهما، ومنذ ذلك الحين يصلها مبلغ مالي ثابت، ليس ضخماً لكنه يكفل لها معيشة مريحة. كانت تدفع بما يفيض من مصاريفها الشخصية إلى حساب توفيري كي تضمن أن يكون

لها نقودًا كافية إن أرادت ذات يوم إجراء تغيير في حياتها لكنها أرجأت الفكرة حتى تضمن أن تكون فيروز بخير. أصبحت تنتقل بين فيلا عمها وبين منزل والدها الذي آل لإيثار، يعززها أنها لن تستطيع طردها منه.

لم تستطع السير دون الالتفات خلفها تاركة فيروز لمصير تعتبره ماسة مجهولاً، قررت البقاء حتى تضمن أنها ستكون بخير وحينها ربما استطاعت ماسة المضي قدماً بحياتها بعيداً عما يربطها بإيثار كما تحلم دائماً.

قطع أفكارها صوت جمانة المحمل بالعاطفة: مراد دائماً ما رأى الجانب غير المرئي للأشخاص أما أنا فلم أرَ منها ما يسوء فهي مجاملة، تتعامل بأناقة ودبلوماسية مع الجميع، تظهر حبها لوالدك علناً ولا تخجل من ذلك. والدك كان متحفظاً حيال تصرفاتها لكنه كسائر الرجال، لا بد أنها خلبت لبه بكل تلك الأنوثة المحيطة بها. كانت تتصرف كما يفترض لأنثى أن تكون.

ضحكة مقتضبةً من ماسة أخرجتها من ذكرياتها لتنظر نحوها جمانة بفضول. هزت ماسة كتفها لتقول بسخرية: كانت تتعمد فعل ذلك أمامي بالرغم من رفض والدي له، وكأنها تظن أنها ستثير حنقي بذلك التصرف.

قالت جمانة بهدوء مخفية امتعاضها من جرأة إيثار: لها
طريقتها في التعامل مع من تحب كما اعتادت أن تخبرني. لست
ألومها وإن لم أتفق معها!

باغتتها ماسة بسؤال آخر خطر لها: هل كنت تعانين من
مشاكل بالحمل يا خالتي؟

اهتزت جمانة تنظر نحوها بتوتر غير مبرر وسألت بحذر: لماذا
تسألين؟

قرأت ماسة قلقها لكنها تظاهرت بالبراءة قائلة: لا شيء! لقد
استوقفني قولك إنها كانت تعمل في المستشفى التي كنت
تتعاملين معها، وأنا أعلم بأنها مستشفى متخصصة في الحمل
عن طريق التلقيح الصناعي، لذا سألت.

كانت مقاومة غير مضمونة الإجابة، احتسبتها ماسة كمحاولة
لتعرف شيئاً تجهله إذ لم تكن تعرف بتاتاً مكان عمل إيثار
السابق، وهل هو نفس المستشفى التي وجدت شعارها على
تلك الورقة المخبأة في غرفتها أم لا؟

قالت جمانة باقتضاب ولامحها تشي بالتوتر الجم: بعض
المشاكل البسيطة كأني زوجين لكن لا شيء خطير. حدث
الحمل لكنني فقدت رحمي بنزيف شديد عند الولادة...

ثم بترت كلامها وكأنها تمنع نفسها من الاسترسال، لكن ماسة المشغولة بفضولها سألت: أخبريني كيف كان حملك بعمر؟

رمقتها جمانة باضطراب لتقول لها بذكاء محاولة عدم الإجابة: أليس لديك موعد في المحكمة تلحقينه؟

أجابت ماسة بسماحة: لقد أعجبتني حكاياتك. لو استمر اليوم بيننا بسر كل ذكريات الماضي فلست أمانع عدم الذهاب.

دفعتها جمانة ممازحة: لا أستطيع أن أقضي يومي كله أتحدث، سأصاب بالدوار! هيا انهضي واذهي لعملك!

علمت ماسة بأنها خسرت الفرصة للحصول على بعض الإجابات لأسئلتها العالقة فنهضت تضحك ضحكة مصطنعة: حسنًا! سأذهب للعمل وأنا أحمل شغفي معي وذلك لأنك لم تتعطفي عليّ بإخباري بعض حكايات الماضي الجميلة.

تبسمت جمانة لطريقة ماسة في استعطافها لكنها قالت بتصميم: اذهبي يا ماسة ودعي ذلك الشغف عنك، فلا فائدة ترجى من نبش الذكريات.

خرجت ماسة من الغرفة وما إن أصبحت خارجها حتى تجهمت ملامحها تفكر بأسى بأنها لن تعلم شيئًا مما تريد بالطريقة البسيطة. يبدو أنها سوف تعاني كثيرًا قبل أن تتوصل

للحقيقة، وكما يبدو فهي حقيقة مريرة سعى الجميع لإخفائها
ودفنها في الماضي.

ولم تعلم جمانة أن ماسة لن تذهب للعمل بل هي ذاهبة
لفعل ما نهتها عنه، نبش الذكريات وإزاحة رماد السنين عنها،
وسوف تزكم الأنوف رائحة الماضي!

عندما وصلت ماسة إلى مبنى المحكمة، ترجلت من سيارة
الأجرة لتتحرك نحو المبنى بوجه شارد مهموم، تشعر بأنها
عاجزة عن معرفة ما يُسكن عقلها الثائر ويريح جنون أفكارها.
اتجهت ببطء نحو مدخل البناية دون أن تنتبه إلى تلك الوجوه
الكالحة المحيطة بها لكنها ما لبثت أن امتقع وجهها لدى رؤيتها.
سيدة مكبلة بالأصفاذ في يد شرطي بدين، كانت المرأة تتطلع
نحو العيون المحدقة بها بوقاحة وكأنها تقول لهم أنها لا تأبه بهم
أما ماسة فما زالت تشعر بالاضطراب كلما رأت شخصًا ما يفقد
حريته بأصفاذ أو دونها.

ظلت تتطلع نحو الأشخاص المكبلين، تحاول أن تتخيل
حكاية تناسب هيئة كل شخص وتعبيرات وجهه.

فمثلًا تلك السيدة بلامح وجهها الشرسة ونظراتها الوقحة
تعطي انطباعًا بأنها سيدة مشاجرات. ربما هي إحدى أولئك
النسوة اللاتي يمتهنن (البلطجة) كأسلوب للمعيشة. أما هذا

الرجل البسيط بلامح وجهه الحزينة الكسيرة فربما يكون سبب احتجازه خارج عن إرادته أنه عاجز عن تسديد دينه.

أشاحت بوجهها تشعر بالقلق وبوخزة خفيفة في معدتها لا تدري سببًا لها، ربما لأنها ما زالت حساسة تجاه التنمر من الآخرين فما زالت ذكريات تنمر إيثار عليها أثناء طفولتها عالقة في ذهنها إلى اليوم وكأنها تأتي مفارقة خيالها، وكل ما نمر به في طفولتنا يظل أثره عابقًا بأرواحنا، يصر على تشويه نقائنا كلما كبرنا واشتد عودنا فيدمينا كأول مرة وكأنه لا يخفت بتقادم الزمن.

لم تلمح تلك العينين المراقبتين لها باهتمام، تحاول سبر أغوارها وقراءة تعبيرات وجهها المبهمة بتمعن فقد شعر مالك بأن خلف تلك الهيئة الصلبة اللا مبالية التي تدعيها ماسة، هناك ماسة أخرى مختلفة؛ ربما أكثر هشاشة وحساسية تجاه الآخرين. ما إن اقتربت من مكانه حتى تنبهت له فتوجهت نحوه بخطوات متباطئة شاردة. عيناها تحملان سؤالًا متشككا استطاع قراءته بسهولة ليجيبها بغمزة سخيفة من عينيه قائلاً لها: اتبعيني لتعرفي!

تبعته متسائلة بقلق خفي: هل هناك جديد؟

قال بغموض: لنحاول أن نخلق جديدًا!!

_ ماذا تقصد؟ (استفهمت منه)

- لديك كل الوقت لنعرف جدينا سويًا فقد استطعت حجز المكان لما بعد الظهيرة كاملاً.

قالها مماًزحًا. لم تفهم ما يقول لكنها آثرت الصمت واتباعه حتى تفهم فلم تحب إظهار غباؤها للغرباء.

ما إن وصلا غرفة ملفات الأرشيف حتى فوجئت بشخص يخرج منها قائلاً بصوت خافت:

لديك ساعة منذ الآن ثم سأعود.

دلف مالك تتبعه ماسة التي تطلعت نحو الرجل بحيرة لكن الرجل كان يتطلع حوله بنظرات قلقة ثم ما إن دلفت داخل الغرفة حتى تقدم نحو الباب ليغلقه فجأة من الخارج عليهما.

صدمت ماسة فتراجعت نحو الباب متسائلة بصدمة: ماذا يفعل؟

لكن مالك قال محذراً: لا تصدرى صوتاً!

سألت بجزع: لماذا أغلق الباب علينا من الخارج؟

أجابها بتململ: كي يدعنا نتصفح الملف بحرية وراحة.

استمرت بالسؤال: ولِمَ يحتاج حبسنا في الداخل؟

تنهد قبل أن يقول بملل: ماسة، ما بك؟ وددت أن تحضري معي لقراءة ملف قضية قديمة، هل ستظلين طوال اليوم تسألين لم نحن محتجزان في غرفة ملفات في محكمة، والنبش في قضايا لا تخصنا؟ ما بالك اليوم؟ هل تريدان أن نكمل مهمتنا أم أهاتفه لنخرج ونهي هذه المهمة المقيتة؟

أصرت بعبوس: وهل يشترط احتجازنا هنا بين كل تلك الملفات الورقية العفنة لنكملها؟

استدار بملل ليتجه نحو ملف معين موضوع على الطاولة فيتناوله قائلاً لها: إن تفتق ذهنك عن خطة بديلة أرجوك اعلميني! وحتى ذلك الحين سأهتم بقراءة هذا الملف وحدي أو يمكننا فعلها سوياً إن توقفت عن أسئلتك الوجودية تلك وساعدتني على الانتهاء سريعاً.

جلس على المقعد ثم فتح الملف ليبدأ في تصفحه فاندفعت ماسة للاقتراب بخطوات متلهفة وصوت عصاها تطرق الأرض بقوة قائلة وقد نسيت حذرنا وتشككها: هل هذا هو الملف؟

الحماسة أعمتها عن الألم الكامن في قدمها بل كانت مخدراً لها فلم تشعر بألم حركتها المعاقة بتلك الجبيرة المحيطة بقدمها. اقتربت لتسحب مقعداً مقابلاً له فتجلس عليه وقد غلبها حدسها البوليسي قائلة: أطلعني على ما به.

وضعه على المكتب ليفتحه كليًا أمام عينيها فسحبت منه ورقة وحذا حذوها.

انشغل كلاهما بقراءة كل الأوراق التي كان الملف يحتوي عليها بعد أن قام مالك بتوزيع قسم منها بينهما كي يستطيعا تصفحها جميعها قبل أن ينفد منهما الوقت لكن ماسة بتفكيرها البديهي أخرجت هاتفها وقامت بالتقاط صور حصتها من الأوراق، ما دفع مالك ليحذو حذوها مبتسمًا بتهكم:

أفضل القراءة الورقية لكني لا أمانع أن أجاريك فيم تفعلين.

كان الملف ضخماً يحتوي على عدة أسماء للضحايا الذين انضموا للمطالبة بحقوقهم من المركز جراء الاحتيال عليهم. الأسماء المذكورة لم تكن معروفة لهما ولا يوجد اسم عمها أو زوجته ضمن الضحايا.

كل الشكاوى كانت تتضمن قيام الطبيب بمنح عيناته لإخصاب الضحايا من السيدات لكن هناك شكوى وحيدة مختلفة، الشكوى تخص سيدة تتهم بها ممرضة في المركز بأنها حاولت إيهامها بأنها لن تستطيع الإنجاب مرة أخرى، والمفارقة العجيبة أنها كانت تعرض عليها التبرع ببويضة مقابل مبلغ مالي كبير كي تستطيع أن تحمل طفلاً لطالما اشتاقت لحمله بين ذراعها. كادت الضحية أن تصدق لولا أن تصادف أنها أجرت فحصاً في مكان آخر فأخبروها بأنها سليمة وليس لديها مشاكل

تمنعها من الإنجاب فاتهمت المركز بمحاولة النصب وسعيه للحصول على أموالها بشكل غير قانوني.

استوقف ماسة ذلك البلاغ المقدم لاختلافه عن باقي البلاغات. لم يكن يحمل سوى اسم السيدة المشتكية وعنوان سكنها آنذاك أما عن اسم الممرضة التي أوهمتها بذلك الهراء فلم يكن موجودًا.

قالت ماسة لمالك وقد التمعت عيناها بالإثارة: هذه شكوى غريبة تقدم ضد المركز لكنها منتقصة ولا يبدو أن أحدًا التفت إليها أو أخذها على محمل الجد.

التهم مالك السطور بعينيه في صمت قبل أن يرفع عينيه اللامعتين نحو ماسة قائلاً:

هل تظنين أن ذلك الاتهام صحيحًا؟

فكرت بتأني قائلة: كل شيء جائز. دعنا لا نغفل عن أي تفصيل نجده فربما يكون مفتاح خيط لما يحدث.

هز مالك رأسه ثم أخرج دفتراً صغيراً من حقيبته فدون به العنوان قائلاً: إن حالنا الحظ وجدنا أنها لم تغير عنوان مسكنها.

مر الوقت سريعاً دون أن ينتبه كلاهما وهما منهمكان في تصفح أوراق تلك القضية العجيبة، قضية تحكي بين ثناياها أغرب ما يمكن أن تتوصل له النفوس البشرية من الشر

والطمع. تحمل أكبر جرم يمكن ارتكابه بحق البشرية، جريمة اختلاط الأنساب التي حرمها الشرع بكل المقاييس وفي كل الأديان لتستحلها نفوس طامعة بأرباح دنيوية زهيدة وساعية خلف نجاحات شكلية مصيرها الزوال حتمًا.

فوجئ مالك وماسة بالبواب وهو يُفتح ويطل عليهما منه موظف الأرشيف المتواطئ ليسأل بحذر:

هل انتهيتما؟

قال مالك بامتنان: نعم انتهينا! سنرحل الآن.

نهض تتبعه ماسة مقتربًا من الرجل، قائلاً بحرارة: أشكرك على تلك الخدمة التي قدمتها لنا. لن ننسها!

خرج خلف ماسة متمهلاً بخطواته سامحًا لها بالتحرك حثيئًا، وحينما أصبحا خارج مبنى المحكمة توقفت ماسة لتسأل بترقب: والآن، ماهي الخطوة التالية؟

تطلع مالك لساعة يده مفكرًا معها بصوت عالٍ: ما زال الوقت مبكرًا ولذا يمكننا الذهاب لنبحث عن السيدة وفاء صاحبة الشكوى المختلفة؟

تساءلت ماسة عن مدى قرب عنوانها فأخبرها أن العنوان يسهل الوصول إليه مع قليل من الحظ إن كانت الطرقات غير مزدحمة، لذا أوامت برأسها موافقة على فكرته. ثمة غموض

يحيط بتلك القضية تحتاج ماسة لفك طلاسمه بسرعة. الوقت يمر وتفكيرها لم يهدأ وحماسها ازداد اشتعاً كلما اقتربت من كشف غموض خيط من خيوطها لكن يبدو أن القضية تصر على إغراقها بتفاصيل مبهمة لا تعرف لها آخرًا.

اتجه مالك نحو السيارة المصفوفة قائلاً بإحراج: أحضرت سيارتك كي أوصلك بها إلى الفيلا ثم أتركها وأعود بسيارة أجرة. أعتذر لعدم إخباري إياك بما انتويته.

قالت ماسة بسرعة تزيل عنه حرجه: لا عليك! أعلم بأنك وعدتني بإحضارها لي.

ما إن استقرت في السيارة حتى انطلق مالك نحو العنوان الذي كتبه. كان العنوان لأحد الأماكن القديمة في العاصمة والتي من غير المؤكد أن تظل صاحبة الشكوى مقيمة فيه بعد مرور عشر سنوات أو أكثر، لكنها كانت محاولة مستميتة من قبلهما للحصول على بصيص من النور يهديهما في طريق تحقيقهما.

ما إن وصلا العنوان بعد عناء شديد بسبب ازدحام العاصمة في ذلك الوقت المعروف بوقت الذروة حتى كادت ماسة تنفجر من الحنق والملل. أعلنت تأففها بعبارات غاضبة:

أشفق على هؤلاء الذين يقضون حياتهم بين غبار عوادم السيارات، لهم الله!

تبسم مالك من قولها فرمقته بملل: هل قلت ما يجعلك
تبتسم؟

قال وقد اتسعت ابتسامته: كلامك يشبه كلام شخص عزيز
على قلبي. جدتي أطال الله في عمرها دائماً ما تقول لي هكذا
"أشفق على من يعيشون جو المدن الملوثة بكل هذا الغبار، لا
أجمل من الهواء النقي الذي خلقه الله لنا!"

تبسمت ماسة تلقائياً لتقول بمشاكسة: إذًا أنا مثل جدتك!
ربما أحمل نفس حكمة كبار السن!

مازحها قائلاً: سأكتفي بالحكمة فقط ولن أذكر العمر.

انتهى الحوار بينهما عندما وصلا العنوان المنشود، بناية
قديمة في منطقة قديمة مزدحمة. عندما صعدا البناية التي تنقل
فخامة بنائها فيما مضى أما الآن فقد أصبحت متهاكة تحمل
عقب الزمن، قالت ماسة بانبهار: تماماً مثل الأفلام القديمة!

وافقها مالك قائلاً بينما يدور برأسه يتأمل البناية من داخلها:
أحب الأماكن القديمة، تحمل لي نفحات من زمن تمنيت العيش
به.

طرق باب الشقة بحذر مرة فلم يصله رد، أعاد الطرق مرة
أخرى بشكل أقوى دون مجيب. تقدمت ماسة لتضغط الجرس
بالحاح فقال مالك: توقفي يا ماسة! ربما ليس هناك أحد في
الشقة الآن.

عندما استدار كلاهما شاعرين بخيبة الأمل ليستخدما
المصعد القديم هبوطًا، وجدا عيّنين تحدقان بهما بتعجب. كانت
السيدة المسنة تتطلع نحوهما بفضول من خلف باب شقتها
المقابل قبل أن تسأل عمن يريدان فأجابها مالك بهدوء أنه
يبحث عن السيدة وفاء. عندها خرجت من خلف الباب تقف
أمامه وقد عقدت حاجبيها تسأل بفضول أكبر عن هويتهما
تحديدًا. حينها سألت ماسة بلهفة:

هل تعرفينها؟

أجابت العجوز بلؤم: هذا يعتمد على ما تريدانه منها.

اندفعت ماسة بلهفة طائشة تحمل قلة خبرتها: صدقيني
خيرًا، لا نريد منها سوى كل الخير!

لكن العجوز عادت تسأل بإلحاح عن سبب رغبتهما
بمقابلتها فتطلع كلاً من ماسة ومالك نحو بعضهما قبل أن
يقول مالك بهدوء: نريدها بخصوص شيء من الماضي نبحت
عنه.

تفاجأ كلاهما من ردة فعلها إذ حدقت بهما قبل أن تستدير
قائلة بفتور: لست أعرفها!

عادت إلى داخل الشقة مرة أخرى وهمت بإغلاق الباب
فأسرع مالك خلفها قائلاً:

انتظري يا سيدتي، هل تعرفين ما نبحت عنه؟

توقفت لبرهة قبل أن تستدير قائلة لهما: لا أعرف ولا أهتم بالمعرفة فالسيدة وفاء لم تعد تقيم هنا، لقد انتقلت منذ عدة سنوات.

قال مالك بإصرار: لكنني أصر أنك تعرفين ما نبحت عنه. صديقي، نحن نريد بعض الحقائق ليس إلا.

فجرت السيدة العجوز في وجههم القنبلة قائلة: في آخر مرة خدمت أحدهم كادت وفاء أن تفقد ابنها الوحيد، لذا فأنا أخبركما بأني لا أعرف مكانها.

تدخلت ماسة برجاء قائلة: هل كان أحدهم يسعى خلفها؟ أخبريني، من أخبرت عنها.

قالت العجوز بلا مبالاة: يمكنك الذهاب يا فتاة، فلست أريد أن يأتيني تهديد بفقدان حياتي أيضًا. يبدو أن ذلك الماضي العفن لن يدعها وشأنها.

تقدمت ماسة تعرج بقدمها لتتحدث باستعطاف: لكن ألا ترين أننا لن نضرها بشيء؟! أنا أبحث عن بعض الحقائق فقط.

مطت السيدة شفيتها ثم نظرت لقدم ماسة بتعاطف ظهر في عينها. أعقبت بخفوت:

نعم أستطيع أن أخمن بأنك غير قادرة على إيذاها لكنني
أيضًا تخيلت بأن السيد مراد لن يؤذيها عندما أتى سعيًا خلف
بعض الحقائق.

سألت ماسة بتوتر مذعورة: مراد؟ مراد من؟

تطلعت العجوز لوجه ماسة الشاحب بقلق قبل أن تقول:
قدم لي نفسه على أنه رجل أعمال اسمه مراد خطاب و...
لكن ماسة حطت على الأرض فجأة دون سابق إنذار.

الفصل الثاني عشر... الهاضي لا يهوت.

فتحت ماسة عينيها فجأة إثر رائحة نفاذة اخترقت أنفها فأحرقته. استقامت من مرقدها على الأريكة الغربية تتطلع حولها بتشوش، تحاول أن تتذكر ما حدث. وجدت زوجين من العيون يحدقان بها بقلق فسألت بضعف وصوتها لا يكاد يسمع عم حدث لكن مالك وضع زجاجة العطر التي يحملها جاتبا قبل أن يسألها بقلق عما ألم بها فقد سقطت دون مقدمات وسببت الهلع لهما.

تطلعت بخزي نحو وجه السيدة العجوز القلقة قائلة بلامح وجه حزينه أنها لا تعرف ما حدث تحديداً فقد شعرت بدوار مفاجئ ثم أظلمت الدنيا أمام عينيها. حينها تحدثت العجوز بتفهم أنها تفهم الآن سبب إغمائها فقد أخبرها مالك بأن مراد يكون عمها لذا لم تتحمل الصدمة.

ازداد شحوبها قائلة بأسى: عمي الراحل، فقد قُتل منذ عدة ليالي ولا أدري بأي شيءٍ قد تورط فلقد رحل ورحلت معه كل الأسرار ولم أعد أعرف بِمِ أؤمن، أؤمن ببراءته أم تورطه بشيء انبعث من ماضيه فأنتهى حياته؟ فالماضي لا يموت كما يقولون بل يندثر تحت طيات تجاهل الذاكرة ويتغلف بالنسيان بينما يكبر ويستعد حتى يجد فرصة في غفلة من الزمان لينهض نافضاً عنه رماد السنين، كعنقاء انبعثت من بين رمادها لتحترق من جديد بل وتحرق كل من تسبب بدفنها كل تلك السنوات.

ربتت السيدة العجوز التي كانت تجلس على مقعد يجاور
أريكتها على كتفها بحنو قائلة:

لا عليك يا ابنتي! السيدة وفاء أخبرتني بأنها لا تريد أن يعرف
مكانها الجديد الذي انتقلت إليه أي أحد من ماضيها، لذا فأنا
أسفة لأنني لن أستطيع إخبارك بعنوانها الجديد لكن بإمكانني
أن أجيب عن بعض أسئلتك التي تودين طرحها عليها.

سألته ماسة بقلق: هل تعلمين ما حدث تحديداً لها؟

نظرت العجوز نحو موضع قدميها ملياً ثم تنهدت لترفع
رأسها، تنظر نحوها قائلة: نعم، أعلم!

خاطبتها ماسة برجاء: هل تستطيعين إخباري بما حدث؟

ماذا تريدين أن تعرفي تحديداً؟ (سألته العجوز).

- كل شيء! كل ما تعرفينه عن موضوع الشكوى التي
رفعتها في المحكمة ضد الطبيب إياه.

بلهفة شديدة قالت ماسة فصمتت العجوز تستجمع
أفكارها ثم قالت بعد فترة بصوت بطيء منهك:

_ حدث هذا منذ عدة سنوات...

أمي، لم لا أستطيع أن أحظي بطفل كما تفعل كل الأمهات؟
هل أنا منقوصة؟

هوني على نفسك يا ابنتي، لا تعترضني على قضاء الله.

قالت وفاء من بين دموعها الغزيرة: لا أستطيع يا أمي، لا
أستطيع!

ثم علا نשיجها مرة أخرى مكملة: صدقيني، قلبي ممتلئ
بالحسرة منذ أن أخبرتني الممرضة بعدم قدرتي على الإنجاب.

يا حبيبتي، لا تعترضني على قضاء الله! من هي كي تخبرك
بقدرتك أو عدم قدرتك؟

إنها تعمل مع الطبيب المكلف بحالتي يا أمي. لقد أثبتت
الفحوصات عدم وجود بويضات لدي صالحة للإخصاب. (قالتها
بحسرة شديدة ثم عادت تنشج بالهم) أخبرتني بأنني إن أردت
أن أحمل طفلًا من صلبي فعلي أن أقبل بما تقترحه علي.

سألتها الأم بلهفة: وما هو اقتراحها؟

أجابت وفاء بتردد: أن أقبل تبرعًا بالبويضات.

كررت الأم بعدم فهم: ما هو ذلك؟

صمتت وفاء قبل أن تقول بحزن مريض: أن أقبل بويضة من سيدة أخرى كي يتم تلقيحها ووضعها داخل رحمي حتى تنمو إلى جنين.

عقبت الام بصدمة: لكن أليس هذا حرامًا؟

تطلعت نحو والدتها بألم قائلة: لا أستطيع فقدان زوجي! تعرفين كم يريد الإنجاب، ولم أستطع إخباره بعدم قدرتي بعد.

عنفتها الأم: وهل من أجل زوجك ترتكبين ما حرمه الله؟ كيف تفكرين هكذا يا ابنتي؟

طأطأت وفاء رأسها بخزي: وما الحل الذي ترينه يا أمي؟

انهضي معي! سوف أثبت لك أنك سليمة وليس هناك ما يعيبك. موضوع الإنجاب هذا قضاء الله يا ابنتي. لا نستحل ما حرم الله لأجل مطامع دنيوية.

بغضب صرخت بها والدتها فنهضت بخزي بينما تتمتم بانكسار معذرة عن تفكيرها القاصر آنذاك...

صمتت العجوز تلهث وتلتقط أنفاسها قبل أن تتطلع نحو ماسة الفاغرة فاها بعدم تصديق. سعلت فأسرع مالك يناولها كوب الماء الموضوع على الطاولة أما ماسة فسألت بتوتر: وماذا حدث؟

تناولت العجوز الكوب لترشف منه عدة رشفات صغيرة قبل أن تضع الكوب قائلة: معذرة، لقد عدت لفترة سيئة من الذكريات.

ثم عادت لتكمل: ذهبت وفاء مع والدتها إلى طبيب ذو سمعة طيبة تعرفه الوالدة من إحدى الجارات، وقد كان أن طلب منها عدة فحوصات لها ولزوجها ثم أخبرها بعدها أنها بخير وأن تأخر الحمل ما هو إلا قضاء الله وعليها أن تستسلم لقضائه. هدأت بعدها وفاء وبعد مرور وقت قصير اكتشفت حملها ثم تفجرت تلك القضية التي تخص ذلك المركز فما كان منها إلا أن توجهت للمحكمة للشهادة ضدهم رغم تحذير الأم لها بألا تفعل.

سألت ماسة بقلق: وما علاقة عمي مراد بالسيدة وفاء؟

قالت السيدة العجوز بحذر: لا أدري يا ابنتي! لقد أتى منذ حوالي العام، يسألني على السيدة وفاء ويستفسر بخصوص شكاواها التي دمجتها بأوراق القضية منذ عشر سنوات. (تنهدت قبل أن تكمل) وقد تطوعت بأن أعطيته عنوانها، وخبونا ماذا؟!

سألت ماسة بتوتر: ماذا؟

قالت المرأة العجوز: في اليوم الثاني الذي ذهب به عمك إليها، أتاها تهديد خفي من رجل لا تعرفه بأنها ستفقد ابنها وربما

حياتها أيضًا إن تحدثت بذلك الموضوع مرة أخرى، لذا وعدتها بأنني لن أخبر أحدًا مرة أخرى عن مكان سكنها أبدًا.

تهدت ماسة براحة: إذا عمي ليس مسؤولًا عن ذلك التهديد.

جاء دور العجوز لتسأل: وكيف تكونين متأكدة من هذا؟

قالت ماسة مفكرة: بالمنطق والعقل، أخبريني كيف كان عمي يسعى لمعلومات بخصوص القضية وبنفس الوقت يرسل لها تهديدًا بعدم الكلام؟ إنه غير منطقي البتة.

تدخل مالك الذي كان صامتًا طوال الوقت قائلاً: هذا ما يخطر بالبال، لكن من الذي عرف أن عمك كان يبحث خلف تلك القضية؟ حينما نعلم تلك الإجابة ستتضح كل الحقائق.

هزت ماسة رأسها موافقة ثم نهضت واقفة لتقول بهدوء: بالفعل! هذا ما نريد البحث عنه. هل تتكلمين يا سيدتي وتجعلين ابنتك تقابلنا بمكان ما خارج منزلها؟ أتعهد إليك بأني لن أخبر أحدًا عن موعد ذلك اللقاء أو مكانه.

تطلعت نحوها العجوز بصمت للحظات ثم قالت بهدوء: يمكنك ترك رقمك هنا، وحينما توافق على مقابلتك سأعطيك رقمك لتتواصل معك.

أخرجت ماسة ورقة صغيرة من المذكرات اللاصقة فكتبت عليها رقم هاتفها ثم ألصقتها على دولا ب الفضيّات القديم قائلة

برجاء: أمل أن توافق على مطلبي البسيط فأنا لا أسعى سوى
لمعرفة الحقيقة، الحقيقة التي بسببها قُتل عمي.

قالت العجوز بتعاطف: البقاء لله يا ابنتي.

خرجت ماسة من الشقة يتبعها مالك لكن العجوز جذبت
ذراعه قائلة بهمس في أذنه: أفضعها بالتخلي عن بحثها ذاك فهو
يحمل الخراب أينما حل.

بأسى بالغ قال لها مالك: لقد حاولت لكنها عنيدة متصلبة
الرأي.

هزت العجوز رأسها قائلة: إذًا حفظها الله لك يا ابني، تبدو
فتاة قوية رغم ما تمر به من الصعاب.

تبسم مالك قبل أن يغادر الشقة ليلحق بماسة أمام
المصعد، يتطلع لشحوبها وعدم اتزان خطواتها بأسف. لا يجرؤ
على تقديم المساعدة لها فسترفضها حتمًا كما اعتادت.

تنهدت ماسة بأسى قائلة: إذًا عمي كان يبحث عن لغز ما لا
نعرفه بعد. أرجو لو باستطاعتي معرفة ما كان يبحث عنه.

قال مالك بتفكير: ربما كان يبحث لنفس الأسباب التي
نبحث خلفها الآن.

قالت ماسة برفض: لا هناك شيء مختلف. لا تنس ذلك
الصك الشخصي المكتوب باسم الطبيب المتهم! هناك حلقة
مفقودة يا مالك ولا نعرفها وربما لن نعرفها أبداً.

صمتت عاقدة حاجبها بتفكر فتطلع مالك نحو ملامحها
الحادة المتجهمّة ثم سأل بفضول: فيم تفكرين؟

استدارت تقول بينما تبرق عيناها بنظرة لامعة بدت أقرب
للجنون: لو نستطيع إيجاد ذلك الطبيب!

عقب مالك بدهشة: تريدان لقاء الطبيب؟ أنت تلعبين بالنار
بحق.

بعناد بالغ أجابته: وماذا لو فعلت؟ لا أظنه سيقتلني!

سألها بغضب: أنسيته التهديد الذي تلقته وفاء عندما
تحدثت مع عمك؟

أجابته بإصرار: ذلك أدعى للبحث خلفه يا مالك فلقد تورطنا
وانتهى الأمر، لا داعي للخوف!

برفض قاطع عنفها: لن تفعلي ذلك! لن نتحدثي مع أي
شخص قد يكون هو القاتل أو على معرفة به!

احتدت بالقول: وما مصلحة ذلك الطبيب بقتل عمي؟ لقد قبض منه مالاَ ولاَ أظنه سيخرج من السجن ليرتكب جريمة قتل تفضي به إلى الإعدام.

أعاد كلامه على مسامعها بتصميم أقرب للحدة: لن نتحدثي معه يا ماسة!

بغضب متصاعد سألته: ذكرني من تكون كي تملي على ما أفعله!

أجابها بلهجة تهديد: لقد وعدتني قبل أن أبدأ بمساعدتك أنك ستتوقفين عن مواصلة البحث إذا ما استشعرنا الخطر، فهل ستلتزمين بوعدك؟

كتفت يديها بعناد دون أن تجيب سؤاله وظلت تتطلع للأمام بتصميم، فتابع بغضب: إذاً فلقد استغلّيتني كي تصلي لهدفك!

استدارت نحوه قائلة ببرود: لم أستغلك! قطعت وعدًا لك ولا أظنني أحب أن أفي به الآن.

حدثها بأسف: وهذا ما يسمى بعدم المصادقية يا ماسة. ما إن تقطعي وعدًا فعليك الالتزام به حتى آخر عمرك.

بسخرية مريرة سألته: وإلاَ ماذا؟

تطلع نحوها مليًا. انتابته فكرة أنها فتاة معطوبة داخليًا تحب الإبحار وحيدة ولا تثق بأحد، تجد أن العناد وسيلة لإثبات ذاتها وتحقيق أفكارها. قال بهدوء يحمل لهجة التأنيب:

ليس تهديدًا يا صديقة بل ذلك من صدق الحديث.

أصابها الخجل من ضربته لها بالصميم لكنها قالت بعناد: وإن يكن! أعتذر منك لأنني لا أستطيع التوقف، سأكمل الطريق حتى نهايته يا مالك.

قال بصوت حزين: حتى وإن كان تصميمك يحمل الضرر للأخرين؟

تطلعت نحو وجهه سائلة بتحدٍ: مثل من؟

لوح بيده قائلاً: الجميع يا ماسة، الجميع، قد تكون زوجة عمك أول المتضررين أو قد يكون عمر وربما كلاهما. أم أنك لم تفكري بأن إصرارك على ما تريدين سيسبب الأذى لهما؟

أطرقت بوجهها تخفي دموعًا متجمعة بعينيها فتابع بإصرار: لماذا برأيك أصر عمك على إخفاء تلك الحقائق؟ أليس هذا أكثر مدعاة بأن تحترمي رغبة رجل ميت فتوقفي بحثك خلف المجهول وفي متاهات ماضٍ شائك؟

لم تجبه لعدة دقائق فالتزم الصمت بدوره وعندما رفعت عينيها أخيرًا تنظر نحوه، هالته غلالة الدموع الرقيقة التي تغلف عينيها الجميلتين. قالت بصوت خرج شاحبًا كشحوب وجهها:

أنا فقط لم أستطع أن أمررها كما مررتها لوالدي من قبل.

تمررين ماذا؟

وفاته. لم أستطع التغاضي عن رحيل آخر شخص أهتم لأمره وأتركه يرحل بلغز غامض كما فعلت مع والدي! حينها لم أجد ما أبحث خلفه بكل تلك الضراوة فقد مات ميتة طبيعية في فراشه إثر أزمة قلبية ولم يجد من يسعفه. شعرت بوقع الخبر على حياتي كأنه صاعقة قلبت كياني رأسًا على عقب. شعرت أنهم سحبوا الهواء من صدري فأطبق صدري على بعضه وصرت أختنق. لم أكد أتعافى وأستعيد بعضًا من أنفاسي حتى انسحبت من جديد بموت عمي، عمي الذي وجدت السلوى في كفه التي امتدت لأستند عليها فتعدل كفة حياتي المائلة ويعيد التوازن لحياتي المختلفة بعد رحيل والدي. لا أستطيع التوقف الآن! أريد أن أجد طريقي بنفسني، أريد أن أعرف لماذا أفقد الواحد تلو الآخر من كل من أحبهم؟

واساها قائلاً وقد أوجعه قلبه لكلامها: استغفري الله يا ماسة! إنه قضاء الله.

رددت بحزن دفين: استغفر الله العظيم. لا أقصد المحاكمة لكن أشعر بأن هناك سرا في حياتي يصير على النيل من كل من أحب. أريد أن أطمئن بأني بذلت كل ما في وسعي كي أحافظ على من تبقى لي من أحبائي.

قال مالك شاعرًا بالأسف تجاهها: ولن تفعلي بسعيك الدؤوب خلف بعض الأفكار المبهمة فالأقدار كتبت قبل أن نُخلق، ولو قدر لأحدهم بأنه سيموت فسيفعل دون أن تدفعي عنه أجله ثم لماذا تظنين ذلك؟ ربما كان موته مجرد حادثة قتل للسرقة يا ماسة!

مدت يدها تمسح بقايا دموعها المتحجرة قبل أن تعود لإصرارها: لا يا مالك، ليست حادثة سرقة! كل المؤشرات تشير نحو سر قبيح عاد من الماضي ليقتله حتى وإن سعى لجعل الحادثة تبدو وكأنها قتل بغرض السرقة. (صمتت ثم عادت تكمل بقوة) لا تنس أنني تعرضت للوخز وأيضًا جمانة أُصيبت بارتجاج في المخ بسبب ذلك الماضي.

تنهد مالك قائلاً: أصدقك في تلك الجزئية لكنني أخشى تبعات التنقيب في ذلك الوحل.

اندفعت مؤكدة وكأنها تعفيه وتزيح حمله عن كاهلها: يمكنك التنحي يا مالك، فليس لك ناقة ولا جمل فيما يحدث. أما أنا فليس لدي ما أخافه! حتى حياتي أصبحت دون فائدة.

سألها بفضول: لم تقولين ذلك؟

تطلعت نحو الأمام وقد قست ملامحها فغفلت عن عيني مالك المحدقتين بوجهها، تقرأ تعبير القسوة عليها بصمت. عادت لتستدير نحوه قائلة: ربما لأن الحياة لم تكن عادلة بشأنني قليلاً.

قال بفضول: الآن والدك قد توفي ثم تلاه عمك؟

تنهدت قائلة: أنت تعرف الجانب الأقل سوادًا من حياتي. لا تهتم!

قال بفضول: إذا أخبريني أنت، صدقًا سأكون متفهمًا لما تقولين.

صمتت تتطلع لوجهه. وكأن اللحظات توقفت أمامها فأصبحت معلقة أمام عينيها ترى من خلالها وجهها ضبابيا لشخص يحاول أن يدخل نفسه في صفحات أغلقتها بإحكام، وأن يقحم نفسه عنوة بين سطور كتبتها منذ أعوام. نظراته القلقة المتلهفة لكلامها غريبة عليها. لم تجد من يهتم بها أو بتفاصيل حياتها من قبل! لم تصادف شخصًا اهتم بما تخفيه داخل قلبها أو أبدى اهتمامًا بمشاعرها! كل أصدقائها اكتفوا بتمضية فترة الدراسة بمرح دون الدخول في مشاكلها أو الاهتمام بها، وبالمقابل لم تفكر بتأناً بمشاركة أحدهم بقصة حياتها البائسة. ظلت عيناها معلقتين بعينيها قبل أن تستدير بغتة وتقول

بصوت مغاير وكأنها تهرب من تلك الأفكار المتلاطمة: هل يمكننا الذهاب الآن؟ أحتاج الراحة.

أدار المحرك بصمت ثم تحرك بالسيارة نحو فيلا عمها، يراقب جمود ملامحها بين الحين والحين بحيرة.

في داخله ارتفع مؤشر الفضول نحو القمة فماسة بحد ذاتها لغز، لغز كبير يستحق البحث خلفه حتى النهاية.

توقفت السيارة عند إحدى الإشارات المعروفة بازدحامها وطول فترة إغلاقها. انزعجت ماسة من الازدحام وعبرت عن ذلك بعبارات متأففة مما دفع مالك للتبسم متعاطفًا معها والقول إنه أيضًا يكره الازدحام لكنه مجبر على التعود عليه فالحياة في العاصمة لها ضريبة تستحق الدفع. حين لم يجد منها ردًا استدار ينظر نحوها ليجدها تحدق بصدمة إلى الرصيف المجاور لجهته من السيارة. بحث عيناه حيث تنظر فوجد بعض المارة المتوقفين على الرصيف أمام بناية ضخمة تبدو وكأنها مستشفى خاص.

عاد يتطلع نحوها باهتمام متسائلًا بقلق: هل هناك ما يلفت نظرك؟

تفاجأ من تصرفها إذ أخرجت هاتفها تطلب رقمًا ما بسرعة
 وحينما وصلها الرد من الطرف الآخر خرج صوتها متلهفًا متوترًا:
 مرحبًا فيروز، ما أخبارك؟ ماذا تفعلين الآن؟

ردة فعلها ازدادت غرابة وهي تميل برأسها نحوه أكثر
 لتحقق خارج النافذة حتى كادت تلمس كتفه برأسها بينما تقول
 بصوت خرج مهتزًا: أه، أنت تذاكرين لأن لديك امتحانًا في آخر
 الاسبوع! هل فاتني ذلك؟

صمتت قليلًا قبل أن تقول: لا، أردت الاطمئنان عليك وعلى
 أحوالك. حسنًا! سأنتظر.

قالتها ورفعت الهاتف عن أذنها وظلت عيناها تحدقان في
 المجهول فهمس مالك بتوتر: ماذا يحدث؟

وضعت إصبعها على شفيتها مشيرة بالصمت ثم أشارت
 خارجًا نحو جهة ما، قائلة بهمس أكثر خوفًا من همسه: أنا أنتظر
 ما سيحدث.

تطلع مالك نحو الجهة المشار إليها فوجد سيدة متأنقة غير
 محجبة تبدو صغيرة السن، ترتدي ملابسًا أنيقة تظهر قوامها
 الرشيق وتوحي هيئتها بأنها تتقن اختيار ملابسها ومظهرها؛
 تقف بجانبها شابة صغيرة بسيطة المظهر ترتدي سروالا من
 الجينز وكنزة صوفية طويلة تحمل رسمًا كارتونيًا وحجابًا صغيرًا

يغطي شعرها، ولا تضع أية مساحيق تجميل على بشرتها ورغم ذلك بدت جذابة بطفولتها وبراءة ملامحها.

تابع الفتاة التي تتحرك لتقف بجانب السيدة بينما يتجه نحوهما من مدخل البناية رجل متوسط البنية، من هيئته الفخمة يبدو أنه ذو منصب ويرافقه شاب طويل نحيل القامة أنيق الهندام مثل الرجل الأكبر سنًا. ظل مالك يتابع ما يحدث بغباء أما ماسة فقد كانت متصلبة الملامح بشكل يقطع القلب.

صافحتهما الفتاة بعدم اكتراث ثم أشارت للهاتف بيدها بمعنى أنها ستكمل مكالمتها. استدارت بعيدة عنهما عدة خطوات فرفعت الهاتف لتضعه على أذنها تعاود مكالمتها. أسرع ماسة ترفع الهاتف لأذنها مرة أخرى وقد بدت عيناها زجاجيتان ميتين بشكل غريب. أتاها صوت فيروز المتوتر:

نعم يا ماسة، معذرة كانت أُمي تحدثني.

قالت ماسة بجمود: لا عليك! وددت التأكد أن كل شيء يسير على ما يرام.

ضحكة صفراء غريبة أتنها من فيروز لتسعل بعدها قائلة باختناق: ولمَ سيكون عكس ذلك؟

أجابتها أختها بنفس الجمود الظاهر على وجهها وصوتها: بعد كل هذه الأشياء التي حدثت خلال الأسبوع وددت أن أطمئن أنك بخير وتبلىن جيدًا.

وكان فيروز شعرت بجمود ماسة فقالت بصوت فاتر لم ينجح بإخفاء توترها:

اطمئني يا ماسة فلدي إثارة تهتم لأجلي ولمستقبلي، اهتمي أنت بنفسك جيدًا (صمتت قليلاً ثم أردفت بسرعة وكأنها تحتاج إنهاء المكالمة) معذرة يا ماسة سأنهاي المكالمة الآن فيإثار تناديني ولا أريد أن أغضبها.

كانت السيدة في تلك الأثناء قد استدارت نحو الفتاة تشير لها بإنهاء المكالمة وحين اقتربت منها ابنتها أنبتها بهمس مغتاظ: هل هذا وقت تلك المكالمة؟

أجابت الفتاة ببرود: نعم إنه توقيت مهم بالنسبة لي لأستقبل هذه المكالمة. لن تمنعيني من التحدث معها أيضًا.

همست السيدة بغیظ مكتوم بينما ترتسم ابتسامة صفراء على وجهها: عقابك سيكون في المنزل. ألا يكفيني شكلك البشع الذي أصريت على الخروج به؟ أنت بالفعل خيبة أمل كبيرة يا فيروز.

قالتها لتستدير مرة أخرى نحو الرجل المتوقف فتبتسم ابتسامة واسعة، قائلة بدلال:

هيا لنذهب فلقد تأخرنا كثيرًا.

في تلك الأثناء وصلت سيارتان من المرآب فتوقفنا أمامهم ليصعد إليها الأربعة، كل اثنين منهما في سيارة. كان واضحًا أن فيروز تبدي تدمرًا من استقلالها السيارة مع ذلك الشاب النحيل بينما أسرعت إيثار لركوب السيارة بكل غنج ودلال مع الرجل الأكبر سنًا. حينها فتحت الإشارة إيدانًا ببدء التحرك.

سألته ماسة برعب: هل يمكنك ملاحظتهم؟ أريد معرفة إلى أين سيذهبون؟

جاء دور مالك ليسأل بحيرة بينما يستدير بالسيارة كي يأخذ المنحنى المقبل لعكس الطريق: من هم؟

همست ماسة بصوت متوتر خائف: تلك فيروز أختي والأخرى أمها أما ذاك الرجلان فلا أعرفهما.

تعجب مالك: تقصدين أن تلك المتأنقة المتبرجة زوجة والدك؟

صححت ماسة بغیظ: أرملته يا مالك، فوالدي مات منذ عامين وقد تبرجت بعد وفاته.

سألها بفضول: ولم أنت متوترة بشأنهما؟

احتدت بالقول: لأن أختي الصغرى أخبرتني للتو بأنها تستذكر دروسها في المنزل الذي يبعد حوالي ساعة عن هنا بينما هي في مكان آخر مع والدتها الخبيثة، تقابلان شخصين مجهولين لي لم أرهما من قبل. أختي التي لم تكذب عليّ من قبل ولا أدري لم تفعل ذلك الآن؟

سألها مالك بتذاعي: وكيف تعرفين أنها لم تكذب عليك من قبل؟ ربما فعلتها مرارًا دون أن تنتبهي لها.

وجمت ماسة تحديق بوجهه وقد التزمت الصمت فلم تنطق بكلمة. شعرت بالصدمة من كلامه الذي ضرب قلبها في الصميم وشلّ كل مراكزها العقلية عن التفكير بشكل صحيح فكيف تتحدث بهذه الثقة ومن أين لها التأكد من ذلك؟ من المؤكد أنها فعلتها من قبل، ولشدة حبه لها لم تنتبه لذلك.

أخيرًا أدارت رأسها تتطلع نحو السيارة التي بدأت بالتحرك عند اقترابهما منها. قالت بصوت متعب اختزن داخله سنوات من الظلم والقهر: أوقف السيارة هنا!

أوقف السيارة في المكان الذي كانت السيارة التي استقلتها إيثار منذ قليل متوقفة فيه. ترجلت ماسة دون أن توجه كلمة لمالك فخرج بإثرها يسأل بتوتر: أين تذهبين، ألا تريدين ملاحقة السيارة الهاربة؟

أجابته باستكانة لا تظهر ما يعتمل داخلها من اشتعال:
انتظرنى قليلاً فقد خطر ببالي فكرة أفضل، سأعود سريعاً.

استدارت تتحرك نحو حارس الأمن الجالس عند مدخل
البناية وتحدثت معه قليلاً. من موقعه لم يستطع مالك سماع
ما تقول لكنها بدت وكأنها تبحث عن بعض الإجابات لدى ذلك
الحارس الذي كان ينظر لعصاها وقدمها المجبرة بتعاطف.
عادت بعد قليل متجهة الملامح يغلفها صمت أسود الملامح
وكانه يقيم الحداد تعاطفاً معها. اتكأت على العصى حتى
تجلس على مقعدها فهرع مالك ليساعدها ويأخذ منها العصى
ويضعها في الخلف قبل أن يعود لمقعده ليتحرك بالسيارة من
جديد منتظراً أن تتحدث، وأخيراً فعلت: لقد تعبت، خذني إلى
المنزل رجاءً.

علا الاستهجان ملامحه قبل أن يسألها بهدوء: هلا أخبرتني
بما حدث منذ قليل؟

قالت بلا مبالاة بينما تستدير لتدفن وجهها في النافذة
المجاورة، تخفي عنه ألم عينيها المنكسرتين:

لقد علمت من هما الرجلان، أحدهما صاحب المستشفى
والآخر طبيب نفسي يعمل معه. ربما يكون ابنه، لست متأكدة
ووجهتهما نحو نادي (...).

سأل بتوتر: هل تريدان اللحاق بهما؟

قالت بحزن خرج جليًا بصوتها: كلا! أريد أن أستلقي في الفراش فأنا أشعر بالمرض.

عصف به القلق وتمزق قلبه لأجلها فسأل بتوتر: هل ينبغي أن نزور طبيبًا؟

تبسمت بسخرية قائلة: كلا! لا أطباء بعد الآن.

فهم مغزى سخريتها فقال ببساطة: ليس كل الأطباء مخادعين يا ماسة.

استدارت نحوه بإعياء قائلة بألم نفسي أكثر حدة من مرور شفرة على روحها المهترئة: في كل خطوة أخطوها يظهر لي اسم طبيب ما. لا أعرف بم أشعر الآن أو بم أفكر، أريد الاستلقاء والنوم.

شعر بحيرتها وتخبط تفكيرها فواجهها قائلاً: أنت تهربين من الواقع بالنوم، أليس كذلك؟

قالت وكل هموم الدنيا تمتطي ملامح وجهها فتلونها بالبؤس: ليس هربًا بل هدنة أحتاجها كي أستعيد صفاء تفكيري. لا أعرف بمن يجب أن أثق بعد الآن. (استدركت بحزن) بخلافك بالطبع.

بهدوء تتخلله شذرات من السعادة والامتنان، همس لها:
تكفي ثقتك بشخص واحد كبداية، ويشرفني أن كنت موضع
ثقتك.

هزت رأسها بهدوء ثم عادت لتستند على النافذة، تحديق
بالمجهول وتشعر أن قلبها يؤلمها. تريد الرحيل، تريد أن تهرب
إلى مكان لا تعرف فيه أحدًا ولا يعرفها أحد، فلقد أثقلتها الدنيا
بحمل لم تعد بقادرة على حمله. كل ما كانت تهمس بها لنفسها
بينما تغمض عينيها "ليته يكون حلمًا! ليتني أستيقظ فأجد
أنني كنت أحلم!" غرقت في ضباب أسود يحجب تفكيرها،
مشاعرها، وآهاتها. تكتم داخلها نحيبًا عجزت روحها أن تزفره
فأحرقها بلا هوادة.

الفصل الثالث عشر... غهوض.

دقت الساعة منتصف الليل وماسة جالسة في فراشها، تحرق في الفراغ غير عابئة بمرور الوقت. لا تعرف ما هو التصرف الأمثل الذي يجب أن تتخذه حيال فيروز. لم تعاود الاتصال بفيروز مرة أخرى وهي بدورها لم تتصل. القلق العاصف بمشاعرها وتفكيرها كان رفيقها منذ عودتها من الخارج. تحاول أن تعرف منذ متى وفيروز تتصرف بمثل تلك التصرفات المراوغة. هل كانت تفعل ذلك طوال العمر وهي لشدة حبتها لها كانت تغفل عن تلك التصرفات؟ أم أن هناك مصيبة ما تحاول فيروز أن تجنب ماسة معرفتها؟ وجود إيثار مع فيروز لم يشعرها بالاطمئنان أبدًا بل العكس، ازداد قلقها وإحساسها بالتوجس مما قد تخطط له فهي أبدًا لم تتفائل خيرًا بتصرفاتها.

طرقات خفيفة على باب غرفتها أصابتها بالقلق، فمن في الفيلا كان مستيقظًا مثلها إلى ذلك الوقت؟ لم تفكر بالرد على الطارق فقد قررت التظاهر بكونها نائمة أو ميتة، لا يهم! لكن صوت عمر الهامس أثارها منخفصًا: ماسة، افتحي الباب! أعلم أنك ما زلت مستيقظة.

صمتت قليلًا لكن اصراره على طرق الباب دفعها لتنزع نفسها من بئر الصمت فتجيبه بضيق:

أنا أحاول النوم.

تسلل همسه الساخر من خلف الباب المغلق: ولن تنامي يا ماسة، فأنا أعرفك أكثر من نفسك.

تأففت لتعتدل على فراشها ثم تقول بضيق بعد أن وضعت حجابها على رأسها كيفما اتفق:

ادخل أيها الظريف.

فُتح الباب ليطل عمر برأسه قائلاً: هل أدخل أم ستقذفيني بشيء على رأسي؟

لوحث بيدها قائلة بغیظ: يعتمد على سبب زيارتك، ماذا تريد؟

مد يده فأشعل الإضاءة ثم تقدم بخطوات قليلة ليقف خلف الباب قائلاً: قبلاً أردت الاطمئنان على قدمك.

تطلعت نحوه بنظرات تحمل ضيقاً قائلة: إنها بخير. أما كنت تستطيع الانتظار للغد حتى تمارس لطفك الزائد بخصوص قدمي؟

علق بابتسامة خفيفة على كلامها: تعرفين أنك لن تخيفيني بطريقتك الفظة هذه.

تنهدت لتقول بتأفف: لا أريد إخافتك! أنا بالفعل متضايقة.

قال بهدوء بينما يتقدم ليسحب كرسيًا فيجلس عليه في منتصف الغرفة: أعرف يا ماسة، وهذا ما دفعني للقدوم إليك في هذه الساعة فقد أخبرتني أُمي أنك منذ عودتك لم تغادري الغرفة، وأنا أعلم بأن تلك حالتك حينما تتضايقين.

غمغمت بتوتر: أنا بخير، ربما كنت مرهقة بعض الشيء.

لكنه تابع بقلق: أعرفك جيدًا يا ماسة، هل تخفين عني شيئًا؟

رفعت عينيها تنظر نحوه بتحفظ متسائلة: وهل تفعل أنت؟

توتر عمر، نعم لقد توتر ورقّ بجفنيه مرتين متتاليتين قبل أن يقول بسرعة: وماذا سأخفي؟

اعتدلت ماسة لتقول بقوة بعد أن قرأت توتره: لا أدري! أخبرني أنت، إذ يبدو بأنك تعرف شيئًا ما وتخفيه عن الآخرين أو ربما فعلت شيئًا لا تستطيع تحمل تبعاته.

كانت مغامرة محسوبة من جانبها أن تضغط على عمر، نعم مغامرة وليدة اللحظة دفعتها إليها رؤيته متوترًا. تعرف جيدًا بأنه لا يجيد إخفاء الأسرار، لطالما كان عمر الطرف الأكثر ضعفًا في علاقة صداقتهما البعيدة؛ لذا فكرت بأن ممارسة قليل من الضغط عليه كفيلة بأن يكشف سره لكنه تكلم بتوتر مراوغًا: وماذا لو كنت أفعل؟ فأنا لن أفعل شيئًا يضر من أحبهم.

قالت متملقة تحته على الكلام باللين من جانبها: أخبرني ماذا تخفي وحينها ربما تتعاون سوياً!

نهض من مقعده قائلاً برفض قاطع: انسي الأمر، لقد جئت لأطمئن عليك لا لأعترف لك بمكنون قلبي.

قالت بخبث: وماذا سيحدث لو شاركتني ما تخفيه فأنا أجد التصرف أكثر منك، وربما أجد لك بعض المبررات لما تفعل.

رمقها بغیظ قائلاً: لن يجدي استفزازك لي شيئاً بكلامك الغريب هذا الذي لا أفهم إلام تلمحين به! أردت الاطمئنان أنك بخير ولو غيرت رأيك وقررت البوح بما تخفينه عني فربما حينها سأكون أكثر عدلاً منك وأخبرك بكل شيء.

قالت لتمنعه من المغادرة: لست أخفي شيئاً! أنا فقط أجري تحريات خاصة وقد تفضي إلى لا شيء.

توقف مكانه وقد بان في عينيه بعض اللوم: بخصوص مقتل والدي؟ أعرف ما تفعلينه. أردت معرفة ما توصلت إليه.

تبرمت قائلة: لا شيء حتى الآن فكل الطرق تؤدي إلى حائط صلب لا يمكن تخطيه.

حفزها حين لاحظ احباطها: يمكنك استخدام ذكائك والالتفاف حوله.

تطلعت نحوه بصمت قبل أن تقول بتباطؤ متعجبة من
رباطة جأشه التي صار يتمتع بها الآن:

فكرة جيدة، سأفكر بها. (ثم أكملت بتلهف) ألن تخبرني بما
توصلت إليه؟

فكر قليلاً قبل أن يقول بتوتر: ستعرفين كل شيء في وقته،
فما أعرفه لا يصدق.

كانت نظراته نحوها عجيبة وكأنه متردد حيال أمر ما ويخشى
تنفيذه أو إخبارها به. ظل هكذا للحظات ثم استدار مغادراً
ليقول قبل أن يغلق الباب خلفه: سررت أن قدمك بخير.

تطلعت نحو الباب المغلق قبل أن تعقد حاجبها قائلة:
لست أفهم شيئاً! ماذا كان يفعل هنا؟ هل جاء ليثير حنقي
فقط؟ ثم ماذا قصد بما لا يصدق؟ هل عرف هوية القاتل أم
يحاول درء الشبهات عنه؟

وبقيت أسئلتها عالقة في فضاء الغرفة تبحث عن إجابة
منطقية تشفي حيرتها وقلقها.

تناولت هاتفها الملح بالاتصال الذي أيقظها من النوم بقلق.
لا تستطيع التركيز في قراءة الاسم المكتوب على الشاشة
ففركت عينيها عدة مرات حتى طار النعاس منها وأصبحت

الرؤية جيدة. وجدت أن المتصل مالك زيدان فطالعت الساعة لتجدها قد تجاوزت التاسعة صباحًا بقليل. ما إن أجابت اتصاله حتى سمعت صوته يأتيها موبخًا بمزاح عن طول فترة نومها فتنحنت مرة كي تجلو صوتها الناعس لتدافع عن نفسها: لم أنم جيدًا أثناء الليل! بل لم أنم جيدًا منذ...

ثم صمتت. فهم مالك رغبته بالقول إنها لم تتم منذ وفاة عمها لذا أسرع يؤكد بأنه سعيد لأنها استطاعت أخيرًا الحصول على قسط وافر من النوم. لم يعلم بأنها لم تتم أكثر من عدة ساعات قلقة تخللتها أحداث درامية تطاردها في حلمها حتى أنها تشعر الآن بعد استيقاظها وكأن قطارًا دهسها فمزق أوصالها كما مُزقت روحها.

تمتت تشكره ثم صمتت. وعيها لم يعد إليها كاملاً كي تزن كلامها فالتزمت الصمت عله يتطوع من تلقاء نفسه ليخبرها عن سبب اتصاله. أتاها اعتذاره بلياقة عن إيقاظها ثم أخبرها بأن جلسة إعلان الوراثة ستكون في الغد في مكتب السيد أمجد، ويشترط حضور جميع الورثة الشرعيين. تعجبت ماسة من اشتراط حضورها وفيروز إلى تلك الجلسة فعمها له وريث بالفعل وهو عمر لكن مالك أخبرها أن ذلك كان شرط عمها حين سلم وصيته للمكتب، وعليهم جميعًا الحضور إلى المكتب عند التاسعة صباحًا لكن ردة فعلها حيرته. الصمت بسط سحبه في الأجواء حتى قطعته بكلمتين لا ثالث لهما: لا أستطيع!

لا تستطيعين ماذا؟

خانها صوتها فبدأ بالارتجاف: أجد كل ذلك غريبًا فما زلت غير مستعدة لسماع وصيته. لا، لن أستطيع! حينها سوف... (تقطع صوتها فصمتت).

حينها سوف تتأكدين بأنه مات بالفعل دون أن يحرك أحدهم ساكنًا؟

هزت رأسها بالإيجاب ناسية بأنه لا يراها بينما بدأت دموعها بالتسلسل خلسة من تحت جفنيها فأتاها صوته قلقًا: ماسة، هل ما زلت معي؟

لم تجبه مباشرة محاولة السيطرة على دموعها قبل أن تهطل بقوة، لكنه التقط تلك الشهقة الخفيفة التي أصدرتها فسأل بجزع: ماسة، هل تبكين؟

حينها فقط لم تستطع الكتمان، وكأن سؤاله فجر الأحزان والأوجاع الكامنة فأخرجها من معاقلها. قالت من بين شهقاتها التي تفجرت: سأكلمك فيما بعد، معذرة منك.

ثم رمت الهاتف فجأة لتدفن وجهها بالوسادة، تكتم شهقاتها ودموعها الجارية على وجهها كالسيل. ما زالت تشعر بأنها تعيش كابوسًا غير حقيقي. لا تعرف لم تشعر بكل هذا الضعف مؤخرًا؟! شعرت بأنها تزرع تحت حمل أثقل كتفيها فئات به وانحنى ظهرها لثقله. لم تعد تتحمل تلك الصفعات المتتالية

كما السابق! أصبحت أكثر ضعفاً مما كانت. دموعها الأبية صارت تهطل لأتفه الأسباب. تلك الحالة كانت تتابها على فترات متفاوتة منذ وفاة والدها لكنها أصبحت ملازمة لها في الآونة الأخيرة، وكأن رداء القوة الذي حاولت ارتدائه على مرّ السنوات نقبته عثة الظروف ومهما حاولت رتقه انفتق في موضع آخر حتى أصبح بالياً لا يقيها برد الفراق ولا حرارة التعاسة التي تحاوطها وتكتم أنفاسها!

قالت من بين شهقاتها المتتالية: يا إلهي لقد تعبت بحق. ارحمني مما أنا فيه. لم أعد أحتمل، صدقاً فاضت آلامي وغطت كل مقدرتي على الاحتمال.

وعلى الطرف الآخر من الهاتف كان مالك يستمع لشهقاتها شاعراً بالصدمة فلم يكن يتخيل بأنها ستمزق قلبه بكل ذلك البكاء. كانت وكأنها كبّنت نفسها أعواماً عديدة لتنفجر ببكاء خزنته بمُرّ الظروف!

وبالرغم من ذلك لم ينبس ببنت شفة. ظل يستمع ويستمع وقلبه يخفق بعنف، ويتمنى لو كان بجوارها فيحتضن آلامها ويربت على روحها الموجوعة.

على مائدة الغداء جلست ماسة صامتة، تقلب صحن حسائها بعدم اكتراث وذهنها شارد بمكالمة مالك لها صباحاً. كانت قد استعادت نشاط ذهنها بدرجة كبيرة بعد لحظات

الانهييار التي تلت انهاءها المكالمة. أخذت تفكر بسبب منطقي
يجعل استدعاء المحامي لها ولأختها في جلسة سماع الوصية
مهمًا بذلك الشكل. تعلم بأن لها ميراثًا في شراكة بين عمها
ووالدها الراحل وقد تكفل عمها بإبلاغها بذلك من قبل، كما
تعلم بأن ذلك الميراث لم تعرف عنه فيروز شيئًا لأن عمها
حرص على عدم معرفتها بذلك كي لا تخبر إيثار. هل هذا ما يريد
عمها أن تعرفه فيروز في الغد؟

ماسة، ماذا تفعلين؟

قطع تفكيرها سؤال جمانة المؤنب فرفعت رأسها بارتباك
لتصطدم بنظرات عمر المتفحصة لها ونظرات جمانة المتعاطفة
والتي تحمل شيئًا من التأنيب. سألت بهدوء مرتب: ماذا
فعلت؟

تقلبين صحنك دون أن تتذوقيه، هل هناك ما يسوؤك؟

كلا، لكنني لست جائعة!

عنفتها جمانة بطريقة أمومية كما تفعل مع عمر: ماسة، أنت
لم تتناولي إفطارك اليوم وعشاءك بالأمس. صدقيني، إن لم
تتناولي الغداء أيضًا فسوف أغضب منك.

تبسمت ماسة قائلة بمحبة: بالطبع لا أريد إغضابك،
وسأتناول الطعام لأرضيك فقط.

تابعتها عمر واجمًا دون أن ينطق بكلمة، وعندما انتهى من تناول الطعام نهض مستأذناً للصعود إلى غرفته متعللاً بالصداع. قلقت جمانة عليه لكنه طمأنها بأنه سيتناول قرص المسكن وسيرتاح قليلاً وبعدها سيكون بأفضل حال ثم غادر على عجلة إلى غرفته. تأكدت ماسة من تصرفاته بأنه يخفي شيئاً فقررت اللحاق به علها تستطيع اكتشاف ذلك السر.

نهضت بعد قليل تستأذن جمانة بالصعود إلى غرفتها متعلقة بالإرهاق وأنها تحتاج مزيداً من الراحة في الفراش فسمحت لها جمانة وقد أقلقها شحوب ماسة وإرهاقها الواضح على وجهها. حينها مالت ماسة لتقبلها بامتنان فغمرتها جمانة بأحضانها وكأنها دعوة لتنسى كل ما يكبل روحها ويجثم على أنفاسها وذلك البؤس الذي باتت ترزح تحته مؤخرًا.

شعرت ماسة لوهلة بالدفع يغمرها، دفعه أخرجها من مشاعرها السلبية التي تكتنفها هذه الأيام وتحيل حياتها لحياة خاوية لا معنى لها. استكانت للحظات، تغمر نفسها في أحضان جمانة ثم انتزعته نزعاً مذكرة نفسها بأنها ستتألم فيما بعد عندما تشتاق لحضن مثله ولا تجده.

قالت بابتسامة بطيئة: أشكرك خالتي جمانة على ما فعلته لأجلي طوال سنوات عمري.

أجابتها جمانة بمحبة صادقة: لم أفعل لك شيئاً يا ماسة فأنا أحبك كما أحب عمراً! أراك ابنتي التي تمنيت وجودها في وقت ما.

اندفعت ماسة قائلة وقد حركتها عاطفتها التي استطاعت كبتها كثيراً من قبل: وأنا اعتبرك أُمي أيضاً.

هزت جمانة رأسها وتجمعت غلالة رقيقة من الدموع في مقلتيها لتقول بحسرة:

نعم يا ماسة! كلتانا فقدت شيئاً في الماضي، فقد فقدت والدتك بينما فقدت أنا مقدرتي على إنجاب طفلة جميلة مثلك لكنني أشعر اليوم بأن خسارتي سابقاً لا توازي حسرة قلبي على رحيل مراد. لقد كان كل من أحجابه في الحياة.

هزت ماسة رأسها مؤكدة وقد تطافرت الدموع من مقلتيها حزناً على رحيل عمها فهربت من أمام جمانة قبل أن تفقد زمام تحكمها وتبكي من جديد كما فعلت صباحاً.

عندما صعدت ماسة للأعلى بعد قليل، وجدت باب غرفة عمر مفتوحاً جزئياً. اقتربت بحذر تتلصص على وجوده داخلها فما زالت أفعاله تثير شكوكها وتحرك مؤشر فضولها نحو النهاية لكنها تفاجأت به وقد فتح الباب ناظراً نحوها بغموض، مستفهماً عم تفعله. فقدت ثباتها للحظات قبل أن تتمالك

نفسها مرة أخرى متعلقة بأنها أرادت الاطمئنان على حاله،
وحينها رمقها بسخرية ثم استدار للداخل قائلاً بهدوء:

تعالى يا ماسة. ادخلي واسحبي الباب قليلاً فما أود قوله لك
لا أريد أن يعلمه أي إنسان.

توترت ماسة بشدة. دلفت تتوكأ على عصاها حتى وصلت
لمقعد مجاور للباب فجلست عليه بقلق دون أن تنطق وكأن
لسانها تحول لقطعة من الحجر داخل فمها. ظلت تنظر إليه علّه
ينطق لكنه زاد توترها حدة حين ظل يحدق بعيداً في الفراغ
فقالت بحدة بعد أن خرجت من صمتها: تكلم!

نظر نحوها قائلاً بصوت خرج مرتبكاً: لا أعرف كيف أبدأ
الكلام!

قالت بنفاد صبر وقد بدأت أعصابها بالتلف فقد توقعت أن
يعترف لها بفعلته:

عمر لا توترني! أخبرني ما فعلت.

عاد ليتنهد مرة أخرى ثم قال بتوتر متحاشياً النظر في وجهها:

لم أفعل شيئاً صدقيني! إنه بخصوص إيثار.

ماذا فعلت إيثار؟

بل ما الذي لم تفعله؟!

تجمدت ماسة تحديق به وقد بدأ يسرد على أسماعها ما
جعلها تحديق به بذهول وتنتفض غضباً وحنقاً.

صباح اليوم التالي في مكتب المحامي، اجتمعت الأسرة
بأكملها بانتظار حضور فيروز للاطلاع على الوصية. أمسكت
ماسة هاتفها للمرة العاشرة تحاول الاتصال بفيروز التي كان
هاتفها مغلقًا باستمرار.

شعرت ماسة بالذعر فبعدها أخبرها به عمر بالأمس تأكدت
بأنها تعيش في عالم غير حقيقي، عالم لم تستطع تخيل وجوده
بالرغم من سنوات عمرها التي تخطت الثانية والعشرين بقليل.

تطلعت العيون نحوها بتربق فأنزلت الهاتف عن أذنها،
تبادلهم النظر بقلق وتهز رأسها بالنفي.

تعلقت عيناها للحظات بعيني مالك لتجد بأنه ينظر نحوها
بقوة، وكأنه يحاول أن يبثها اطمئنانًا تفتقده. تفاجأت من ردة
فعل عمر إذ نهض مقتربًا منها يسأل بقلق عن حالها لكنها لم
تهتم سوى بقلقها على أختها فسألته بذعر: لست أدري لماذا
هاتفها مغلق؟

قال عمر بصوت قلق لكنه حاول بث الطمأنينة فيه: ربما لا
يوجد إرسال حيث هي أو يكون هاتفها قد فقد شحن بطاريته.

هزت رأسها بقلق مضطرب بينما عادت عيناها رغبًا عنها
تستمد الاطمئنان من ملامح مالك الساكنة.

بعد مرور نصف الساعة، دلفت السكرتيرة الخاصة بمكتب السيد أمجد إلى غرفة الاجتماعات لتقول:

سيد مالك، هناك سيدة في الخارج تريد الدخول وتقول إنها والدة الأنسة فيروز.

قال مالك بهدوء بعد أن رفع عينه عن بعض الملفات التي يتصفحها: دعيتها تدخل، وأخبري السيد أمجد بالحضور.

دلفت إيثار المتأنقة دائماً بطريقة مبالغ بها. بدت مكتملة ومتألقة ترسم على وجهها ابتسامة لطيفة معسولة وقالت بغنج معذرة: آسفة! لقد حدث حادث على الطريق مما أجبرني على التأخر.

سألته ماسة بتجهم: أين فيروز، لِمَ لم تأت معك؟

نظرت نحوها بحاجب مرتفع لتقول بتأثر مدروس: فيروز مريضة. ألم تحدثيها لتطمئني عليها بالأمس؟

سألت ماسة بقلق: مريضة؟ ما بها؟

أجابت إيثار بحزن مبالغ به: لو كنت تهتمين لأمرها لكنك علمت ما بها. إنها تعاني الحمى منذ ليلتين.

قالت ماسة دون تفكير وبسرعة: ماذا؟ لقد كانت بخير أول الأمس. لقد رأيتهما وكانت تبدو بخير.

تطلعت نحوها إيثار متسائلة بحذر وقد لمعت عينها بشكل
مقلق: أين رأيتها؟

تنهت لزلة لسانها فقالت بفتور: لا يهم! لكنها كانت بخير.

ثم زمت شفيتها وصمتت. ظلت إيثار ترمقها خلسة بين
الحين والآخر دون أن تنتبه لنظرات عمر القلقة نحوها.

أخيرًا دخل السيد أمجد إلى غرفة الاجتماعات محيياً الجميع
قبل أن يتخذ مقعده على رأس المائدة، ينظر إلى ورقة موضوعة
في ملف أمامه. راجعها سريعًا ثم رفع عينيه نحوهم مستهلاً
كلامه:

الآن سأتحقق سريعًا من قائمة الموجودين كي نبدأ دون
تأخير.

تحقق من الأسماء الموجودة وعندما وصل لاسم فيروز ردت
إيثار بغنج: فيروز ابنتي مريضة، لا تستطيع الحضور، لذا حلت
محلها.

تطلع نحوها السيد أمجد بتجهم: لكن يا سيدتي لن أستطيع!
الوصية تنص على وجوب وجودها بنفسها لا من ينوب عنها.

قالت بلا مبالاة: ومن سيعلم؟ أخبرتك بأنني والدتها وأنوب
عنها، كما أنها صغيرة السن ولن تفهم حرفًا مما سيقال فلا
تهتم!

أغلق السيد أمجد الملف الذي كان يقرأ فيه الأسماء قائلاً بصوت جهوري: القوانين هي القوانين يا سيدتي. الوصية تنص على وجوب قراءتها في وجود من يتوجب وجوده، وبغياب الأنسة فيروز والتي أعلم بأنها تجاوزت السن القانوني لتكوني وكيلة عنها فأحب أن أخبرك بأنني سأؤجل تلك الجلسة لحين حضورها.

ثم نهض وهو ينظر للجميع قائلاً بسخط: أعتذر منكم سيداتي وسادتي. يجب أن أحترم نص وصية المرحوم السيد مراد، فقبل أن يكون عميلاً لدى مكنتي كان صديقي.

هز الجميع رأسهم متفهمين بينما هناك عينان تتطلعان نحوه بحقد. كانت عينا إيثار التي غاصت في مقعدها تشعر بالسخط فلأول مرة في حياتها لم تنل ما تريده، وكان ذلك يزعجها بشدة.

الفصل الرابع عشر... بعض الحقائق تتكشف.

حين هبطت ماسة من مكتب المحامي. كانت تتحرك بصعوبة وألم فقد تكالبت عليها آلامها الجسدية والمعنوية بشكل أنهكها. قلبها يخفق خوفًا على فيروز ولا تعرف كيف تتواصل معها أو تطمئن على حالها. فكرت أن تأخذ سيارة أجرة كي تذهب إلى المنزل لتطمئن عليها ثم تعود. وقفت في بهو البناية الواسع تحاول ترتيب أفكارها قبل أن تقدم على فكرتها التي وجدتتها منطقية.

تقدم منها عمر بقلق يرى حالتها واضطرابها الظاهر على صفحة وجهها. حدثها مطمئنًا إياها وأخبرها بأن تستعد للرحيل معهما لكنها رفضت بحدة. أخبرته بأنها تعاني القلق بخصوص فيروز وبأنها ستذهب للاطمئنان عليها. رفض عمر فكرتها المجنونة، مخبرًا إياها بأن وضع قدمها لن يسمح لها بالذهاب وحدها، وبأنه لن يستطيع إيصالها لأن والدته معه وعليه إيصالها أيضًا إلى الفيلا.

تفهمت ماسة موقفه لكنها أصرت على رأيها مخبرة إياه بالأل يقلق فسوف تستقل سيارة أجرة ذهابًا وإيابًا وبأنها لن تبيت

ليلتها هناك، فسوف تعود للإقامة مع جمانة حتى تنتهي
مراسم الحزن والعزاء.

رحب عمر بشهامة أخ قائلاً: هو بيتك يا ماسة، يمكنك البقاء
معنا إلى الأبد.

هزت رأسها بامتنان قائلة: أشكرك يا عمر، أعلم ذلك منذ
زمن.

رن هاتفها فقطع عليها حوارها مع عمر. رفعت الهاتف تنظر
للرقم الغريب الذي يهاتفها.

سألها عمر بقلق: هل هي فيروز؟

أجابت بنفي: كلا، ليست هي!

ثم انسحبت خطوة للخلف، تجيب الاتصال بقلب راجف.
سمعت صوتاً أنثوياً غير مألوف لها يسألها إن كانت هي ماسة،
وحين أكدت للمتصلة هويتها طلبت منها أن تقابلها بعد ساعة
في مقهى صغير يقع في منتصف العاصمة. أنهت الاتصال
وملامح وجهها ترسم اضطراباً بليغاً. تلاقت عيناها بعيني مالك
الذي كان قد لحق بهما لسبب ما. بثت عيناها سؤالاً عن هوية
المتصل لكنها ارتأت أن تخفي عنه خطوتها التالية فاتجهت
نحوهما بخطوات بطيئة وقالت بصوت بثته كل الهدوء الممكن:

سأخرج لأتجول قليلاً. أشعر بالقلق على فيروز ولن أستطيع الذهاب إلى الفيلا سوى بعد الاطمئنان عليها.

ثم انسحبت قبل أن يعترض أحدهما على قرارها الأرعن، وفي داخلها أخفت قرارها الذي اتخذته وهو عزل مالك عن متابعة القضية معها. لا تريد توريطه أكثر فسوف يثنيها عن إكمال تحرياتها.

ألقت نفسها في أول سيارة أجرة قابلتها وأملت عليه العنوان ثم شردت تحديق في الشوارع التي يغسلها المطر. كم تتمنى لو أن ذلك المطر يغسل روحها فيزيل عنها مخاوفها وما يقض مضجعها. أفكار متزاحمة، دوامات من أشياء غير متناسقة تنبثق في مخيلتها بين ماضٍ بعيد منذ عامين وماضٍ قريب منذ ليلتين، وفي تلك الفترة فقدت أحب شخصين إليها في العالم.

تنهدت بشجن تنتزع نفسها انتزاعاً من أفكارها المتلاطمة كبحر هائج نائر حين ناداها السائق بأنهما وصلاً إلى وجهتها. نقدته أجرته ثم ترجلت ونظرت لساعتها. ما زال أمامها نصف ساعة على الوقت المحدد للقاء مما سمح لها بالجلوس على أحد مقاعد الشارع المتناثرة أمام النهر بعد أن توقف المطر.

جلست تحديق بعينين كئيبتين، تشاهد الوجوه الفتية القليلة التي تختلس لحظات من الزمن، يسترق فيها حباً أهوجاً على جسر النهر. فتية وفتيات تركوا محاضراتهم الجامعية وأتوا يختطفون من الزمن لحظات للذكرى، تصاحبهم في أوقات

عثراتهم فيما بعد أو ربما تكون تلك هي العثرات التي ستقضى مضاجعهم في يوم ما. تنهدت ثم أبعدت عينيها عنهم ترمق صفحة الماء بنظرات محايدة، تتمنى لو تغمر نفسها في عمق المياه الباردة فينتفض جسدها بشدة كي تنفض عنها أفكارها المتراكمة.

القلق ينهش دواخلها بقوة. ما أخبرها به عمر بالأمس جعلها تتساءل كيف لوالدها أن يسقط في حبال امرأة كإيثار، الشيطان حليفها ورفيق دربها. سخرت في داخلها مؤكدة بأن إيثار فاقت الشيطان حيلة حتى لكأنه تلميذ ضعيف المستوى بجوار أفعالها.

أمسكت هاتفها لتجري به اتصالاً، ربما للمرة الألف. أخيراً دت عليها فيروز فسألت ماسة بقلق رهيب: فيروز، أين أنت؟

إشارة أتها من صوت فيروز أنبأتها بأنها تبكي ورغم ذلك تحدثت بثبات: أنا في المنزل يا ماسة، أعاني بعضاً من آثار الإنفلونزا ليس إلا.

سألتها بتوبيخ غير مقتنعة بحجة غيابها: لم هاتفك مغلق؟ أنا قلقة بشأنك.

أبت فيروز أن تخبرها بما يحدث معها فاكثفت بالقول: لا تقلقي عليّ حبيبتي، اعتني بنفسك.

لاحقتها ماسة بقولها إنها ستذهب للاطمئنان على حالها لكن ردة فعل فيروز كانت غير متوقعة بتاتاً! احتد صوتها قائلة باندفاع: لن تفعل! أنا بخير كما أن إثثار ستضايقك كالمعتاد، ظلي في فيلا عمي مراد حتى تتحسن قدمك.

تحيرت ماسة من ردة فعل فيروز. تأكدت بأنها تخفي شيئاً عنها وتساءلت في سرها إن كانت فيروز تحميها أم تحمي نفسها. حديثها مع عمر بالأمس كان غامضاً. شعرت أنه لم يخبرها بكل شيء، وحين ألحت عليه أخبرها بأنها ستعرف كل شيء في وقته تماماً كما قالها من قبل، والآن ها هي فيروز تبدو وكأنها تخفي أمراً ما فهل هي الوحيدة التي لا تعرف أي شيء؟

اكتفت بأن قالت في هدوء بينما تختمر بذهنها فكرة ما: حسناً يا فيروز! سأهاتفك مرة أخرى فلا تغلقي هاتفك.

روحها المرهقة أنبأتها أن فيروز متورطة بشيء ما تحاول إبعادها عنه. لا تدري كنه تلك الورطة ولكن قلبها المنقبض يشعر بأنها شيئاً سيئاً بحق. نهضت لتتجه نحو مقهاها الذي ستقابل فيه محدثتها السيدة وفاء، مرجئة التفكير فيما تخفيه أختها عنها. تناولت هاتفها تطلب رقم السيدة وفاء التي حدثتها منذ قليل منه بينما تتطلع في وجوه البشر المتناثرين خلف الموائد فوجدت إحداهن تتناول هاتفها. توجهت نحوها متسائلة بخفوت: هل أنت السيدة وفاء؟

لكن المرأة رمقتها بنظرة متحيرة فاعتذرت ماسة بأدب ثم انسحبت متجهة نحو مائدة شاغرة فجلست على مقعدها. هاتفَت السيدة وفاء لتخبرها أنها قد وصلت وهي بانتظارها. لم يَمْضِ سوى ربع الساعة حتى كانت السيدة الأربعينية تدخل المقهى وتتجه نحوها فتأملت ماسة بتأني، سيدة متوسطة القامة ممتلئة بعض الشيء، ترتدي ملابس مرتبة وأنيقة وإن لم تَشْ بالثراء الفاحش. تبدو ميسورة الحال دون بزخ. ملامح وجهها ترسم صورة ممتازة للتوتر وعيناها تهتزان بعض الشيء بينما تنظر لماسة ببعض القلق.

رحبت بها ماسة وما إن استقر مجلسهما حتى بادرت بسؤالها وكأنها تريد الانتهاء من تلك الجلسة بأسرع ما يمكن: أخبرتني والدتك أن عمي مراد زارك ثم تلقيت تهديدًا بقتل ابنك بعدها. هل تظنين أن عمي كان السبب؟

أجابتها المرأة بتأني وقد أخذت تفرك يديها ببعضهما في الخفاء: لا أعتقد أن عمك السبب فقد بدا لي غريبًا بتصرفاته بعد سماع قصتي.

سألتها ماسة بقلق: أخبريني كيف؟

سردت المرأة على مسامعها نفس القصة التي أخبرتها بها الأم العجوز. استمعت ماسة بدقة عليها تجد نافذة جديدة تظهر لها بصيصًا من الضوء في مجاهل ذلك التيه الذي تعيش فيه

منذ أن أخذت على عاتقها حل تلك القضية المستعصية. ما إن انتهت المرأة من كلامها حتى صمتت قليلاً ثم قالت:

أُتدريين يا أنسة ماسة، لقد وصلني إحساس بأن عمك تعرض لنفس الخديعة التي كنت سأعرض لها لولا ستر الله.

سألت ماسة بفضول ولهفة: ما الذي يجعلك تقولين ذلك؟

أجابتها المرأة متجهمّة: ردّ فعله عند اخباري إياه بأن حملي كان طبيعياً بالرغم من إخبارهم إياي أنني لن أستطيع الحمل. كان يحمق في وجهي بصمت، وتهتز يداه اهتزازات خفية تعكس اضطرابه. لقد لمحتها لأنها لفتت نظري حتى أنه أخفى يديه أسفله كي يستطيع السيطرة على حركتهما.

سألت ماسة بقلق: أتظنين بأن ابنه ليس ابنه الحقيقي وأنه ارتضى أن يقبل تبرعاً بالبويضات من أم مجهولة؟

قالت المرأة: لا أدري! أو ربما يكون قد تعرض للخديعة بأن زوجته لن تستطيع الإنجاب مثلما حدث معي.

اهتزت ماسة واضطربت للغاية، أيعقل أن يكون عمر ليس ابناً لعمها الراحل؟ هل لهذا وجدت صغاً مدفوعاً باسم الطبيب الحقيير ذاك؟ إذاً عمها لم يتعرض للخديعة بل وافق بملء إرادته على جريمة بحق المجتمع وبحق نفسه!

سألت من بين شرودها بشكل عارض: لم تذكر اسم الممرضة التي عرضت عليك القيام بالتبرع، هل تخافين ذكر اسمها؟

عقدت المرأة حاجبها مفكرة للحظات قبل أن تقول: لا أذكر اسمها تمامًا. ربما كانت تسمى أسرار، أو آثار فحين تفجرت القضية في المحكمة كان قد مضى على تلك الحادثة ما يزيد عن العشر سنوات. ابني الآن في عمر الحادية والعشرين.

سألت ماسة وقلبها يخفق برعب وقد أيقنت أن سعي عمها خلف ذلك الموضوع تحديدًا له علاقة بكرهه لزوجة أبيها: هل تسمى إيثار؟

اكتفت المرأة بهز كتفيها قائلة: ربما فلست أذكر الاسم تحديدًا! لقد سمعتهم ينادونها به ولم أحفظه لذلك لم

تؤخذ شهادتي على محمل الجد في المحاكمة، وهذا أيضًا ما أخبرت به عمك.

أصرت ماسة: صفيها لي.

علا البغض ملامح السيدة وكأنها كرهت ما ستقوله أو ما تتذكره: لن أنسى شكلها ما حييت! إنها فاتنة تتحدث بثقة وإقناع رهيبين، تشعرك بأنها تستطيع إهدائك قطعة من القمر بتواصلها معك. كانت مميزة بحق. تشعرين بالغيرة منها رغمًا

عنك كونها تنبض بكل تلك الأنوثة وحدها. شعرت وكأن هناك شيئًا غامضًا يدور حولها وخاصة حين رأيتهما مع الطبيب، بدا وكأنهما أقرب لبعضهما من كونها علاقة عادية بين ممرضة ورئيسها.

كاد قلب ماسة ينخلع من مكانه بينما تسمع مواصفات إيثار تخرج من فم وفاء كمدفع موجه لروحها. تعرف تلك المواصفات وتحفظها عن ظهر قلب بل تعرف الأدهى من ذلك، أقنعتها التي ترتديها وتتلون بها حسب احتياجها أما عن علاقتها بالطبيب فلم تخبر السيدة وفاء بأنه كان زوجها الأول قبل زواجها من والدها. نعم، كان زواجًا سرّيًا ارتضته لنفسها لسبب مبهم، ربما لأن الطبيب كان متزوجًا في العلن من امرأة أخرى.

تبقت خطوة أخيرة. أخرجت هاتفها وقلبت ببعض الصور فيه ثم أخرجت منه صورة لإيثار مع والدها. أدارت الهاتف لوفاء تسألها: هل تشبه هذه المرأة، تلك الممرضة؟

نظرت المرأة بعبوس للهاتف ثم قالت بحنق: هي بالفعل فعمك أيضًا أراني صورة لها. هل تعرفينها؟ ما هي قصتكم معها تحديدًا؟

تجهمت ماسة قائلة بحرقة: كلا، لا أعرفها بعد ولكنني أنوي ذلك!

قالتها وهي تخفي وجعها داخلها وتفكر بغضب "ماذا فعلت يا أبي؟ كيف سمحت لنفسك بإدخال مثل تلك الأفعى لحياتنا؟"

حين خرجت ماسة من المقهى كانت قد اتخذت قرارها بالذهاب للمنزل الذي كان منزل والدها يومًا ما. وفي منتصف الطريق رن هاتفها فطالعت الشاشة لتجد أن المتصل مالك لذا لم تجبه. ظلت تنتظر للهاتف الذي أنهى رنينه ثم عاد يرن من جديد دون أن تجيب مرة أخرى. حين انتهى الرنين أتتها رسالة صوتية منه على تطبيق واتس اب بعد عدة ثواني فوضعت سماعات الأذن بهاتفها قبل أن تسمعها.

أتاها صوته قلقلًا (أين أنت يا ماسة؟ لم لا تجيبين؟ حين تسمعين رسالتي هاتفيني للضرورة القصوى، لدي ما أخبرك به).

تجمد تفكيرها واحترت، أتستمر بتجاهله حتى تصل لوجهتها أم تحادثه أولًا لتعرف ما جديده؟ ولأن فضولها وإصرارها على الماضي قدمًا هما من يوجهانها فقد لمست زر الاتصال به مباشرة. وصلها صوته موبخًا: هل تتجاهلينني؟

نفث سريعًا وأنكرت متعللة بأنها لم تسمع صوت الهاتف، ورغم أنه لم يصدق مبررها إلا أنه سألها عن مكان وجودها فهو

يريد مقابلتها لأمر هام. أخبرته بأنها في طريقها لمغادرة العاصمة متجهة نحو منزل والدها لتقابل أختها، لذا لن تستطيع مقابلته وعليه أن يخبرها عن سبب رغبته بلقائها الآن. تنهد بتأثر قبل أن يقول: اعتني بنفسك وأخبريني إذا ما جد جديد.

لم تخبرني عن الأمر الهام!

نعم صحيح! لقد صدمتني مغادرتك العاصمة فنسيت. كنت أتحدث مع السيد أمجد بعد أن غادرتم فأخبرني أن المرحوم بإذن الله السيد مراد كان قد أودع لديه ظرفا موجهًا لك، وأخبره أن الظرف لا يفتح إلا بعد وفاته وكأنه وصية خاصة بك وحدك.

وماذا يوجد فيه؟

هل تظنني محاميًا أم متشردًا من الشارع يعتدي على ما ليس له؟ بالطبع لا أعلم ما فيه لكنه معي فلقد أخبرت السيد أمجد بأنني ربما أمر عليك في الفيلا كي أسلمه لك. (أردف بلهجة آسفة وكأنه يستفزها) هذا قبل أن تتصرفي من نفسك وتغادري العاصمة أثناء تحقيقٍ جاري. ونعم المتحرية أنت!

قالت بخفوت وهي متوترة:

أستطيع العودة الآن لكنني أريد رؤية أختي. أريد الاطمئنان أنها بخير فوضعها يؤرقني بشدة.

أراد اخبارها بأنه قد علم هوية مالك السيارة التي كانت تتبعها ذلك اليوم لكنه لمس توترها الجم فأرجأ الفكرة لما بعد. قال مطمئنًا إياها: لا عليك! سأنتظرك غدًا حين تعودين فلن يضيرنا أن ننتظر ليلة أخرى.

هزت رأسها بقوة بينما تقول باضطراب: نعم بالفعل! أراك غدًا.

حين أنهت المكالمة كانت قد غرقت في بحور من التيه أكثر من ذي قبل. ما هذا التشعب الذي تسقط فيه حينًا بعد حين؟ بل ما هذه الأحاجي التي لا تنوي أن تتضح معالمها فتريح بالها القلق المضطرب؟

تنهدت قبل أن تهمس لنفسها تطمئننها "تفائي بالغد فإنه أجمل! ما تراكمت الغيوم إلا لتمطر".

وكانها إن قالت ذلك فسوف تكون أحسن حالًا، وكانها!

وصلت ماسة منزل والدها فوقفت تتطلع إليه بشوق وقد غمرتها الذكريات والحنين. المنزل الكبير حديث الطراز والمحاط بسور مرتفع يحميه من المتطفلين. تنهدت ثم تقدمت بخطوات غير متزنة نحو البوابة الكبيرة لتفتحها بعد أن تخطت السور لكن المفتاح لم يدر! حاولت مرة أخرى لكن لا استجابة. وضعت يدها

تلقائيًا على الجرس قبل أن تفكر بتأتي، فلم تكن تعرف إذا ما كانت إيثار قد عادت أم لا، وفي داخلها لم تكن مستعدة لمواجهة إيثار بعد.

سمعت صوت أختها يأتيها عبر المسماع الداخلي فقالت بلهفة: افتحي يا فيروز.

ردة فعل فيروز صدمتها إذ قالت بتوتر: ماسة؟ ما الذي أتى بك؟

طلبت ماسة بحق: افتحي الباب يا فيروز، هل أصبح قدومي هنا غريبًا؟

تلعثمت فيروز قائلة: لكن.. أنا.. أمي أغلقت الباب خلفها بعد أن سحبت مني المفتاح خاصتي.

توترت ماسة وسألت مندهشة: تقصدين أنك محبوسة هنا؟

تنهد فيروز المضطرب أثبت لها الحقيقة المرة. قالت فيروز بمرارة: نعم! أمي حبستني في المنزل.

حدقت ماسة بغضب بالبوابة الكبيرة، يمتلكها حنق غير عادي ورغبة في خنق إيثار حد القتل لكنها أعملت فكرها سريعًا. تريد أن ترى فيروز وأن تعرف ما يحدث من خلف ظهرها. قالت بعجلة لفيروز:

هل متاح لك حرية التجول داخل البيت، أم أنها حبستك
أيضاً داخل الشقة؟

أجابت فيروز: لم تغلق عليّ الشقة، فقط الباب الرئيسي.

أخبرتها بعجلة: إذا قابليني من الباب الخلفي.

كانت تأمل أن يكون مفتاح الباب الخلفي كما هو ولم تبدله
إيثار، فقد كان والدها لحسن الحظ يعشق الزراعة وقد خصص
الحديقة الخلفية لممارسة هوايته المفضلة وجعل في الخلف
باباً صغيراً يمر من الحديقة إلى القبو مباشرة حيث يخزن أدواته
الخاصة. تقدمت بخطواتها تدور حول المنزل لتصل للباب
الخلفي. وقفت تتأمل المكان المهمل بحسرة فقد خلى المكان
من مزروعات والدها الحبيب. تخطت الأشياء الملقاة بإهمال
نحو الباب القديم وأخرجت مفتاحها وجربت أن تديره في القفل.
لم يستجب أولاً ثم في المحاولة الثانية دار وانفتح. هللت بمرح
بينما يأتيها صوت فيروز من الداخل: هل فعلتها؟

دفعت ماسة الباب لتقابلها فيروز فتلقي بنفسها داخل
حضانها وتبدأ بالبكاء. ربتت ماسة على شعرها قائلة بحب: فيروز
حبيبتني، ما بك؟

قالت فيروز بقلق من بين دموعها: أريدك أن ترحلي.

رفعت ماسة حاجبيها بعدم تصديق قائلة: ولم؟

أجابتها بخوف بدا طبيعياً لماسة: أخاف أن تؤذيك أُمي فقد حبستني في الداخل وأنا ابنتها، كما أنها أكدت عليّ بعدم الرد على من يطرق الباب، وأنا خالفت كلامها.

قالت ماسة بكبرياء: لي حق بالمنزل كما لها، لذا لا تقلقي.

قالتها ثم تحركت تحتضن فيروز تحت جناحها كالأم الرؤوم. صعدتا من القبو إلى الأعلى، تستند ماسة على فيروز وحين استقر بهما المقام في غرفة فيروز، قالت ماسة مباشرة دون موارد:

ما الذي يحدث معك من خلف ظهري؟

تفاجأت ماسة برد فعل فيروز فقد طأطأت رأسها قائلة بحسرة: لا شيء! لقد اختلفت مع إيثار بشأن ما، لذا فأنا معاقبة.

سألت ماسة مستنكرة: معاقبة؟

هزت فيروز رأسها واكتفت بالصمت فسألتها ماسة بإصرار تريد أي معلومة: معاقبة بماذا وعلى ماذا؟

تطلعت نحوها بعينين ذابلتين ثم قالت بصوت خافت: معاقبة بالحبس في المنزل حتى أترجع عن عنادي، كما أن هاتفي ليس معي.

قالت ماسة بحيرة: لكنك أجبت اتصالي منذ ساعة.

قالت فيروز بسخرية: لقد بحثت عنه حتى وجدته. كنت أريد الاتصال بك لكنك سبقتني، ثم أغلقته وأعدته إلى مكانه كي لا تكتشف أُمي أنني عرفت مكانه فتغيره لمكان لا أعرفه.

سألته بغیظ: وما سبب كل ذلك؟

هنا هزت فيروز كتفيها وخفضت عينيها وعادت إلى الصمت. حثتها ماسة على الكلام:

فيروز ما بك؟ هل هناك ما يدور من خلفي؟

رفعت فيروز عينيها تتطلع نحو ماسة تتراقص بهما مشاعر متفاوتة فبدت نظرتها غريبة: بل قولي أشياء!

رددت خلفها ماسة بحيرة: ما هذه الألغاز التي تتحدثين بها يا فتاة؟

راوغت فيروز فقالت: هل تريدین رؤية شيء ستحبينه؟

سألت ماسة بحيرة: تبدين مختلفة يا روزي، ما بك؟

نهضت فيروز قائلة بصوت حاولت إخفاء الحزن فيه: تعالي معي، سأريك ما اكتشفته.

تبعته ماسة في صمت وهي متلهفة. هناك شيء بخصوص فيروز غير مفهوم. منذ متى كانت تلك الصغيرة مراوغة هكذا؟

منذ متى كانت ماكراة وتستطيع أن تخفي أشياء عنها؟ تطلعت نحو الاتجاه الذي تسلكه فيروز فقالت بدهشة: هل سننزل إلى القبو مرة أخرى؟

اكتفت بأن قالت: نعم، تعالي معي. هل ستسمح قدمك بالنزول؟

أجابت ماسة بسرعة: نعم! إنها لا تعوقني عن الحركة كثيرًا فالجيرة فقط حول مفصل القدم وإلى منتصف الساق كما ترين.

قالت مزيحة طرف تنورتها للأعلى قليلًا كي تري فيروز الجيرة القصيرة حول منتصف ساقها. أسندتها فيروز وحين وصلت إلى القبو الذي كان يشكو من قلة الاهتمام، توقفت ماسة لتتطلع حولها للموجودات المكدسة في صناديق مغلقة من الورق المقوى. خطر في بالها أنها لم تنزل هنا منذ وقت طويل للغاية. قطع تأملها توجه فيروز نحو إحدى الصناديق المغلقة والذي يقبع في أحد الأركان.

قالت لماسة بصوت كئيب: ستجدين في هذا الصندوق ذكريات تحملك نحو الماضي.

تقدمت ماسة نحو الصندوق بخطوات حائرة. مالت لتنظر داخله فلم تجد سوى أوراقًا صفراءً وكتبًا قديمة، تبدو من غلافها

أنها روايات من زمنٍ ماضي. فيروز تربعت على الأرض المتربة
قائلة: اجلسي!

تطلعت ماسة للأرض المتربة باستهجان تخاف أن تفسد
ملابسها فسحبت فيروز صندوقًا مرتفعًا ووضعته أمامها قائلة
بسخرية: اجلسي عليه! هيا، أريد أن أريك سري قبل أن ترجع
إيثار من الخارج.

أفرغت الصندوق من محتواه. كان يبدو أن الصندوق خاص
بوالدهما فالأوراق التي فيه تحمل خط يده الحبيبة. كانت أوراقًا
عديمة القيمة لها، تبدو وكأنها تخص مخططات لمشاريع غير
مكتملة كانت تدور في رأسه لكن فيروز قطعت تأملاتها وهي
تسحب صندوقا خشبيا قديما يبدو كبير الحجم نسبيًا ووضعته
أمام عينيها قائلة: انظري ماذا وجدت!

أمسكت ماسة الصندوق، تتأمله بشغف بنقوشه الجميلة
المحفورة يدويًا. إنه صندوق أثري، ربما لم يعد هناك من يصنعه
الآن. فتحت قفله ونظرت داخله فوجدت صورًا كثيرة. أفرغتها في
حجرها ثم بدأت تتأملها. كانت صورًا قديمة قدم الزمن، تحمل
وجوه جديها اللذين لم ترهما ومعهما طفلين صغيرين يبدو
أنهما والدها وعمها مراد. ظلت تقلب في الصور كثيرًا، كلها صورٌ
تحمل ملامح عمرية وأزمنة مختلفة لعمها ووالدها. استبد بها
الحنين والشوق لكليهما. عيناها تتألقان وهي تراهما بيتسمان
تارة للمصور وتارة يتظاهران بأنهما متفاجئان وتارة يبدوان

منهمكين بالفعل في شيءٍ ما. وجدت صور زفاف والدها وأمها التي رحلت دون أن تراها. نظرت إلى ملامح والدتها الهادئة بحسرة. قلبها يخزها بسبب ذكريات لم تعشها أبدًا، ذكريات حرمت منها قبل أن تبدأ. شقة العرس مختلفة، تبدو شقة صغيرة غير البيت الذي تربت فيه فقد كانت هناك صورًا كثيرة لوالدها ووالدتها في كل أرجاء الشقة وكل صورة تحمل خلفها تاريخًا معينًا ونبذة عن المناسبة التي التقطت فيها. بيدوان سعيدان بحق! كُتب خلف إحدى الصور (آخر صورة في شقتنا الصغيرة في (...))، كتب اسم الحيّ دون تفاصيل. غمغمت ماسة مندهشة:

لقد كانا يقيمان في شقة في حي (...).

أجابت فيروز بهدوء: نعم أعرف. انظري لوالدتك، كم كانت جميلة!

ظلت ماسة تقلب الصور بشغف. كان والدها ووالدتها وكأنهما يوثقان كل خطوة يفعلانها لتعرفها ماسة فيما بعد فهذه صور لقطعة أرض يقف والداها سعيدان بجوارها ثم صور أخرى وقد بدأت ملامح بيتها الكبير الذي عاشت فيه تتضح بالشكل المألوف لها. صور لوالدتها وهي تبدو سعيدة بينما بطنها منتفخ يشي بحملها. صور أخرى ووالدها يحتضن والدتها بينما بدأ بروز بطنها يظهر بشكل مبالغ به، وكأنها تحمل توأمًا.

رفعت ماسة عينها لتجد فيروز تتأملها بحسرة فسألتها
بحيرة: أين اكتشفت هذه الأشياء؟

قالت فيروز وقد بدت عينها زائغتان بطريقة غريبة: قضيت
أيامًا هنا وحيدة فكان لا بد أن أبحث عن شيء يسليني، ولا
أفضل من قبو مهجور معبى بالذكريات.

أمسكت ماسة الصندوق كي تضع فيه الصور قائلة بحزم:
هذه الصور ملكي، سأحتفظ بها.

كانت تضع الصور بحرص أثناء كلامها لكن يدها أحست بروزًا
صغيرًا في قاع الصندوق. أفرغته مرة أخرى ثم مدت يدها
تتحسسه بحذر حتى لمست تجويفًا مغطى بالبطانة الحمراء
القطيفة. رفعتها بحذر فوجدت أنها غير ملتصقة. مالت فيروز
تراقبها بدهشة وفضول وحين انتزعت البطانة لم تجد سوى
ورقة مطوية بعناية. أمسكت الورقة لتفتحها وتطالع محتواها
فتغيرت ملامح وجهها من الفضول إلى الحيرة إلى الصدمة.
ألقت الورقة في حجرها وقد تجلت الصدمة على وجهها بشدة
مما قرأت.

الفصل الخامس عشر... سراب.

مالت فيروز نحو ماسة تنظر إلى ملامحها المندهشة،
متسائلة بقلق: ماذا حدث؟

ثم مدت يدها كي تأخذ الورقة من حجرها وتسأل بفضول
متزايد: ما هذه الورقة؟

أجابت ماسة بتوتر بعد أن أمسكت الورقة وحركتها باهتزاز:
هذه الورقة، إنها.. إنها..

ثم مدت يدها تناولها لفيزوز قائلة بتحير: خذي واقريئها
بنفسك!

تناولت منها فيروز الورقة وقرأتها بترقب. كانت شهادة ميلاد
قديمة لكنها ما زالت على حالها سليمة، وكأن والدها قد خبأها
بعد كتابتها مباشرة ولم تتعرض لعوامل الزمن. قرأت الاسم
فقالته بدهشة:

عمر محمود خطاب!

قالت ماسة بخوف وعيناها متسعتان: انظري لتاريخ
الميلاد.

نزلت فيروز بعينها للتاريخ المدون في الشهادة فقالت
بصدمة: إنه نفس يوم ميلادك.

هزت ماسة رأسها دون أن تستطيع النطق، سألت فيروز
بخوف: هل كان لك أخ توأم؟

لم تكن ماسة تستطيع التفكير! عقلها مشئت ثائر بأفكار
عاصفة. لا تعرف إجابات منطقية لما يدور حولها. كل ما شعرت
به كان الخوف المبهم والقلق اللامتناهي. هزت رأسها بتشتت
نافية وصوتها المهتز يخبر بصدق كلامها: لا أعلم أي شيء! أنا لا
أعلم أيًّا مما يدور حولي.

ازدردت فيروز ريقها ثم قالت بصوت هامس جريح: أما أنا
فقد عرفت الحقيقة الآن.

أمسكتها ماسة بجزع من ذراعها، تجذبه إليها وتكاد تعتصره
وقد خرج صوتها حادًا مضطربًا:

ماذا تعرفين؟

لكن فيروز بدت وكأنها تصارع أشباحًا خيالية تعبت برأسها
فلم تنتبه لما تفعله ماسة بذراعها. حدقت بالفراغ قائلة بأنين

وصوتها الجريح يعلو على الوجد في داخلها: الآن علمت سبب ما حدث ليلة مقتل عمي. يا إلهي، لا أصدق!

قالتها لتضع يدها على رأسها، تعتصر جمجمتها وكأنها تنوي اعتصار كل الأفكار اللا منطقية التي تؤرقها بغية طردها لكن ماسة كانت كالغريق المتعلق بقشة، تريد الفهم بشدة، تريد الحصول على ما يشبع جوعها ويفضّ مجاهل التيه التي تعيش فيها. نهضت تحجل على قدمها لتمسك بفيروز من كتفيها قائلة بلهفة عنيفة: أخبريني أي شيء! ما الذي حدث ليلة وفاة عمي؟ أخبريني يا فيروز!

رفعت فيروز عينها المتبلدتين الحزنتين المكلومتين قائلة بحسرة: لا أستطيع! صدقيني لا أستطيع أبدًا، فكل ما أعرفه الآن سيؤذي الجميع، سيتسبب بكارثة لجميع الأطراف.

لكن ماسة اندفعت تتمسك بملابسها غير مبالية باضطرابها وحزنها الواضح على وجهها، صارخة بعنف: أرجوك! أرجوك، أخبريني يا فيروز! لن أخبر أحدًا! ارحمني حيرتي وقلقي ورعبي.

أصرت فيروز برعب: لن أستطيع! سأؤذيه، سأؤذي عمر وعمي وكل الأسرة.

صرخت ماسة بعنف أكبر: عمك مات يا فيروز، عمك قُتل وأنت تخشين إيذائه! أي أذى تخشين وقد مات وشبع موتًا في قبره؟

لكن فيروز التي تبدو متخبطة ومشوشة بشكل غير معتاد همست بخوف: لا أستطيع! صدقيني أنا أموت في اليوم ألف مرة ولا أستطيع البوح.

قاطعهما صوت غاضب على حين غرة: ماذا تفعلان هنا؟

تطلع كلٌّ من فيروز وماسة نحو إيثار التي كانت تتقدم نحوهما والشرر يتطاير من نظراتها. قالت بغضب لماسة: من سمح لك بدخول المنزل؟

تجهمت ملامح ماسة وقالت بشراسة غير معتادة منها وكأن ما حدث منذ قليل قد حرك الشياطين الكامنة في أعماقها: لا أنتظر سماحًا منك كي أدخل منزلي! لا تظني بأنك تملكينه بالكامل.

لكن إيثار قالت بعنفوان وهي ترمق فيروز بجنون: ماذا تفعلين هنا؟ ألم أخبرك بأن تلزمني غرفتك ولا تتحدثي مع أحد وبالأخص هي؟

قالتها وهي تومئ برأسها نحو ماسة بينما جنون الشك يلتصق بعينيها لكن ماسة الغاضبة قالت بصوت مرتفع أقرب للصراخ: من أنت كي تمنعيني من التحدث مع أختي؟ هل جننت؟

ارتفع صوت فيروز كقنبلة مدوية قائلة: لأنني لم أكن يومًا
أخت لك!

التفتت ماسة نحوها وقد اتسعت عيناها قائلة بصدمة: ماذا
تقولين؟

لكن صوت إيثار الحاد أمرها بغل: اخربي يا فيروز واصعدي
غرفتك!

قالت فيروز بصوت خرج مرتفعًا أقرب للصراخ الجنوبي وكأن
عدوى الجنون تلبست الكل فصرن يتبارين بأيهنَ تتحدث
بصوت أعلى من الجميع: لن أخرس ولن تملي عليّ أقوالك كما
اعتدت! لقد سئمت، سئمت منك ومن كونك أُمي. أنا أكرهك،
أتعرفين معنى الكلمة؟ لطالما كرهتك وكرهت ما تفعلينه بي
وبماسة. أنت وحش على هيئة آدمي بل إن الوحوش أكثر رحمة
منك. أنت سبب تعاستي ومرضي وكل علائي. ليتني لم أولد!
ليتني لم أكن ابنة لك.

فجأة تحركت إيثار نحوها ورفعت يدها ثم حطت بها بقوة
على وجنتها في صفة عنيفة أودعتها كل ما يعتمل داخلها من
غضب وقسوة قائلة: أنت عديمة الأدب وتحتاجين لإعادة
تربيتك من جديد.

صرخت بها ماسة بغضب: لا تضربيه! إياك أن تفعلها
مجددًا.

قالتها وهي تحجل على قدمها السليمة كي تصل لفيروز فتحتضنها وقد هالها لمعة الجنون في عين أختها، وعلامات الصفة متمثلة على وجنتها في هيئة خمسة أصابع لكن فيروز ابتعدت كالملدوغة، صارخة بغضب: كفي عن حمايتك لي! لم أعد أنتظر الحماية من أحدا! ابتعدي عني يا ماسة، لا أستحق وجودك في حياتي بل لا أستحق الحياة بذاتها بعد الآن.

ثم تطلعت نحو إيثار مكاملة بغضب مشتعل غير قابل للنقصان: أنت من تستحقين الموت بدلاً من عمي. لا أدري كيف أقنعتني بالتزام الصمت خوفاً من الفضيحة وخوفاً على سمعتي. أنت امرأة سوداء القلب. آن الأوان كي أريح قلبي مما يثقله، سأخبر الجميع بما فعلته ولا أهتم لمصيري فالسجن سيكون أحب إليّ من العيش معك بعد الآن.

جاء دور إيثار لتقول بمداهنة وقد غشيها الخوف من غضب فيروز إذ يبدو بأنها فقدت السيطرة على نفسها: إياك أن تفعليها! هناك في السجن ستصيبك كل الأمراض وستتعفنين حدّ الموت دون أن يهتم بك أحد. لن يقدرّوا حالتك الصحية والنفسية كما أفعل!

كانت ماسة تقف بينهما وتطلع نحوهما في صمت أقرب للبلهة. لا تعرف ما يدور بينهما سوى أن هناك سرّاً يخفيانه عنها، لذا استجمعت تركيزها لتقول بقلق وبصوت أقرب للذهول:

فيروز، عم تتحدثين؟ لا أفهم ما يدور.

قالت إيثار تزجرها: اخرجي من بيتي! أنت غير مرحب بك بيننا، هيا اخرجي.

لكن صوت فيروز المدوي ارتفع بغتة: أنا من قتلت عمي.

شهقت ماسة بصدمة وعلا صوت إيثار بغضب: اخرجي يا حمقاء! ستتسببين بكارثة.

قالت فيروز بسخرية مقيئة وكأنها تحولت لشخص آخر غير التي تعرفها ماسة:

الكارثة حدثت وانتهى الأمر. الكارثة حدثت حين كان من المفترض أن تموتي أنت لا عمي. أتدري، برغم معرفتي الآن أنني ابنة حرام وأنتك استطعتِ بطريقة ما أن تلصقي خلف اسمي اسم أب شرعي خدعته بطريقة ما، إلا أنني أحب ماسة وأموت من الحزن على مقتل عمي. ليت تلك الرصاصة كانت من نصيبك أنت لا هو أو من نصيبي أنا كي أرتاح أخيراً من العيش معك في مكان واحد.

فاض الكيل بماسة بسبب كل تلك الأحاجي فصرخت بقوة في فيروز: ما هذا الهراء الذي تقولينه؟ ابنة حرام، كيف؟ وأي رصاصة تلك التي تتكلمين عنها؟ أنا لا أفهم شيئاً مما تتحدثان به البتة.

لكن إيثار أسرعت بغتة نحو ماسة وجذبتها من ذراعها،
تجرجرها دون مراعاة لحالة قدمها، قائلة بغضب أهوج: قلت لك
اخرجني من هنا! اخرجني قبل أن يفوت الأوان وتلقين مصيرًا لا
تحبين أن ينالك!

حاولت ماسة المقاومة دون جدوى. كانت تصرخ بهستيريا
قائلة: دعيني! أريد أن أفهم ما يحدث هنا!

دون مقدمات اندفعت فيروز نحو إيثار لتدفعها فتسقط
أرضًا مع ماسة قائلة بعاصفة من الغضب:

أخبرتكم أن تدعيها، لا تقتربي منها مرة أخرى!

لكن إيثار نهضت سريعًا قائلة بصراخ عنيف: إن لم تلتزمي
الصمت سأؤذيها.

قالت فيروز بجمود: دعيتها خارج الموضوع!

تبسّمت إيثار بسخرية مقيئة قائلة: وحيث أنك أنت من
أقحمتها في الموضوع فستتحملين تبعات ما سيحدث لك ولها.

ثم بكل قوتها سحبت فيروز صارخة بها: هيا اصعدي أمامي
فبيننا حساب لم ينته أيتها الوقحة!

ارتجفت فيروز التي كانت تقاوم بضعف لكن إيثار دفعتها
بعنف للأمام فسارت مسلوبة الإرادة أمام جبروت تلك المرأة

الطاغية. التفتت إيثار نحو ماسة الساقطة أرضاً قائلة لها
بتشفي:

وأنت، بما أنك رفضت أن تخرجي حين كان الأمر متاحاً
فستظلين هنا حتى أجد حلاً لما حدث.

قالتها بينما كانت تصعد بسرعة درجات السلم الداخلي كي
تصل للباب فتغلقه من الخارج، حابسة ماسة في القبو المظلم
دون رادع أو شفقة.

كادت ماسة أن تجن فلا يوجد شبكة بهاتفها الخلوي ولا
تعرف ما هو التصرف الآن. ظلت تفكر حتى أعياها التفكير.
تحاملت على نفسها وتحركت في جميع أرجاء القبو علّها
تستطيع التقاط أي إشارة لكن لا فائدة. لعنت في سرها غبائها
الذي أوقعها مع إيثار. كلام فيروز الغامض أكثر مدعاة للحيرة
والجنون، إذًا فهي تعلم من قتل عمهما ولم تنطق من قبل. لا
عجب أنها كانت تعاني من صدمة مضاعفة تعجبت ماسة لأمرها
حينها في بادئ الأمر قبل أن تكتشف أبعاداً أخرى للموضوع.

أمسكت هاتفها فأرسلت رسالة لمالك عليها تصله إذا ما
التقط هاتفها إشارة في أي وقت. أخبرته بأنها محتجزة في قبو
منزل والدها وأن هناك لغزاً غامضاً يدور بين أختها وزوجة أبيها

لكنها لا تعرف فحواه. طلبت منه إن رأى رسالتها أن يحاول إخراجها من ذلك المكان.

جلست على الصندوق الذي كانت تجلس عليه من قبل، تتأمل شهادة الميلاد الغامضة والتي تحمل اسم عمر. تتضارب الأفكار في رأسها فتشعر بالتشتت وعدم الاتزان. لا خيوط لديها كي تجمعها فتعرف منها الحقائق. كل المعطيات التي لديها غامضة مبهمّة تحتاج لمعجزة كي تفهمها وحدها، وأبداً لم تكن بحال تسمح لها بمحاولة تجميع الخيوط تلك فعقلها أوشك على الانفجار وذهنها أصابه التبدل.

التقطت أذنها جلبة تحدث في الخارج بعد مضي ساعتين، مرتا عليها كمرور قطار ثقيل يدهس تحت عجلاته أرواحاً متناثرة أثقلها الانتظار وأعماها الجهل. أصغت السمع علّها تعرف ما يحدث لكن باب القبو فُتح فجأة لتطل عليها إيثار من الأعلى قائلة بقسوة: اخرجي الآن ولا تعودي هنا مرة أخرى!

نهضت بتعب وصارت تحجل على قدمها السليمة إذ أن الأخرى كانت تؤلمها وبشدة، وما إن اقتربت من إيثار حتى سألت بخوف فعلي: أين فيروز؟

أجابت إيثار بقسوة: فيروز تعاني من مرض نفسي وتحتّم عليّ إدخالها إلى المصحّة الآن.

شهمت ماسة وتراجعت قائلة برعب: مرض نفسي؟ لا، هذا ليس حقيقياً!

لكن إيثار ردت بقسوة: بل هذا حقيقي شئت أم أبيت، وكلما كان سرعة تقبلك للأمر كلما كان الوضع أفضل للجميع.

قالت ماسة بتخبط: لكنها قالت إنها تعرف سبب مقتل عمي وأنها تعرف من فعلها فكيف تقولين عنها ذلك؟

قالت إيثار بسخرية: لأنها مريضة تتوهم أشياء لم تحدث. لديك العمر كله لتتأكدي من صحة كلامي، والآن هيا اجمعي أشياءك واخرجي فلم يعد وجودك هنا مرحباً به.

قالت ماسة بغضب هذه المرة: البيت بيتي كما هو بيتك. لا يحق لك طردي منه!

اكتفت إيثار بهز كتفيها في سخرية قائلة: ولكم أريد الجلوس معك في بيت واحد بعد رحيل جميع من تحبين! سيسعدني ذلك بالطبع فليس هناك ما يسليني سوى وجودك معي تحت سقف واحد.

ثم مالت وغمزتها قائلة بشماتة: ولن يكون هناك شاهد على تلذذي بتحويل حياتك لجحيم.

تراجعت ماسة هذه المرة بخوف. انقبض قلبها ورغم ذلك قالت بتماسك محاولة التحلي بالقوة:

سأرحل الآن لأنني لا أريد الاحتكاك بك في هذه الفترة لكن لا
تظني بأني سأدعك تهنئين بمنزلي ومنزل والدي حتى وإن
استلزم الأمر جرك إلى المحاكم.

أطلقت إيثار ضحكة ساخرة بصوت مرتفع فرمقتها ماسة
بغل ثم استدارت لتخرج من البيت. تعلم بأنها إن خرجت فلن
تعود بسهولة لكن ما بيدها حيلة الآن. تريد أن تطمئن على فيروز
وأن تعرف ما حدث ليلة مقتل عمها، ويبدو بأن بحثها سيأخذ
منحنى آخر.

في غرفة نظيفة حرص منشئوها على إضافة البهجة إلى
جدرانها البيضاء بإضافة لوحات ذات مناظر طبيعية مبهجة
وإضاءات أنيقة فتبدو وكأنها غرفة شخصية ذات طابع حميمي
لا يشي بكونها غرفة في مستشفى، جلست فيروز على الفراش
القريب من النافذة الزجاجية المغلقة بالحديد والتي تطل على
الحديقة الخلفية للمستشفى. تطلعت خارج النافذة وعقلها
غارق في الضباب. شعرت وكأن الأفكار التي تطوف في رأسها
تنسل وتتسرب ببساطة دون أن تستطيع الإمساك بها، وكأنها
بخار ماء يتصاعد من مرجل مشتعل ما أن يلامس الهواء
المحيط حتى يتلاشى سريعًا لكن هناك تلك الصورة الملحة
التي تأبى الخروج من ثنايا عقل مرهق محمل بأعباء التفكير
ويرفض الاستسلام بالرغم من تلك الأدوية التي تتناولها، وقد

كانت الصورة في مشهد مكتمل بأحداث تبدو حقيقية للغاية في عقلها، حقيقية ملموسة ومحسوسة..

صورتها وهي تجلس في سيارة رمادية حديثة أخبرتها إيثار أنها مستأجرة كي تَسَهّل تحركاتهما للذهاب إلى الطبيب والعودة خلال فترة جلسات تعديل السلوك التي تحضرها فقد عانت مؤخرًا من تقلبات مزاجية عنيفة. مهلاً ينبثق في ذاكرتها صوت الطبيب وهو يخبرها بأنها تعاني من اضطراب الشخصية الحدية، فلماذا يصرون على إعطائها دواءً لمرض الفصام الشخصي؟ هل أصبحت أيضًا تعاني "الأسكيزوفرنيا" بالإضافة للاضطراب المعتاد؟

عاد يطفو مرة أخرى في ذاكرتها نفس المشهد وكأن عقلها يصر على اكتمال صورة ذكرياتها. تخبرها إيثار أن تلازم السيارة لأنها ستصعد لعمها لأمر ما. يعود أمام عينها ذات المشهد وهي تسأل بطريقة عابرة عن عمر وأحواله، وكأن ذكر كلمة عمها تحيي في قلبها مشاعرًا وأدتها أو حاولت التستر عليها مدفونة بعمق، فتجيبها أمها بالصراخ عليها قائلة بأنها غبية ومخيبة للآمال وكم أنها هشة وضعيفة ولا تصلح لها ابنة ثم تمد يدها بكل عنف فتنزع القلادة المعلقة في رقبتها قائلة بتأنيب:

حان الآن دوري لتعليمك كيف تكونين قاسية القلب، لا حب ولا مشاعر. أنت تسلكين درب ضعاف القلوب!

مدت يدها قائلة برجاء: أعيدي القلادة لي رجاءً، إنها غالية عليّ.

كانت تلك القلادة قد أهدتها لها جمانة حين حصلت على مجموع كبير يؤهلها لدخول كلية الصيدلة. رافقتها يومها مع عمر لتقديم أوراقها إلى الجامعة ثم عرّجوا بعدها على محل المصوغات المميز الذي تتعامل معه لتشتري تلك السلسلة وحرّفها الذهبي المتمثل بحرف " F " وقد ناولها إياها عمر مع ابتسامة مميزة من القلب وكأنه فخور بها. اعتبرت تلك الهدية رمزًا لحبها له فخبأتها عن أمها وماسة ولم تخبرهما بأمرها بل واشترت لنفسها حرف " O " الذي يمثل أول حرف في اسم عمر باللغة الإنجليزية فأضافته لقلادتها الذهبية الغالية على قلبها، لكن إيثار اكتفت بأن وضعتها في جيب سترتها ثم تراجلت من السيارة قائلة بغضب: الزمي السيارة. لن أتأخر وسأعود سريعًا.

جلست تبكي في السيارة حبها لعمر وقمع إيثار لها. شعرت أنها اكتفت ولا تستطيع التحمل أكثر. لابد من حل! تفتق في ذهنها أن تصعد إلى عمها وتطلب النزوح إلى فيلته. لا تريد أن تعيش مع إيثار بعد الآن!

ترى ما يدور في عقلها وكأنه مشاهد حية تدور أمام عينها الآن، فها هي تصعد ثم تتوقف أمام الغرفة لتسمع صوت شجار أمها مع عمها. احتارت أتهبط مرة أخرى للسيارة أم تكمل

مهمتها التي جاءت لأجلها؟ وبينما هي على حيرتها، لفت سمعها صوت عمها الغاضب المرتفع:

لقد علمت ما فعلته بأخي محمود، وأعرف الآن أي خدعة أوقعته بها. لدي ما يثبت كلامي بأن فيروز ليست ابنته وأنك فعلت ما فعلت طمعًا في ماله.

انتفضت فيروز فعليًا وهي تسترجع تلك الأحداث في ذهنها وكأنها تعيشها مجددًا لا في خيالها. كان الكلام قاسيًا يجرح روحها ويديمها لكن ما أدماها أكثر كلام إيثار فقد سمعتها تقول بسخرية دون اكتراث فعلي وكأن من تتحدث عنها دجاجة لا انسانية من لحم ودم:

أنت مخطئ ومعلوماتك مغلوطة. أريد إثباتًا بأن ما تقوله هو الحقيقة.

قال مراد بغلظة: الإثبات يسهل الحصول عليه كما أنني أعرف الضحية، وصدقيني حين أخبره بمكانك لن يرحمك بسبب ما فعلته به، فلقد سعى بكل جهده أن يصل إلى مكان اختبائك ولولا بحثي خلف قضية راجي ما كنت علمت بما فعلته.

قالت بسخرية مقببة واستهتار واضح: لا أهتم ولن يستطيع أن يشكوني! ماذا سيقول؟ أنني خدعته وأخذت منه نقودًا لأجل أن أوجر له رحمي؟ لن يستطيع فعلها كما أن راجي لن يستطيع

التحدث بذلك أو أن يشهد ضدي، فلا ينقصه فضيحة أخرى تضاف لسجله القذر؛ حتى أنه حذرني منك قريبًا بأنك تسعى خلف الملفات المغلقة من زمن، لذا فهو في صفي ولن ينقلب علي.

قال مراد بقسوة: أنت وقحة، امرأة بلا قلب ولا أخلاق. أتظنين أنك ستفلتين بفعلتك؟ صدقيني سأمررها لك فقط في حالة واحدة، إن أعدت ميراث ماسة لها؛ فلا حق لك ولا حق لفيروز في ميراث محمود أخي ونقوده التي جناها بتعبه وكده لسنوات، وإن لم تفعلي فلدي تحليل يثبت عدم انتماء فيروز لمحمود. أتتحملين تبعات فعلتك؟ هل لديك الجرأة لتحميل فيروز تبعات أوزارك؟

تقدمت إيثار نحوه قائلة بتهديد ساخز: أتهددني يا مراد؟ صدقني لن تجرؤ على فعلها فلن يهون على قلبك الضعيف تحميل فيروز أوزاري! صدقني أنا أعرفك جيدًا وأعرف تفكيرك.

لكن مراد قال بقسوة حينها: لا أهتم بما سيحدث لفيروز يا إيثار! أتدريين لماذا؟ لأنني وبكل بساطة أملك أيامًا معدودة في هذه الحياة ولا أهتم بما سيحدث بعد موتي. صدقيني، ليس لدي ما أخسره بالفعل! فيروز أنت قادرة على حمايتها فهي تخصك أما ماسة فليس لها أحد في الدنيا بعد وفاتي...

قاطعته بسخرية: حتى عمر، أخوها؟

نفي مراد بغلظة: ليس لها إخوة! عمر ابني.

قالت إيثار بصفاقة: لكنني أعرف أن راجي زور لك شهادة ميلاد بعد وفاة ابنك بعدة أيام في الحاضنة (غرفة رعاية الأطفال حديثي الولادة ممن يعانون مشاكل صحية)، وحين تقصيت خلف الحقيقة علمت أن محمود أخيك قد استخرج شهادة وفاة لابنه التوأم. صدقني، أنا أعرف ما أبحث عنه جيدًا فلا تحاول الانكار!

قال بمراوغة: ليست تلك قضيتك يا إيثار فلا شيء يثبت صحة ما تقولين أما أنا فلدي ما يثبت أقوالي، فما قولك؟ هل لديك الشجاعة لأن تعرف فيروز حقيقة والدتها القذرة أم سترضخين وتعيدين لماسة حقوقها كاملة؟ وأعدك حينها بأني سأتركك تنعمين بإرث أخي دون المساس بك.

اقتربت منه إيثار قائلة بغل فاق الحد: لن تجرؤ يا مراد على تنفيذ تهديديك! أنصحك بألا تفكر في ذلك فأنت لا تعرفني ولا تعرف ما أنا قادرة على فعله.

كانت قد اقتربت منه كثيرًا لكنه لم يأبه لها. فتح جارور مكتبه وعبث به قليلًا، يبحث في محتواه عن ورقة ما وحين وجدها لوح بها أمام عينيها قائلاً بسخرية: ها هي ذي، إنها تلك الورقة التي تسمى قسيمة زواج عرفي. دعينا نرى ما هو مكتوب فيها.

ثم رفعها أمام عينيه ليقرأها قائلاً بنفس السخرية المستفزة لها: الزوجة إيثار سعيد الشاهد والزوج فاروق حمدي.

تطلع نحوها متسائلاً بلهجة ساخرة تحمل تهديداً في طياتها: أظن أنها أنت! أم تحبين محادثة السيد فاروق شخصياً لتتأكد منه؟

لم تمهله إيثار إذ فاجأته بردة فعل غير متوقعة. مدت يدها فجأة فسحبت المسدس الموضوع أمامه في الجارور المفتوح للمكتب قائلة بلهجة حملت كل البغض في العالم:

إياك أن تجرؤ على تهديدي أبداً، إيثار الشاهد ليست امرأة يستهان بها!

كانت قد تراجعته بحركة سريعة كي لا تمنحه الفرصة أن يهاجمها. سحبت زر الأمان ووضعت المسدس في وضع الإطلاق لكن فيروز اندفعت داخل الحجرة في تلك اللحظة.

بدأت مشوشة وغازبية للغاية حتى أنها هاجمت إيثار بشراسة منتزعة منها المسدس، قائلة بصوت خرج على هيئة عويل: أي شيطانة أنت؟ كيف تفعلين كل ذلك وتنامين آخر الليل دون تأنيب ضمير؟

تراجعت إيثار خطوتين للخلف قائلة بصدمة: لِمَ أنت هنا؟ ألم أخبرك أن تلزمي مكانك في السيارة؟

لكن فيروز المشتعلة بالغضب لوحث بالمسدس في وجه إيثار قائلة بصراخ غاضب حتى أن الكلمات خرجت غير واضحة تمامًا: تريدني مني أن ألزم مكاني كي لا أعرف كل حقائقك القذرة. أنت لست أمًا

بل لست بإنسانة! أنت شيطانة تتحرك على هيئة إنسان.

شعرت إيثار بالخوف. تعرف أن فيروز ما زالت تعاني صعوبة في الاستجابة للعلاج السلوكي لاضطراب الشخصية الحدية (Borderline personality disorder) الذي تعاني منه منذ وفاة والدها فبعد محاولتها الانتحار والتي أنقذت منها لحسن حظها، ما زالت تضطرب أحيانًا وتفقد السيطرة على نوبات اكتئابها أو نوبات غضبها، والآن وهي تمسك المسدس بيدها. علمت إيثار أنها ربما تؤذيها ففكرت سريعًا كيف تخرج من ذلك المأزق ولكن تفكيرها خانها حين دفعها لمحاولة التقدم نحو فيروز قائلة بمداهنة: فيروز حبيبتني، لا تصدقي هذا الهراء! كل ما تفوه به عمك كان للضغط عليّ فقط كي أتنازل عن حقي لأجل تلك الحرباء الصغيرة المسماة ماسة.

لوحث فيروز بالمسدس بغضب صارخة: لا تنعيتها بالحرباء فهي أشرف منك!

عمها المتوقف بتعب بجوار مكتبه قال بلهجة حنون: فيروز، لا تلوئي يدك بدمائها فهي لا تستحق!

ردة فعل فيروز صدمته إذ قالت بغضب أهوج موجهة حديثها له: أخبرني عما قالته بخصوص عمر، هل هو صحيح؟

كانت عيناها قد حادت قليلاً عن إيثار التي استغلت الفرصة سريعاً وهاجمتها، تحاول أخذ السلاح منها ثم فجأة انطلقت الرصاصة..

جحظت عينا فيروز متطلعة نحو عمها المضرج بدمايه ثم نظرت نحو والدتها تسأل بصدمة: كيف؟

كانت إيثار تمسك يد فيروز التي تمسك المسدس وعيناها تلتمعان بقسوة. قالت بصرامة:

انظري أين أوصلك غباؤك! وكأنك تحبذين الانتحار بشتى الطرق!

تلعثمت فيروز المتخيبة بصدمتها قائلة: لكن أنا.. أنا.. أنا لم أطلق النار.

قالت إيثار بغضب وقسوة: بل فعلت يا فيروز! أطلقت النار وقتلت عمك في ثورة غضبك الحمقاء. هيا اذهبي إلى الأسفل ريثما أجد مخرجاً من تلك الكارثة.

وقفت فيروز تنظر بذهول لجثة عمها الملقاة أرضاً قائلة بصدمة: هل، هل مات؟

دفعتها إيثار صارخة بها أن تهبط للأسفل حتى تفكر بمخرج من ذلك المأزق. خرجت فيروز بانهيار وقدامها لا تحملانها أبدًا فجلست على الدرج تلتقط أنفاسها، مرّ الوقت ببطء قاتل حتى وجدت إيثار أمامها. لا تعلم كم مرّ من الوقت تحديدًا لكنه بدا وكأنه دهر من الزمان. همست إيثار ساخطة بينما تتلفت حولها بقلق: هل أنت غبية؟ ماذا تفعلين بجلوسك هكذا على الأرض؟ هيا انهضي ودعينا نخرج من هنا.

بللت شفيتها الجافتين بطرف لسانها قبل أن تهمس تائهة في مشاعر لا تعرف ترجمتها أبدًا:

هل تركته دون أن تتصلي بالإسعاف؟ ربما لم يمت ويحتاج لنقله للمستشفى.

لكن والدتها أنهضتها بقسوة قائلة: ويكون مصيرك السجن مدى الحياة! لا تكوني غبية وانهضي لنذهب الآن قبل أن يأتي أحد.

سحبها خلفها بسرعة تتحرك بخطوات واسعة حتى أجلستها في السيارة بعنف ثم دارت لتحتل مقعد القيادة. أدارت المحرك دون كلمة ثم انطلقت بها سريعًا وظلت على تلك الحالة حتى اطمأنت لابتعادها بالقدر الكافي قبل أن تتوقف بالسيارة على جانب الطريق. نظرت نحو فيروز التي كانت تجلس محدقة بالفراغ وتبدو من اتساع عينيها أنها تعاني صدمة عصبية.

قالت إيثار بصوت مرتفع نسيئًا: فيروز، ما حدث قد حدث
وانتهينا.

ظلت على حالها دون أن تستدير أو تجيبها لكن إيثار كانت
مصرة. أمسكتها من ذراعها، تدفعها برفق وقد تغيرت صوت
لصوت حنون لا تستعمله بتاتًا إلا لهدف ما: حبيبتي فيروز، عمك
مات. أعلم أنك لم تكوني تقصدين ذلك لكن تخيلي أننا ذهبنا
للشرطة، هل تظنين أنهم سيرأفون لحالك؟

التفتت نحوها فيروز، ترتجف شفاتها باختلاجات عنيفة
وكأنها على وشك البكاء. تابعت إيثار بينما تميل لتمسح وجهها
بين كفيها بحنو مخادع: هل تظنين بأنهم سيعاملونك بكل
شهامه ويلتمسون لك الأعذار؟ سيلقونك في السجن حتى
تتعفني هناك أو على أبسط تقدير، سيفتضح أمر علاجك
السلوكي وحينها ستتهمين بالجنون. هل تتخيلين معنى أن
تتهمي بالجنون في مجتمعنا هذا؟ فكري كيف سينظر لك
زملاءك في الجامعة بل كيف سيعاملك عمر إن علم أنك خلف
مقتل والده؟

تساقطت دموع فيروز كالحمم، تشهق بعنف وكأنها تعاني
من آثار صدمة متأخرة. أمسكتها إيثار تضمها لصدرها قائلة
بتعاطف: لا تبكي حبيبتي فأمك ستتولى حمايتك. المهم ألا
تنطقي أو تظهري لأحد معرفتك بما حدث، هل تفهميني يا
حبيبتي؟

حين لم يصلها الرد من فيروز المنتحبة بقوة، أعادت سؤالها مرة أخرى وقد صبغته بشيء من القسوة: أتفهمين مطلبي؟ لن يشك أحد بك ما لم تفتحي فمك وتتحدثي لذا عليك التزام الصمت. أتفهمين ما أقول؟

هزت رأسها بالإيجاب وتعالى نحيبها المرتفع. هنا قالت إيثار بقسوة: إذاً كفي عن دموعك تلك وهيا كي لا نلفت الأنظار نحونا.

دفعتها برفق كي تستلقي على المقعد واتجهت بالسيارة نحو المستشفى التي تتابع فيها حالة فيروز. أوقفت السيارة في الموقف المخصص لها ثم ترجلت منها لتدور حولها وتساعد فيروز الذاهلة كي تترجل منها. أجرت اتصالاً هاتفياً بدا غامضاً ليفروز المشتتة رغم أنه كان موجهاً للسيد فاروق، تخبره بأنها قد أعادت سيارته التي تركها لها من قبل لأنها ما عادت تحتاجها ثم أوقفت سيارة أجرة وساعدت فيروز على ركوبها، وحين وصلت المنزل أدخلتها غرفتها مشددة عليها بالأظفار متظهرة معرفة بما حدث لعمها ثم انسحبت في هدوء آمل أن تكون ماسة قد غرقت في نومها كي لا تكتشف حالة فيروز البائسة تلك.

في الصباح الباكر رحلت إلى العاصمة كي تقدم التعازي لجمانة وتقف جوارها كما يفعل البشر الطبيعيين متناسية أنها مهما فعلت فلن ترقى لتلك المنزلة، لأنها تحتل منزلة عالية في عالم الشياطين..

شياطين الإنس.

الفصل السادس عشر... نهاية لا متوقعة.

جلست ماسة على الأريكة في تلك الشقة الصغيرة في ذلك الحي السكني البسيط. وضعت أمامها ذلك الظرف الصغير الذي أعطاه لها مالك منذ يومين وبجانبه ظرف آخر ضخم الحجم وجدته في الشقة، وما زالت على حالتها تلك منذ أن قرأتها. بالكاد خرجت اليوم لمهمة ما اختمرت في ذهنها وقررت تنفيذها. كانت في المصححة النفسية التي تم إيداع فيروز فيها بعد أن تقصى لها مالك عن مكان وجودها بعد قرار إيثار بإبعادها عنها.

عادت بظهرها إلى الخلف تستند به على الأريكة المهترئة بفعل الزمن الذي وضع بصماته عليها كما يفعل مع البشر. يؤلمها جسدها ولكن عقلها هو من يسبب لها الألم الفعلي. كادت أن تفقد تماسكها منذ ساعات قليلة بينما تتحدث مع فيروز، حبيبته فيروز.

جلست في غرفة فيروز ذاهلة واجمة تتطلع لبشرتها الشاحبة في خوف، سمح لها الطبيب بزيارتها محذرًا إياها من احتمال وجود ردود فعل عنيفة قد تأتي بها لكن ماسة لم تبال، فما زالت تركز إلى معرفتها بفيروز الهشة الضعيفة التي كانت دائمًا سندا لها. أمامها تجلس فيروز مطأطئة الرأس تضع رأسها بين كفيها وتكتفي بالتمتمة في همس. مالت نحوها قائلة بقلق: فيروز هل أنت بخير؟

لكن فيروز ظلت تتمتم وتهذي بكلام غير مفهوم. اقتربت
منها ماسة بوجل قائلة بقلق حقيقي:

فيروزي هذه أنا ماسة، أخبريني ما بك؟

رفعت فيروز عينيها قائلة بخوف: أنا لست مجنونة! أنا أعرف
عمّ أتكلم. ليست هلوسات يا ماسة! ليست تلك هلوسات
بصرية كما يصرون على قوله لي.

احتضنتها ماسة بحب قائلة: ومن قال إنك مجنونة؟ أنت
عاقلة جدًا كما أراك وأصدقك.

تطلعت نحوها بأمل وعيناها تبرقان بوهج غريب أشاع
الخوف في قلب ماسة:

هل تفعلين؟ هل ستظلين تحبينني حتى وأنت تعلمين
أنني القاتلة؟

عقدت ماسة حاجبيها قائلة بخوف تحاول أن تحسب كيفية
الرد بكلام محايد على تلك المعلومة الغريبة: أنا لا أعرف ما
حدث حتى أتهمك بالكذب والضلالات، هلا أخبرتني من فضلك
وأزحت الغمة عن عيني؟

أغمضت فيروز عينيها بقوة، تبدو متهالكة متعبة. تكورت
على نفسها وألقت برأسها في حجر ماسة وقالت بصوت واهن:
أنت أختي الحقيقية حتى وإن أخبروني بعكس ذلك.

ربتت ماسة على رأسها تغالب دموعًا محتبسة في مقلتيها. قلبها يتمزق إلى أشلاء صغيرة أو يتحطم إلى شظايا حادة تنغرس في صدرها فتدميه أكثر. تعرف ما كُتِب في خطاب عمها الموجه لها تحديدًا ولا تصدقه رغم ذلك. حياتها التي عاشتها كانت كلها كذبة، كذبة كبيرة حاكها الكبار وخاطوها بخيوط قوية متينة ووقع في شراكها ثلاث ضحايا بل أربع لا بل هم خمس، إن صح القول! عمر وماسة وفيروز كانوا أكثر المتضررين في لعبة الخداع تلك أو لعبة الحقارة، والتي اعتمدت على الأهواء والمصالح ثم يليهما جمانة ووالدها. أما الضحية الأكبر فكان عمها الذي دفع حياته ثمناً حين حاول إصلاح ما أفسده انعدام الضمير والجشع ذات يوم.

أخرجها من تأملاتها الساكنة الموجوعة المحاكة بخيوط قسوة الزمان صوت فيروز الباهت قائلة:

كنت أريد أن أخبره بأني سئمت من العيش مع إيثار، كنت أريد الهرب من تلك الحياة فقط والعيش مع عمي كما كنت تفعلين، وكم كنت أغبطك على ذلك فلا يوجد من يتحكم بك أو يفرض عليك ما لا ترضين.

مالت ماسة تقبل رأسها المسجى بأحضانها وقالت بصوت خرج كمعزوفة حزينة بائسة: وماذا بعد؟

تابعت فيروز بهمس خافت: سمعت شجارًا بينهما كما حدث في ليلة وفاة والدي.

كانت تتكلم بصعوبة وكأنها تحارب تيارات عقلها كي تتغلب على ذلك الضباب الذي يلف خلاياها العقلية المتمردة، تعاني كي تخرج كلاً ما مترابطاً تفهمه ماسة وتتفاعل معه.

عادت تفتح عينيها وكأنها تسخر منوهة بملحوظة عابرة: في كل مرة تتشاجر إيثار مع أحدهم تكون نهايته الموت.

لم تجد ماسة ما تجيبها به فاكتفت بالصمت وكأنها تستوعب حقيقة مرة مرارة العلقم العالق بالحلق لكن فيروز الغافلة عن صمت ماسة الشاردة في عالمها الضبابي، عادت تغمض عيناها مرة أخرى منتحبة: كان يهددها بي كي تعيد حقل بالإرث لك. تحدث عن كوني ابنة غير شرعية سرقنتني من أبي الذي دفع لها نقوداً كي تحملني في رحمها ثم بكل وقاحة واستهتار تزوجت والدك ونسبتني له.

شهقت ماسة في أسى. تعرف تلك الحقيقة لكن أن تسمعها بتلك الطريقة كانت تثير داخلها الاشمئزاز والحزن.

اكتفت فيروز بالتبسم على شهقة ماسة دون أن تفتح عينيها المغمضتين، وكأنها ترفض رؤية العالم الكريه حولها فتهرب منه بإغلاق عينيها.

أكملت بشجن: ثم سمعتها تخبر عمي بأنها تعرف حقيقة كون عمر توأمك وحينها لم أستطع التحكم في نفسي. حركني غضب أهوج ليدفعني لاقتحام الحجرة. رأيته تحمل مسدسًا وتصوبه نحو عمي قائلة له بأنها تريد أن يتركها وشأنها وإلا ستكون العواقب وخيمة لكنني هاجمتها وانتزعت السلاح. منها كنت أريد قتلها.

ثم فتحت عينيها بغتة وتغيرت لهجة صوتها لغضب أهوج: والله كنت أريد لها الموت ولم تكن لتكفيني ميتة واحدة لها بل ألف ميتة لم تكن لتخمد ناري التي أشعلتها في قلبي. أردت التبرؤ منها لكن شغلني لجزء من الثانية كون عمر توأمك. كانت حقيقة مفاجئة أردت معرفة حيثياتها، وهنا هاجمتني إيثار وحاولت نزع السلاح من يدي ثم سمعت دويًا أصم أذنيّ ووجدت عمي يسقط أرضًا مضرجًا بدمائه.

هطلت دموعها حافرة أخاديذًا من الحسرة على وجنتيها.
قالت بصوت منكسر:

أردت إنقاذه، أردت أن أتصل بالإسعاف كي تأتي وتنقذه لكنني خفت منها وتجمدت أفكاري. كانت تريد حمايتي بعد كل شيء. لست أفهمها، أبدًا لست أفهمها أو أفهم تفكيرها المعقد! طلبت مني التزام الصمت والنسيان. تكفلت هي بكل شيء ولا أعلم تحديدًا كيف لم تترك خلفها أثرًا لكنها حاولت حمايتي. أعطتني حبوبًا مهدئة وأخبرتني أن أحافظ على علاجي حتى تمر

تلك المحنة. أخبرتني بالأخبارك أي شيء. كنت أشعر بأني مصابة بفقدان في الذاكرة وكأنني نسيت ما حدث يومها. ربما هو هروب سببه عقلي الباطن أو هي تلك الحبوب التي كانت تجبرني على تناولها، لا أعلم السبب تحديداً!

ضممتها ماسة بحنان وقالت تغالب دموع عينها المنذرة بالهطول: حبيبتي، لقد تحملت فوق طاقتك لكن كيف طاوعك قلبك على الصمت كل تلك المدة؟ كيف لم تشعرني بالغضب جراء موت عمك وأبلغت السلطات بفعلة إيثاراً؟

تطلعت نحوها فيروز تكفكف دموعها قائلة: لكن أنا من قتله. ألم أخبرك بأن المسدس كان بيدي وأطلقته بالخطأ؟

تزايد نحيبها وقد بدأت تنشج بالبكاء: لقد قتلت عمي بيدي وخفت أن يكون مصيري السجن. لن أتحمل معاناة السجن يا ماسة. أنت تعرفيني، ضعيفة وجبانة. تعرفين أنني لا أستطيع أن أفعل شيئاً مفيداً حيال نفسي أو لغيري. أنا عالة على المجتمع، أعيش ككائن طفيلي يستمد الحنان من الآخرين، يتسول الحب وينزوي في ركن مظلل يخاف أن يناله أي أذى. أتعرفين يا ماسة، لقد انتحرت ذات مرة حين اسودت الحياة بوجهي بعد وفاة والدي وانعزلك عني وأنت تعيشين في منزل عمي مراد. شعرت بأنني لا أطيق تلك الحياة مع والدي فقررت أن أنهيتها في لحظات اكتئاب تغللت وتشعبت حتى حاوطت قلبي وتشابكت مع روحي فأغرقتني بسوادها لكن إيثار أنقذتني منها وتكتمت على تلك الحادثة.

فغرت ماسة فاها وقد شعرت بأن فيروز هذه غير تلك التي تعرفها تمامًا، شعرت أنها لم تعد تفهم الصغيرة التي كبرت وأصبحت لها معاناتها ومشاكلها التي أجادت إخفائها عنها طوال العامين المنصرمين. نظرت لها مذهولة ثم قالت بصوت خرج مشروخًا محملاً بالصدمة والقلق:

لم أعرف ذلك يا فيروز! لِمَ لم تخبريني من قبل؟ هل كان ذلك اليوم حين رأيتك أمام المستشفى مع إيثار والطبيب لأجل العلاج؟

حدقت بها فيروز قائلة بتبلد: لا أعرف عم تتحدثين فيإيثار تجبرني على حضور جلسات علاج سلوكي كي تقيم حالتي النفسية. أي يوم تقصدين؟ فالأيام كثر وتشبه بعضها. أغمضت عينيها مرة أخرى قائلة) لم أعد أستطيع الكلام، أشعر بالإعياء. ذلك العلاج الذي أخذه يشوشني كثيرًا. رفضت أن أتناوله لكنهم أجبروني عليه كي ينهي حالة الهلوسات والضلالات التي تزورني.

سألت ماسة بقلق: هل تعانين من هلوسات وضلالات؟

فتحت فيروز عينيها مبتسمة بسخرية: كل ما حكيت لك منذ قليل يخبرونني بأنه ضلالات فلم أكن موجودة في مكان الحادث يومها بل كنت في جلسة علاج خاصة مع طبيبي.

عادت ماسة لتفغر فاها مجددًا فكل ما قيل لها كان خارج قطر استيعابها وتصديقه لكن دخول الطبيبة قائلة بلطف «هيا

يا آنسة لقد انتهت الزيارة وحن موعد تناول الآنسة فيروز
للدواء» قطع عليها اندهاشها.

نهضت بتوتر وقدمها السليمة تكاد تنضم لتلك المكسورة
فلا تتحمل جسدها النحيل. عضلاتها تكاد تكون مرتخية
فتمشي بخطوات لينة مترنحة وكأنها على وشك السقوط أرضًا.
شعرت الطبية بمعاناتها فتقدمت نحوها تساندها متسائلة
بهمس وجل: هل أتحتك المريضة ببعضٍ من خيالاتها؟

نظرت نحوها ماسة باضطراب فقالت الطبية مازحة إياها:
لا تحدي بي هكذا. أعترف بأن خيالها مترابط بسرد الأحداث حتى
لتظني أنها حقيقية بالكامل، ولولا إصرار الطبيب هادي على أنها
ضلالات لكونه شاهدًا على وجودها في مكان آخر في غير مكان
الحادث المزعوم لصدقتها أنا أيضًا.

سألت ماسة بفضول: هل الطبيب هادي هو ابن صاحب
المستشفى، السيد فاروق حمدي؟

أكدت الطبية: نعم هو المسؤول عن حالتها وتقييمها.

كانتا قد خرجتا من الغرفة فنادت الطبيبة على الممرضة
وأخبرتها أن تعاون ماسة بلطف على الجلوس في الاستراحة إلى
أن تشعر بمقدرتها على المغادرة ثم عادت مرة أخرى لغرفة
فيروز وأغلقت الباب كي تبدأ بفحصها الروتيني قبل إعطائها
الدواء المقرر.

جلست ماسة في الاستراحة تلملم شتات نفسها. قلبها يُعتصر داخل صدرها المعبأ بالحزن والألم. شعرت بالقهر لحال فيروز وبالقهر الأكبر لأنها كانت السبب فيما حدث لعمها. علمت الآن أن المجرم في الفيلا كانت إيثار التي تحاول حماية فيروز. ربما كانت تبحث عن ورقة تحليل الحمض النووي الذي يثبت بأن فيروز ليست ابنة أبيها محمود!

ضجت داخلها سخرية سوداء فالورقة كانت معها، مخبأة بعيداً عن الفيلا بأية حال. وجدتها في الظرف الذي استلمته كوصية خاصة بها وكأنها نفحة من عمها مراد أراد أن يهبها إياها بعد وفاته فتساعد في حل لغز وفاته المستعصي على فهمها، وكأنه شعر بأن وفاته ستكون غامضة وستحتاج لوضع بعض القطع في مكانها الصحيح كي يكتمل حل الأحجية. تلك الوصية التي حملت عدة مفاجآت احتفظت بها ماسة لنفسها.

حين طردتها إيثار ذلك اليوم كانت قد نسيت أمر الرسالة التي أرسلتها لمالك أثناء احتجازها في القبو. جن جنونه وظل يتصل بهاتفها عشرات المرات بينما انشغلت بصدمتها بما سمعت، وحين أجابته أخيراً كان قد اقترب بسيارته من مدينتها الصغيرة. أخبرها بأنه في الطريق إليها فلا تتحرك لكنها أخبرته بأنها استقلت إحدى سيارات الأجرة بالفعل إلى خارج المدينة؛ وماهي إلا نصف الساعة حتى قابلته على الطريق، أسود الوجه متعكر الملامح وعينه تشعان بغضب أهوج. سألتها مباشرة أن تحكي له ما حدث بعد أن اصطحبها إلى مكتبه وقد أشفق على

حالتها المزرية أمامه. رآها مختلفة، تبدو مهزومة مستكينة وتعيسة إلى أقصى حد، وكم ألمه ذلك الشعور بشدة! لا يعلم حقيقة ما يحدث له معها ولماذا تؤثر به دون كل الفتيات وكأنها اختزلت مساحة كبيرة من قلبه وسكنتها وحدها؟

حاول التخفيف عنها لكنها قاطعته بإعياء: أعطني ذلك الظرف الذي تركه لي عمي فلربما وجدت فيه بعض الإجابات.

مد يده بصمت فأخرجه من خزانة صغيرة بجانبه فتناولته بلهفة وعيناها تلمعان بدموع حبيسة. رمته في أحضانها فأغلقت عينيها وتأوهت بحزن. فرت دموعها في صمت على وجنتيها فنهض يغالب عجز قلبه أمامها وتشاغل بالنظر خارج النافذة. يشعر بالمرارة لأجلها وبالحزن على حالها وكأنها تشغل مكاناً أكبر من كونها عميلة كان يقضي بعض الوقت معها في مغامرة غير محسوبة العواقب.

التقطت أذناه شهقة خفيفة أطلقتها فعاد ينظر إليها. رآها تحتضن الظرف بيدها اليسرى، تضمه إلى صدرها بينما تمسك باليد الأخرى رسالة صغيرة تقرأها. سألته بحيرة من بين شهقات دموعها:

لماذا ترك عمي لي مفتاح شقة دون أن يخبر الآخرين عنها؟

تقدم منها مالك فسأل بحيرة تضاهي حيرتها: أي شقة؟

ناولته الرسالة الصغيرة قائلة: تلك الشقة.

تناولها فوجد بها عدة كلمات مكتوبة بخط أنيق صغير وكأن صاحبها تأني بالكتابة دون استعجال. التهمت عيناه السطور القليلة بسرعة (حبيبتي ماسة، تلك الشقة الصغيرة هي كل إرثي السابق، فيها حياة حاولت وأدها طويلاً ففشلت، والآن أسلمها لك أمانة تتصرفين فيها كيفما تشائين).

ثم كتب عنوان الشقة في أسفل الرسالة. كان ذلك العنوان هو الذي رأيته صباحاً في خلفية صورة والديها. حركت الظرف فسمعت صوتاً معدنياً فيه. نظرت داخله فوجدت ميدالية صغيرة قديمة تحمل رأس نفرتيتي الملكة الفرعونية الجميلة القوية. إنها تشبه ميدالية قديمة امتلكها والدها سابقاً. الفرق كان في الألوان فميدالية والدها التي كانت تحبها كما تتذكرها كانت مبهرة بكل تلك الألوان الجميلة التي تطعم تاج نفرتيتي المميز أما هذه التي تراها الآن فقد بهتت ألوانها وطمست معالمها تماماً كما يفعل الزمان مع البشر حين ينحت فيهم فيغير هيئتهم ويبهت أرواحهم.

أصرت على مالك أن تأخذ سيارة أجرة لتذهب لذلك العنوان واحترم رغبتها لكنه أصر على تتبعها بسيارته ليعرف العنوان في حالة اضطراره لأن يعرف مكان سكنها فيما بعد. تراجلت من سيارة الأجرة في حي سكني قديم هادئ في ذلك الوقت من الليل. البناية أيضاً قديمة لكنها تحتفظ بملامحها الجميلة رغم بصمات مرور الزمن عليها والتي نالت من واجهتها الكثير.

سعدت واختفت داخل البناية فتنهد ثم تناول هاتفه ليجري اتصالاً معها، يطمئن على سلامتها. حين أجابته بأنها وجدت الشقة مرتبة ونظيفة وصالحة للإقامة فيها رحل بعد أن أكد عليها بالسؤال إن كانت تحتاج شيئاً فيحضره لها لكنها رفضت وأكدت أن الشقة مهيأة للمعيشة وكأن عمها كان يقيم فيها أو يعلم بأنها ستأتي لتقيم فيها على غرة.

في تلك الشقة التي دلفت إليها ماسة، سطعت في ذهنها ذكريات قديمة في مكان مماثل.. مهلاً! لقد أتت هنا من قبل. لم تسعفها ذاكرتها متى أتت لكنها خمنت بأنها كانت حينها في الرابعة من عمرها أو الخامسة، ولقد أتت مع عمر حين اصطحبها عمها كي يريهما كهف الاختباء كما يحب أن يطلق عليه.

عادت ماسة من جولتها بالذاكرة إلى واقع وجودها في شقة عمها القديمة أو شقتها كما أخبرها مالك بعد أن وجد تنازلاً من عمها مراد لها بملكية الشقة. جالت بأنظارها تطالعها بصمت كئيب وتتذكر كيف وجدت ذلك الظرف الضخم مخبأ تحت وسادة السرير. كانت الشقة قديمة لكنها منظمة ونظيفة، هناك من يأتي لتنظيفها، هذا ما تبادر إلى ذهنها.

عادت تتطلع إلى ذلك الظرف. يختلج قلبها وكأنها تراه للمرة الأولى، كيف لا وقد قلب كل معطيات حياتها وأحال ثوابتها إلى سراب؟! اعتدلت تمسكه بحذر. ما زال قلبها يُعْتَصِر بالألم كلما

أمسكت الرسالة التي خطها عمها إليها. يخفق مرات عديدة بعنف ثم يئن وينتفض كطير ذبيح يصرخ طلبًا الاستغاثة.

سكبت محتوياته في حجرها ثم أمسكت الأوراق تتأملها بحسرة، فها هي شهادة ميلاد عمر باسم الأب مراد والأم جمانة وهذه وثيقة زواج عرفي يعود تاريخها إلى عام مضى بين إيثار الشاهد ورجل الأعمال فاروق حمدي. ارتسمت نظرة احتقار في عينيها بينما تطالعها فقد أصبحت تعلم الآن ذلك السر الذي نجت إيثار في إخفائه طيلة الوقت وأخبرها به عمر منذ ليلتين حين صارحها بكل ما علمه من السيد أمجد ثم هناك تلك الورقة الغامضة وهي صورة لصك مدفوع باسم الطبيب عاطف سند والتي سبق ورأت مثيلتها من قبل، وأخيرًا ورقة تحليل للحمض النووي، تحمل اسم فيروز وشخص يدعى سليمان الأغا تحت اسم الأب.

علمت الآن كل ما نجح عمها بدفنه طيلة حياته. ألقى الحمل كله عن كاهله وكأنه يأبى أن يرحل بسلام دون تكدير حياتها! غامت عيناها بالدموع حين وصلت لرحلتها الأخيرة. تناولت خطابًا مكتوبًا بخط اليد مكونًا من عدة صفحات مجموعة معًا بمشبك معدني مما يستخدم للأوراق. مسحت دموع عينيها التي تنذر بالتساقط ثم بدأت تقرأه على مهل وكأنها تفعل لأول مرة.

(حبيبتى ماسة.. أخاطبك على ورق ولكم وددت أن أكون بجوارك فأخاطبك وجهًا لوجه لكن القدر لم يمهلني فأنا على وشك الرحيل في أي وقت. المرض يفتك بصدري وينتزع روحًا مستهلكة حاولت الاحتفاظ بها طويلًا لكنها رسالة السماء لي بأن أصلح عدة أخطاء ارتكبتها في حياتي ووجب التكفير عنها، وإذ تقرئين رسالتي الآن فأنا أعلم بأنك ستكملين ما انتويته لأن القدر لم يمهلني لأفعل. وجب عليّ التنبيه قبلًا بأنني أعرفك جيدًا وأعرف كيف تفكرين، وجدت فيك الكثير من الحكمة التي تخولك التصرف كما تشائين دون تأنيب الضمير. توسمت بأنك تحملين ضميرًا يقظًا فتصححين ما انتويت إصلاحه وأخرته لضعف قلبي أن أولم أشخاصًا أحببتهم فلم أستطع تعريفهم على حقيقتي.. شاء الله أن أسعى كثيرًا للحصول على طفل من صلبى يحمل ثمرة كفاحي ونجاحي باستثمار ثروة زوجتي والتوسع بها، وحين شاء الله أن يحدث ذلك كانت أمك تسبق جمانة بالحمل بفارق شهرين ثم يختار الله والدتك لتسعد روحها إلى بارئها بعد أيام قليلة من ولادتكما. سامحيني على الصدمة التي سأحدثها لعقلك، لقد أنجبتك والدتك مع طفل ضعيف البنية مصاب بخلل في جهازه التنفسي مما اضطر الأطباء لإدخاله الحاضنة. دُفنت والدتك وعاد بك والدك إلى المنزل، رضيعة تصرخ طمعًا في الحياة في حين أودع عمر الحاضنة وطالت فترة بقائه لأجل غير معلوم حتى أن الأطباء لم يهدونا الأمل بنجاته من صراعه مع صدره الضائق بالحياة ثم انتصر أخيرًا بعد أن فقدنا الأمل بتأنا وقرر الأطباء إخراجه مع

قائمة طويلة بالممنوعات التي يجب عليه اجتنابها طوال رحلة عمره. كان ذلك اليوم هو الذي فقدت فيه طفلي وكدت أفقد فيه جمانة إثر نزيف شديد أصابها بعد تسمم حملها فاضطر الأطباء لاستئصال رحمها إنقاذاً لحياتها، وكم كانت تلك صدمة موجعة لي بكل المقاييس! كنت أحاول التماسك أمامها كي لا أظهر لها انهيارني بفقدان الطفل ومعه فقدان حلمي لأن أكون أباً ما دمت متزوجاً منها لكنني لم أستطع إخبارها بالحقيقة وحذرت الأطباء من فعل ذلك. أخبرتهم بأني سأفعلها بطريقتي فصار الكل يخشى التحدث أمامها بحقيقة ما حدث وبالأخص أنها ظلت في غرفة العناية المركزة مدة ثلاثة أيام بعد العملية لسوء حالتها الصحية.

أتتني فكرة شيطانية في لحظة ضعف وخوف عليها. أخبرت والدك الذي كان يعاني معاناة جمة في الاعتناء بك وخوفه من العناية بطفل مريض طوال الحياة بأنني سأنسب عمري وأورثه ثروتي كما لو كان ابني. زينت له أنني سأجعل منه طفلاً مميزاً كما أنني سأهتم لأمرك كما لو كنت طفلي أيضاً. ساعدته على البدء بتجارته الخاصة من مال أودعته تحت حسابه في المصرف وأخبرته بأني لا أريد استرجاعه فهو منحة مني له، وكم كان والدك في ذلك الوقت ضعيفاً مهتزاً! فوفاة والدتك كانت صدمة لم يفق منها بعد كما أن وجود عمر في الحاضنة كل تلك المدة جعل تعلقه به ضعيفاً فوافق بعد تردد. بدأت أنفذ خطتي، وكم كان ذلك سهلاً مع المال وضعف النفوس! شهادة وفاة عمر

محمود أصدرت وشهادة ميلاد عمر مراد كتبت وقد أصر والدك على أن يحتفظ باسمه تخليدًا لذكرى والدتك. لم تعرف جمانة أبدًا بما حدث فضعف بنية عمر لم تخبرها بحقيقة عمره. ظلت طوال عمري أحمل ذلك السر بين جوانحي ويعلم الله بأنني أحبته كما لو كان ابنًا من صليبي كما أحببتك بنفس الكيفية. لم أستطع إخبار جمانة ولم أستطع إخبار عمر فلم تواتني الجراءة لفعلها أبدًا رغم نيتي بإصلاح ما ارتكبته يداي من جناية بحق الدين والمجتمع، وها أنا أترك الأمر بكل حيثياته بين يديك! ربما ترين الأمر من منظور مخالف لما أراه فتحسنين التصرف فيما تقررين. أردت أن أخبرك أيضًا عن واقع كتب عليك معاشته دون إرادة منك، واقع فرضه والدك على حياتك بإدخال حية كإيثار إليها لتحيلها لحياة بائسة. لم أحبها أبدًا ووددت ألا يتزوجها والدك! ويعلم ربي كم نصحته بالابتعاد عنها لكنها كانت أقوى وأذكى! خدعته بمحبتها لك حين كنت مريضة بعمر العامين محتجزة في المستشفى. رمت شباكها عليه وأقنعته بأنها ستكون أمًا رؤومًا تعوضك عن غياب والدتك فانساق خلف أكاذيبها ولم يأخذ وقتًا حتى تزوجها في مدة قصيرة جدًا ربما لم تتعد الشهر، ولأنه كان سعيدًا معها تظاهرت بأن كل الامور على ما يرام حتى استيقظ ذات يوم منذ عامين على حقيقتها البشعة حين وضعت يدها على كل ما يملك وكتبته باسمها. يومها اعترفت بما فعلته وتحدثه أن يستطيع إعادة أملاكه مرة أخرى إلى حوزته. كنت أسجل ما دار بينهما من حوار لأن والدك كان يحدثني وترك المكالمة دون أن ينهيها قاصدًا

ثم وافته المنية صباحًا دون مقدمات، وحين صارت الطبيب بشكوكي أن تكون وفاته تحمل شبهة جنائية أخبرني أن سبب الوفاة طبيعي لتوقف عضلة القلب. أخبرت صديقي أمجد المحامي بذلك التسجيل الذي أملكه باعترافها لكنه أخبرني بأن القانون لا يحمي المغفلين فأخذت على عاتقي إعادة حقه وحق أخي المتوفي بطريقتي الخاصة وبمساعدة أمجد صديقي، وهنا تكشفت لي الكارثة.. إيثار أرملة أخي المصون متزوجة عرفيًا من رجل أعمال صاعد يملك مستشفى نفسي خاص يديرها بإشراف ابنه، وأثناء سعيي خلفها توصلت بالصدفة لحقيقة بشعة وهي كون فيروز ابنة غير شرعية نجحت بالحصول عليها عن طريق تاجير رحمها لشخص ما ثم خدعته وهربت لتتزوج والدك وتنسبها له. لا أعلم الغرض من ذلك بعد لكن صديقني لن أتركها حتى أعيد الحق لصاحبه بكل طريقة ممكنة وغير ممكنة، وإن كانت حياتي ثمناً لذلك! سأترك كل ما تحصلت عليه من أوراق بحوزتك، فوجودها في الشقة يعني أنني لم أستطع تحقيق غايتي لكن لن أملي عليك ما تفعلينه بها فالأمر متروك تحت تصرفك وبين يديك، وثقي بأن أي قرار ستتخذه سأكون راضيًا عنه فأوزاري أحملها على عاتقي وآمل أن أجد كرمًا من ربي فلا أنال ما استحقته من عقاب).

أنهت القراءة فأغمضت عينيها الممتلئتين بالدموع قائلة بشجن: أي قرار وأي تصرف؟! لقد تركت لي مصيبة لن أقوى على حملها يا عمي. ما ذنبي أنا في قراراتكما الخاطئة أنت وأبي؟

هل كتب عليّ الشقاء بأن أحيا حياة تعيسة ثم بعد وفاتكما
أحمل أوزاركما فوق كاهلي؟ لك الله يا ماسة، لك الله!

صبيحة اليوم التالي وقفت في النافذة المطلة على الشارع،
تراقب بعينين مثقلتين بالهموم ما يدور في الأسفل. تكاد تترنح
وتتهاوى في وقفاتها المنهكة. في الأسفل ترى ذلك الطفل يركب
دراجته ويحمل خبزًا على رأسه، ينادي بصوته المرتفع على من
يشتره ولكم تمت أن تبيع تلك الهموم التي تحملها فتزيحها
من على أكتافها كما يفعل هو، لكن هل هناك من يرتضي شراء
هموم غيره في الدنيا؟!

وهناك تلك العجوز التي افترشت الرصيف المقابل لشقتها،
تبيع الخضروات الطازجة الشهية بينما يرش صاحب المحل
بجوارها الأرض بالماء عله يرطب حرارة الجو الخانقة والتي تبشر
بصيف خانق حار. تمت في لحظة رعناء أن تهبط للأسفل كي
يرشها بالماء، ربما يغسل بعضًا من أفكارها المرهقة التي
تتزاخم في رأسها فتساقط على الأرض كما تتساقط الأوساخ!

تتصاعد إلى أنفها رائحة الفلافل فتدغدغ معدتها وتذكرها
بأنها لم تتناول طعامًا منذ الأمس لكنها لا تشتهي الطعام!
عينها تخونانها فتتطلع بترقب نحو تلك السيارة المصفوفة
على أول الشارع والتي تعرف سائقها حق المعرفة. في رأسها
تتزاخم كل المخاوف والأفكار وتنتابها الهواجس وتذبذب يقينها

الاحتمالات ثم تعود عيناها لتلتهم عقارب الساعة التي تسير ببطء يثقل الأنفس وينهك الروح، وكأنها تتعمد معاندتها وإطالة عذابها. توقفت سيارة أجرة أمام البناية فظلت تنتظر بترقب لراكبها الذي ترجل منها ثم اختفى في مدخل البناية.

وأخيرًا ارتفع رنين جرس الباب! التوتر يعصف بها ويكاد ينخر وعيها لكنها تماسكت. رفعت هاتفها فطلبت رقمًا ما دون أن تتحدث ثم اتجهت نحو الباب بخطى بطيئة تناسب قدمها المحتجزة داخل جبيرة. فتحت الباب بحذر بعد أن رأت زائرتها من عدسة الباب الزجاجية، وما إن فعلت حتى اندفعت إيثار بلا استئذان حتى كادت أن تسقط ماسة أرضًا أثناء اندفاعها. دخلت تتأمل الشقة قبل أن تقول بأنفة:

أهذه شقتك التي تقيمين فيها؟ لا تخبريني بأن حبيبك يقيم في هذا الحي الحقيقير، فأنا أعلم بأنك تواعدين ذلك المحامي التافه من مكتب السيد أمجد!

لم تهتم ماسة بالرد على إساءتها. خمنت بأنها تتحدث عن ذلك اليوم الذي ذهبت لمقابلة مالك فيه فقد علمت من مالك بأن السيارة التي كانت تتبعها تابعة للسيد فاروق وقد كان سائقه ينتظر إيثار يومها خارج فيلا عمها. تركت الباب مفتوحا قليلا دون إغلاقه ثم سارت بهدوء نحو الأريكة فجلست عليها رافعة قدمها المُجَبِّرة على طاولة صغيرة أمامها دون اكتراث لإيثار. وضعت هاتفها بحذر على طاولة أخرى جانبية بين

موضعها وموضع وقوف إيثار ثم نظرت نحوها وقالت ببرود لا يتناسب مع خوفها الداخلي:

لست أنا من تفعل ذلك وتقيم مع حبيبها في السر أو دعيني أقول زوجها الذي تزوجته بعقد عرفي!

ضاقت عينا إيثار منذرة بالخطر وسألت بصفاقة: ماذا تقصدين؟

تجاهلتها ماسة متصنعة البرود وداخلها يغلي كمرجل: اجلسي، فبيننا حديث طويل!

تهكمت إيثار التي جلست بالفعل على المقعد المقابل: حديث؟ وأي حديث يجمع صعلوكة مثلك بمثلي؟

أجابت ماسة بلؤم: حديث من النوعية المكشوفة، دون خوف أو تظاهر.

ثم مدت يدها تتناول ورقة موضوعة بجوارها قائلة بسخرية: أهذا ما كنت تبحثين عنه في فيلا عمي ولم تجديه؟

عقبت إيثار بتماسك غير مظهرة لتوترها من حديث ماسة معها بتلك الطريقة: ما هذه التخاريف؟

ناولتها ماسة الورقة قائلة بشماتة: اقرئيها بنفسك.

تناولت إيثار الورقة وطالعتها فتغضن جبينها وتجهمت
ملامحها. نظرت لماسة شزرًا قائلة:

هذا كذب! هل امتهنت تزوير الأوراق؟

هزت ماسة كتفيها بسخرية قائلة: ربما يمكنني سؤال حرم
السيد فاروق حمدي عن مدى صحة زواجه من زوجة ثانية ثم
نترك لها التأكد من صحة تلك الشائعة.

وضعت إيثار الورقة على حجرها ببطء ترقب ماسة بسخرية
قائلة: لقد كبرت القطة وصارت تخدش بمخالبها. تعجبي
جرأتك وثقتك بنفسك. أتعلمين، وددت أن تكوني أنت ابنة لي
بدلاً من فيروز الخانعة التي لا تشبهني في شيء.

قالت ماسة بسخرية مفحمة: ربما لأنها ليست ابنتك من
الأساس!

عصف الغضب بلامحها الجميلة فبدت كشيطانة بغیضة
وقد همست بفحيح: ما هذا الهراء الذي تقولين؟ هل تتهميني
بالزنا؟ سأرفع عليك دعوة رد شرف.

لم تهتم ماسة بتهديدها فعقبت على كلامها بانفعال قائلة
بتهديد مشابه: أريدك أن تفعلي، وحينها سأجلس لأشاهدك
تحاولين إثبات أنها ابنتك بعد أن أريهم نتيجة تحليل الحمض
الأميني الخاص بها.

ثم أمسكت بيدها ورقة أخرى تقرأ ما بها بصوت مستفز:
الاسم فيروز، الأب سليمان الأغا والأم سهير صلاح.

خطفت إيثار الورقة من يديها قائلة بعنف: من أين حصلت
على تلك الورقة؟

قالت ماسة بسخرية تحمل بين طياتها حقداً دفيناً: إنها
ميراثي من عمي الذي قتلته بدمٍ باردٍ ودون أن يطرف لك جفن.

علمت إيثار أن اللعب صار بالطريقة المكشوفة فهذه
الحمقاء تظن أنها تعرف عنها الكثير. إذًا فلتعلمها ما تريد كي
ترضي غرور نفسها وتشبع فضولها ثم لتنتهي اللعبة على
طريقتها هي!

مالت نحو ماسة قائلة بسخرية: أتظنين أنك تعلمين كل
الحقائق؟

قالت ماسة وقد بدأ التوتر ينتابها: أعلم ما يكفي لوضعك
داخل زنزانة محكمة الغلق حتى تتعفني ما بقي لك من العمر.

قهقهت إيثار بصوت مرتفع قبل أن تسعل لتقول بعدها
باستفزاز يشعل غضب ماسة:

وكيف ستسجنيني يا محامية الغباء؟ فلا يوجد أدنى دليل
لاتهامي بأي جريمة.

قالت ماسة بغل: أعلم أنك من قتلت عمي وليس كما قيل في محضر النيابة بأنها جريمة بغرض السرقة. أعلم أنك من ضرب جمانة على رأسها وكدت أن تتسببي بمقتلها كما أنك من خدرني تلك الليلة في فيلا عمي. لقد سمعت فيروز جيدًا وصدقيني، فأنا أصدقها بالفعل وأعلم أن حقيقة إصابتها بفصام الشخصية ماهي إلا خدعة أوقعت بها الجميع فهي تتذكر كل الحقائق كما حدثت حتى أن الأطباء الذين يشرفون على علاجها هناك يتحIRON من ترابط حكايتها بتلك الطريقة. بإمكانني طلب عرضها على طبيب آخر لتقييم حالتها بعيدًا عن مستشفى زوجك وتقرير ابنه الذي لا أعرف مدى تورطهما بما تفعلينه.

قالت إيثار بقسوة: عمك الحقير كان يهددني بكشف سر فيروز. أتتخيلين كيف جرؤ على فعل ذلك؟ كان لا بد من إسكاته ولولا تدخل الحمقاء التي رزقت بها ما كان أحدا علم بذلك. اضطررت أن أزيف بعض الحقائق كي أحميها، تلك الصغيرة الرعناء.

قاطعتها ماسة بسخرية تحمل بين طياتها شذرات من
الحقد:

بل لتحمي نفسك وليس لحمايتها فأنت لا تهتمين البتة سوى بنفسك، ولا تنكري بأنك أنت من أطلق الرصاص على عمي وليس هي فلم تكن تضغط الزناد بأصبعها قط! أتعرفين كيف علمت؟ لقد ناولتها نموذجًا ورقيًا يشبه المسدس صنعته

بارتجال حين أخبرتني قصتها لكي تحاكي لي طريقة إمساكها
للمسدس، وحينها وجدت أن أصابعها كانت تلتف على المقبض
فقط دون إدخال إصبعها على الزناد.

أطلقت إيثار ضحكة مرتفعة للغاية حتى أن ماسة شعرت
بالانزعاج منها، وحين كفت عن الضحك لوحت بيدها وكأنها لا
تهتم باتهام ماسة لها ثم قالت كلماتها بتلذذ:

أتظنين أن ما فعلته سيلتفت له أحدهم؟ ابنتي مريضة
نفسياً وتعاني من عدة اضطرابات كافية بتوريطها مدى الحياة.
كان من السهل إقناع هادي بأن حالتها غير مستقرة فنوبات
هلوساتها زادت، كما أنني كنت أجبرها على تناول المهدئات
فبدي كلامها غير منطقيّ لذا فقد صدقني ووالده، ومع اعتبار
أن هادي يهتم لأمرها لذا فهو يولي علاجها جُل اهتمامه. المغفل
سقط في هوى فتاتي الحمقاء التعيسة للأسف! أما عن تخمينك
لما حدث فلك مطلق الحرية أن تفكري كما تشائين. لن أحرمك
متعة التخيل لسير الأحداث وقد حققت مرادي أخيراً!

صمتت تتطلع نحوها بتحد فالتزمت ماسة الصمت بدورها
وقد شعرت أن الغضب يستعر داخلها حتى أنها خشيت إن
تكلمت أن تقذف حمماً بركانية من داخل جوفها لكن إيثار عادت
تستكمل وكأنها تستعرض مدى قوتها وخبثها ودهائها:

حين ذهبت إلى عمك في مكتبه لم أكن أعرف بما ينتويه لكنه
هددني أن يكشف حقيقة زواجي السري وحقيقة ما فعلته في

الماضي بشأن فيروز. الحقيير كان لا غرض له سوى حمايتك. نسي أن فيروز ابنتي وسأحميها أيضًا فكان لا بد من التخلص منه لأنه أصبح شوكة في طريق استقرارى.

قالت ماسة بامتعاض:

أي استقرار تبحثين عنه؟! أنت سارقة قامت بسرقة مال أبي وسرقة مال أهل فيروز الحقيقيين. ألم تشعرى بأنك قد اقترفت كل ما لم يقترفه إنسان من قبل؟ ألم تكتفى بكونك أحقر امرأة على وجه الأرض فوددت أن تنهى مسيرتك بجريمة قتل؟

نهضت إيثار وعيناها الزرقاوان تلمعان بالقسوة بينما تقول بسخرية:

أوتظنين بأن عمك كان ضحيتى الأولى؟ يا لك من ساذجة!

ضحكت بصوت مرتفع ساخر بينما تتوجه نحو ماسة بخطوات سريعة ويدها داخل حقيبتها تعبث بها. توجهت ماسة خيفة منها ومن نظراتها المرعبة التي ترميها بها فحاولت النهوض بدورها بتوتر لكن إيثار انتزعت من حقيبتها حقنة ممتلئة بسائل، وما إن رأت ماسة الحقنة بيدها حتى تراجعت عدة خطوات بطيئة للخلف بقدر ما ساعدتها قدمها المجبرة لكن إيثار قبضت على يدها بقسوة قائلة بسخرية مقبته أثارَت الرجفة أضعافًا مضاعفة في قلب ماسة:

إلى أين يا حبيبتي؟ الآن وقد علمت كل ما كنت تبحثين عنه،
وقديمًا قالوا إن الفضول قتل القط.

بح صوت ماسة من الخوف وسألت بصوت متقطع: ماذا...
ستفعلين؟

سحبت إيثار غطاء الحقنة بأسنانها قبل أن تستعد لغرسه
في ذراع ماسة قائلة ببرود:

لا شيء! سأحقنك بكلوريد البوتاسيوم فقط.

ثم مالت ناظرة في عينيّ ماسة بشماتة: بالأمس حين
هاتفنتي لتحدي لي موعدًا للقائك في هذا العنوان الحقيق،
علمت أنك تخططين لشيء ما وإيثار لا تؤخذ على غفلة أبدًا!

ثم مالت تهمس بأذنها بكل ما يعتمل بقلبها من حقد وشر
وبغض: أتعلمين ما سيفعله بك؟ سيؤدي إلى تسارع ضربات
قلبك بعنف حد الجنون مما سيؤدي إلى قتلك بتوقف مفاجئ
بعضلة قلبك. سأكتفي بمشاهدتك بينما تلفظين أنفاسك أمام
عيني ثم أنعيك صباحًا بالدموع وأنعي زهرة شبابك التي
اغتالها الحزن.

ضرب الإدراك وعيها فهمست ماسة بصوت متقطع وقد
غشيتها الصدمة فصارت عيناها كبركتين متسعيتين من هول
المفاجأة: تمامًا كما فعلت مع والدي؟

وقفت ذاهلة وعقلها ينتفض بذكريات وفاة والدها المفاجئة
 لكن إيثار ضحكت بصوت مرتفع ثم قالت بغضب فبدت
 كالمجنونة التي تتقلب حالتها المزاجية بين لحظة وأخرى: كما
 فعلت مع والدك وكما فعلت مع الحقير زوج أمي من قبل
 فمهنتي لها الفضل في تعليمي ما أريد. أتودين معرفة سبب
 مقتله أيضًا؟

شردت للحظات فبدا وجهها مرعبًا وقد تحول لوجه ساحرة
 شريرة كما تظهر في الأفلام، نظراتها غاضبة تحمل حقدًا وشرًا
 يندفقان منها فيثير الرعب في قلب ماسة التي أوشكت على
 الموت خوفًا دون مؤثرات خارجية. عادت إيثار من رحلة إبحارها
 القصيرة في الماضي قائلة لماسة بقسوة:

لا يهم السبب فقد عانيت الهوان على يديه، والشكر له في
 صنع شخصيتي الجذابة التي أتمتع بها الآن. والآن قولي الوداع
 لحياتك القصيرة التي لا قيمة لها. سأشتاق لوجودك في حياتي
 وقد فقدت نداء لي!

ثم غرست المحقن بالفعل في ذراعها. صرخت ماسة برعب
 تقاومها أن تكمل دفع السائل في عروقهها وقد علمت بأن
 لحظاتها القادمة ربما لن تكون.

جلست ماسة ذاهلة عمّا حولها حتى أنها لم تنتبه إلى مالك الذي يخاطبها بقلق: ماسة هل أنت بخير؟ هل حققتك بتلك المادة؟

لكن ماسة اكتفت بأن حدقت به بعينين لا تريانه قائلة برعب: أبي مات مقتولاً كذلك، هل سمعتها؟

مال مالك ليجلس على قدميه أمامها قائلاً بلهجة حمّ لها كل قلقه وخوفه عليها:

بالله عليك أخبريني! هل أدتك؟

انهارت ماسة قائلة بنحيب يقطع القلب: أدتني؟ أتسألني هذا السؤال وأنت تعلم ما فعلته بي؟ لقد انتزعت روحي مرتين بل ثلاث مرات. أخذت مني أبي، عمي وكل ذكرياتي مع فيروز التي كنت أظنها أختي من صلب أبي. لم يعد لي شيء من ماضيّ حتى ميراثي نهبته، وتسألني هل أدتني؟!

قال مالك بمواساة لا يعرف بم يحييها: أردت الاطمئنان على صحتك. خفت أن تقتلك أنت الأخرى.

قالت بينما تخفي وجهها خلف راحتيتها وتنشج بصوت مرتفع: ليتها فعلت، ليتها أراحتني!

ارتفع صوت الرائد بلال في تلك اللحظة قائلاً: مالك، سأرحل الآن. هل كل الأمور بخير؟

قال مالك بقلق: ستكون بخير. سأصطحب ماسة إلى المستشفى أولاً لنطمئن على حالها ثم ألحق بك إلى مركز الشرطة.

قال بلال بشهامة: متى ما أصبحت بخير، اصطحبها لتدلي بإفادتها. لدينا تسجيل الاعتراف الذي أدلت به زوجة أبيها وسيتم تفريره في المحضر لحين حضور الأنسة ماسة.

نهض مالك على قدميه متوجّها نحو بلال قائلاً بامتنان: شكراً لك لأنك صدقتني دون دليل وحضرت معي في الوقت المناسب لإنقاذ ماسة من موت محتوم، فلولا سرعة بديهتك باقتحام المكان لكانت قد ودعتنا الآن.

قال بلال بمحبة: لأنني أعرفك يا مالك وأعرف ذكائك فأنت صديقي منذ أعوام قبل أن تكون محامياً نابغاً ستهتز لاسمه أركان المحاكم فيما بعد، وحمداً لله على سلامة المحامية تلميذتك.

ثم ربت على كتف صديقه بقوة قائلاً بتشجيع ضمني: هيا اذهب إليها لتصحبها إلى المستشفى. سأترك لكما سيارة شرطة لتوصلكما فحالتها تبدو سيئة بحق، ويبدو أنها تحتاج وجودك أكثر مما تعي.

تطلع مالك نحوها عاقداً حاجبيه قائلاً بقلق: أتمنى أن تكون بخير فقلبي يشعر بالخوف لأجلها كثيراً.

وقد كانت تلك بداية الحقيقة، حقيقة مشاعر لم يكتشفها
سوى مؤخرًا بعد أن تخط في تفسيرها على الوجه الأصح.

الذاتية

بعد عدة أشهر..

احتضنت ماسة فيروز المتوقفة على باب الشقة بتردد ثم
سحبته من ذراعها قائلة بمحبة:

ما بك يا حبيبتي؟ كل مرة تأتين للإقامة معي أستشعر
توترك الشديد.

قالت فيروز بصوت حاولت أن تجعله مرحًا فخرج مهتزًا رغمًا
عنها: أشعر بأني ما زلت أعاني صدمة الحقيقة.

أجلستها ماسة على الأريكة قائلة بمحبة: أنت أختي يا فيروز
رغم كل ما حدث.

سألته فيروز بقلق: هل أخبرت عمر بحقيقته أيضًا؟

صمتت ماسة هنيهة قبل أن تهز رأسها نفيًا قائلة: لن أخبره!

دهشت فيروز من قرارها وسألت بحيرة: لماذا؟

تشاغلت ماسة برص وورد ملونة جميلة في إناء مخصص
لذلك على طاولة جانبية، تفكر في قرارها وحيثياته. تذكرت جلسة
قراءة وصية عمها في مكتب السيد أمجد.

كانت وصيته مجحفة بحق عمر في حال كان والده الحقيقي هو من كتبها فقد وزع الإرث بالطريقة الشرعية كما لو كان عمر وماسة ابنا أخيه وليس عمر ابنه، ولكم أثار توزيع الميراث بتك الطريقة صدمة في نفس جمانة وعمر، وقد كان عمر يحسب أن الأموال ستعود كلها إليه رغم أنه ما زال الراجح الأكبر كما ينص قانون الميراث الشرعي. لم يعترض أن ترث ماسة من والده لكن ذلك أشعره بالتخبط كثيرًا، وما زال كلما رأى مالك يسأله إن كانت هناك وصية أخرى تفسر ذلك. لم يترك عمها في وصيته ما يشي بحقيقة نسب عمر. ربما خاف أن يجرحهما أو يدمر علاقته بجمانة.

كتب في وصيته أيضا اعتذارًا لفيروز، يخبرها به بأنها سترث والدتها التي استطاعت نهب ميراثها وميراث ماسة، وأنه يأمل أن تعرف الحب يومًا حين تعرف الحقيقة ولم يزد بأكثر من ذلك. كانت وصيته غامضة وغير مفهومة، يعاني إلى الآن عمر من غرابتها. في أحيان كثيرة أشفقت ماسة عليه وأرادت إخباره. أرادت أن تجرب الارتقاء في حضنه لتعوض حرمان سنوات مضت دون حضن الأخ لكنها في كل مرة تتراجع عن قرارها. شعرت بأنها تريد دفعة قوية كي تستطيع الإقرار بالحقيقة.

تهنأت عائدة إلى سؤال فيروز فأجابت بطبيعة الحماية فيها مفكرة أن الماضي قد حدث وانتهى ولا داعي لبلبل الجميع بنتائج المخفية:

ربما لأنني رأيت وقع صدمة الحقيقة عليّ وعليك فاكثفيت.
لا أريد ذلك لجمانة ولا لعمر.

أعادت النظر نحو فيروز قائلة بحزن:

أنتخيلين شعورك ولك أخ توأم طوال عمرك ولا تعرفين
سوى أنه ابن عم لك؟ أريد الآن أن أصرخ بها وأرتمي في أحضانها،
استشعر دفء حضان الأخ لكني خائفة من تبعات ذلك
التصرف. ستنهار كل صورة جميلة رسماها لعمي. لا أستطيع
الجزم بتصرف جمانة حين تعرف ولا أعتقد أن عمر سيتحمل
حقيقة كونه تربي في المنزل الخاطئ.

قالت فيروز مغمغمة بحزن: ها أنا أحاول التأقلم على حقيقة
أنني عشت أكبر كذبة في التاريخ بسبب جشع أمي بمال أبي
وأبيك.

تبسمت ماسة قائلة محاولة أن تلهيها عن حزنها: أرى أنك
استطعت أخيرًا نطق كلمة أبي للسيد سليمان الأغا.

هربت فيروز بعينيها للأسفل قائلة: أحاول التأقلم على
وجوده في حياتي. لا تتخيلين مدى فرحته باليومين اللذين
أقضيتهما في منزله هو وزوجته أو كما المفترض أن أقول لها أمي.
يحاولان جهدهما لإسعادي والتعويض علي حتى أنهما لم
يجبراني على تغيير اسم والدي إلى اسمهما لئلا يجبراني على
تفسير ما حدث لزميلاتي في الجامعة.

تبسمت ماسة بسعادة قبل أن تسألها بمحبة: متى ستستأنفين جلسات تعديل السلوك التي توقفت عنها؟

قالت فيروز بامتعاض:

أكره التحدث عن العلاج النفسي رغم اعتذار الطبيب هادي ووالده بعدما علما بما فعلته إيثار بي وبهما. لقد كانا ضحيتين لها أيضًا فالسيد فاروق لم يصدق كيف استطاعت إيثار خداعه وجره إلى الزواج منها في الخفاء بعد أن استطاعت التسلل إليه من خلف زوجته، وبالمناسبة هي صديقتها التي رشحت لي المعالجة في مستشفى زوجها وتحت اشراف ابنها. أتصدقين ذلك؟ لقد أفنعتهما أنني أخبرها بأشياء غريبة عن مقتل عمي منذ أن عرفت بموته مرسخة لديهما اعتقادا بأن حالتي تفاقمت حتى أنها أقنعت زوجها بأنها تخشى من إخباري لك عن هلوساتي فيفتضح أمر علاجي النفسي.

صمتت ثم عادت تنظر نحو ماسة قائلة بصوت مهتز: الطبيب هادي يريد الاعتذار بشكل لائق عن طريق دعوتنا للغداء في الخارج ذات يوم لكنني رفضت، كما أنني سأبحث عن طبيب نفسي آخر أتابع علاجي معه فلست أريد الاحتكاك به بعد الآن بأي شخص آخر كان موجودا في حياة تلك التي كانت تسمى أمي.

قالتها بامتعاض بالغ وكأنها أتت على ذكر حشرة مقززة. كانت إثارة تقضي وقتها في السجن، تنتظر المحاكمة بينما تحاول أن تثبت براءتها أو أن تخرج بأقل الخسائر الممكنة.

احتضنتها ماسة وقد تبسّمت قائلة بصدق: سنقبل دعوته يومًا ما حين تستقر الأمور وتصبح أفضل حالًا، كما أنني أشجع موقفك في استكمال جلسات علاجك في أي مكان يعجبك فما يهم هو أن تستأنفيها.

بدأت فيروز رافضة الملامح فما زالت في داخلها تحمل تلك الخفقات المضطربة نحو عمر، عمر الذي عرف حقيقة كونها ابنة رجل غريب ورغم ذلك ما يزال يعاملها كأنها ابنة عمه. في قرارة نفسها اتخذت قرارًا سرّيًا بأنها ستخبره بحقيقة علاقته بماسة. تشعر أن هذا واجبها نحوهما، كيف لا وهي تعلم كم تهفو روح ماسة للقرب من أخ حقيقي لها يحمل رائحة والدها ووالدتها؟

أما عمر فقد اعترف لها بأنه علم بحقيقة نسبها من قبل ورغم ذلك كتم سرها في قلبه ولم يخبره أحدًا، فقد أخبره السيد أمجد بتلك الحقيقة منذ فترة بعيدة قبل إلقاء القبض على إثارة بعدة ليالي. ارتاحت لقرارها ذلك فابتسمت وتحررت ملامحها من الرفض.

لم تعلم أن عمر حين علم بحقيقتها شعر بالأسى نحوها فقد علم أن تلك الصغيرة لاقت من المحن ما لن يحتمله أحد وأنها

تفتقد الاهتمام بها منذ الصغر. وصلته عدة مرات رسائل غامضة من عينيها تصرخ بتعلقها به ولم يفهم تلك الرسائل إلا حينما سمع ملبسات حادثة قتل والده وقد حرصت ماسة على إيصال بعض المعلومات التي تخبره بأن تلك الصغيرة تحتاجه وتهتم لأمره. ربما بعد بعض الوقت يستطيع أن يألف مشاعره نحوها، فقد وجد أنه يهتم لأمرها بشكل أبلغ من كونها ابنة عمه الراحل، وهذا شتته للغاية في هذا الوقت.

رمقت باقة الورد التي رصّتها ماسة بتناسق في الإناء ثم تبسّمت قائلة بمحبة: هل هي من مالك؟

أجابت ماسة بخجل: نعم! أرسلها لي صباحًا بمناسبة تحسن حال قدمي أخيرًا، واستطاعتي المشي عليها بعد جلسات العلاج الطبيعي.

هللت فيروز قائلة: إذاً فقد تحدد موعد الزفاف؟

ما إن ذكرت كلمة الزفاف حتى شردت ماسة بعينيها تتذكر ليلة القبض على إيثار، فقد وقف مالك بجوارها في المستشفى وظل ملازمًا لها طوال فترة التحقيقات التي تلت تلك الليلة حتى صارحها ذات يوم بأنه يريد لها ويحتاج وجودها في حياته لأن قلبه لا يحتمل أن تبعد عن عينيه بعد الآن. فاجأها ذلك ولقي صدياً مرحباً في قلبها النابض بعنف لمرآه. حينها طلبها للزواج من عمر وأمه جمانة لأنهما قريباها من الدرجة الأولى. إصراره عليها أن تخبر عمر بحقيقة علاقتها به وجد الرفض الشديد منها

فأثر احترام رغبتها ولو لفترة مؤقتة حتى يستطيع إقناعها فيما بعد كما أخبرها بنفسه.

ارتفع رنين الهاتف بنغمة جميلة هادئة قاطعًا عليها حبل أفكارها المتسرب في ذاكرتها فأطلقت فيروز صفيّرًا خافتًا قائلة بسرور: حين يأتي ذكر حبيب القلب.

تخضبت ماسة بحمرة الخجل قبل أن ترمقها بنظرة تأنيب قائلة: احتشمي يا صغيرة! ما زال الوقت مبكرًا لك على التحدث بمثل هذه الأمور.

قالتها ثم نهضت مبتعدة عن فيروز التي بدت بأفضل حال لها كما لم يحدث من قبل. أجابت بخفوت: مرحبًا!

أتاها صوت مالك محملاً في طياته بالعشق: مرحبًا يا قلب وعقل مالك! لقد أعددت قائمة بالأماكن المتاحة وسأمر عليك غدًا لتنتقي منها ما يناسب ذوقك لإقامة حفل الزفاف، هل أنت مستعدة؟

وصله صوتها الخافت بخجل: نعم!

ومع ردها الذي انتظره طويلاً، تصاعدت نبضات قلبه كأنها معزوفة تعزف لحنًا صاخبًا خيل إليه بأنه لحن الزفاف.

تمت بحمد الله.

مايو ٢٠١٩ / د. شيماء جاد